HUSSAM ABDEL-KAREEM

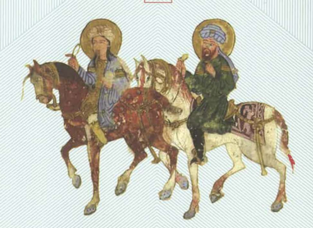
تاريخ

حسام عبد الكريم

صعود معاوية

عليّ وعائشة - حرب الجمل

2



دراسة في المصادر الإسلاميّة





الأهليّة للنشر والتوزيع
e - mail: alahlia@nets.jo
الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنيّة الهاشميّة، عمّان، وسط البلد بناية 12
هاتف 4638688 6 00962، فاكس 4657445 6 00962
ص. ب: 7855 عمّان 11118، الأردنّ
: AlAhliaBookstore
: alahlia_bookstore
الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان، وسط البلد، شارع الملك حسين، بناية 34

◆

صعود معاوية: دراسة في المصادر الإسلامية/ تاريخ
(الجزء الثاني)
عليّ وعائشة/ حرب الجمل
حسام عبد الكريم/ الأردنّ

◆

الطبعة العربيّة الأولى، 2019

◆

تصميم الغلاف: زهير أبو شايب، عمّان، هاتف 95297109 7 00962
الصفّ الضوئي: إيمان زكريا خطّاب، عمّان، هاتف 95349156 7 00962
لوحة الغلاف: الواسطيّ، تراث عربيّ

◆

الترقيم الدولي: ISBN 978 - 6589 - 09 - 903 - 1

حسام عبد الكريم

صعود معاوية

عليّ وعائشة ـ حرب الجمل

2

دراسة في المصادر الإسلاميّة



المقدمة

هذا الكتاب هو جزء من عملٍ ضخم، يمكن وصفه بالموسوعيّ، يبحث في أحداث قضية كبيرة جدا في تاريخ صدر الاسلام، ويغوص في تفاصيلها. وهو يتناول وقائع الفتنة الكبرى التي امتدت أحداثها في الفترة ما بين سنة 23 للهجرة (بداية حكم الخليفة عثمان) الى سنة 41 للهجرة (سيطرة معاوية على مقاليد الحكم). وهذا العمل أساساً هو بحثٌ وتنقيبٌ في أمهات الكتب والمصادر الأصيلة للتاريخ الإسلامي بهدف المساهمة في جلاء الحقيقة التاريخية لمن يسعى لها.

****

وأنا أزعم أن عملي هذا يختلف عن الاعمال المشهورة التي تناولت موضوع الفتنة الكبرى: يختلف عن طه حسين في كتابيه «علي وبنوه» و«الفتنة الكبرى / عثمان»، كما يختلف عن كتاب هشام جعيط «الفتنة / جدلية الدين والسياسة في الاسلام المبكر»، ويختلف عما كتبه عباس العقاد في سلسلة عبقرياته، ويختلف عن كتابات فلهاوزن وغيره من المستشرقين، ويختلف طبعا عن سرديّة الاسلام التقليدي (السني) لأحداث الفتنة الكبرى، كما في كتابات علي الصلابي على سبيل المثال. وكذلك يختلف عن كتب المحاججة الشيعية وسرديتها لأحداث الفتنة، كما في كتابات وأعمال علي الكوراني مثلاً.

أنا أزعمُ أن كتابي فريدٌ من نوعه، وبه إضافة نوعية لكل ما سبقه.

****

وبالامكان قراءة هذا الجزء من سلسلة «صعود معاوية» ككتاب مستقل،

لمن أحب الاطلاع حصرياً على موضوعه: بيعة عليّ وحرب الجمل. لا ضير في ذلك. ولكن من الأفضل طبعاً الإحاطة الكاملة بالموضوع عن طريق الاطلاع على الجزء الذي قبله: «خلفيات الفتنة الكبرى .. عهد عثمان» وكذلك الجزء التالي والأخير: «صفين، الخوارج ... ونهاية عليّ».

وأتمنى ان أكون قد وفقتُ في ما كتبتُ، وأن يجد القارئ في كتابي مادة غزيرة وغنية تلبي رغبته في المعرفة عن تلك الفترة الحرجة في تاريخنا والتي لا زالت تلقي بظلالها علينا الى الان.

حسام عبد الكريم

آب 2018

الجزء الاول:

بيعة عليّ

الفصل الاول: بيعة عليّ بعد مقتل عثمان

كيف بويع عليّ؟[1]

بعد مقتل الخليفة عثمان كان هناك شعورٌ عام بين الناس في المدينة المنورة بأن الأمة لا يجوز أبداً أن تبقى بدون إمام. كان شغور منصب الخليفة -ولو لفترة قصيرة- يمثل تهديداً خطيراً لوحدة أمة العرب التي أنجزها رسول الله(ص) ووطّدها الخلفاء من بعده. وقد عبّر صاحبُ الامامة والسياسة عن ذلك بقوله أن الناسّ «*كلّم بعضهم بعضاً فقالوا: يمضي قتل عثمان في الآفاق والبلاد فيسمعون بقتله، ولا يسمعون انه بويع لأحدٍ بعده. فيثور كل رجل منهم في ناحية، فلا نأمن أن يكون في ذلك الفساد. فارجعوا إلى عليّ فلا تتركوه حتى يبايع. فيسير مع قتل عثمان بيعة عليّ، فيطمئن الناس ويسكنون*».

ولذلك كان التوافد على عليّ من أجل البيعة عفوياً من أهل المدينة. وهذا الامر يجب فهمه في سياق خطورة الأوضاع التي بدأت تعصف بأمة الاسلام. يمكن القول انها كانت اقرب الى حركة شعبية تلقائية تمت دون ترتيب ولا تشاور مسبق. روى البلاذري في انساب الاشراف عن طريق الشعبي «*ان عثمان بن عفان رضي الله عنه لما قتل اقبل الناسُ الى علي رضي الله عنه ليبايعوه ومالوا اليه فمدوا يده فكفها وبسطوها فقبضها. وقالوا بايع فإنا لا نرضى الا بك*

(1) مصادر هذا البحث: الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص65-66)، انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص8)، البداية والنهاية لابن كثير (ج 7 ص 253)، أسد الغابة لابن الأثير (ج4 ص32)،كتاب الثقات لابن حبان (ج2 ص267)، تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص191).

ولا نأمن من اختلاف الناس وفرقتهم. فبايعه الناس وخرج حتى صعد المنبر».
وظاهرٌ من الروايات أن علياً كان المرشح الطبيعي لمنصب الخلافة.

وحسب رواية ابن كثير «*وقد امتنعَ عليّ من إجابتهم إلى قبول الإمارة حتى تكرّر قولهم له. وفرّ منهم إلى حائط بني عمرو بن مبذول. وأغلقَ بابَه فجاءَ الناس فطرقوا الباب وولجوا عليه. وجاؤوا معهم بطلحة والزبير. فقالوا له: إن هذا الأمر لا يمكن بقاؤه بلا أمير. ولم يزالوا به حتى أجابَ*»

وروى ابن الاثير في اسد الغابة وابن حبان في كتاب الثقات والسيوطي في تاريخ الخلفاء:

«*لما قتل عثمان جاء الناسُ كلهم إلى عليّ يهرعون، أصحابُ محمد وغيرهم، كلهم يقول: أمير المؤمنين عليّ. حتى دخلوا عليه داره. فقالوا: نبايعك، فمدّ يدك. فأنت أحق بها. فقال عليّ: ليس ذاك إليكم. إنما ذاك إلى أهل بدر. فمن رضي به أهل بدر فهو خليفة. فلم يبقَ أحدٌ إلاّ أتى علياً فقالوا: ما نرى أحداً أحق بها منك. فمُدّ يدكَ نبايعك*»

ومن الرواية الاخيرة هذه يبدو ظاهراً أن علياً يُصرّ على الشرعية، المتمثلة بنظره في أهل السبق في الإسلام ونصرة الرسول والجهاد في سبيل الله، أو حسب تعبيره: أهل بدر.[1]

ومن الملاحظات المهمة على اجمالي الروايات أعلاه ان بيعة عليّ السريعة تمت في أجواء من القلق والخوف من المجهول التي سادت المدينة بعد مقتل الخليفة. فكان ذلك حافزاً اساسياً للناس للاسراع في البيعة. وجرى تجاوز نظام عمر بن الخطاب (شورى كبار المهاجرين القرشيين).

---

(1) وفي رواياتٍ أخرى جاءت اضافة «اهل الشورى» الى «اهل بدر» على لسان علي كمصدرٍ للشرعية. ومن ذلك رواية في الإمامة والسياسة لابن قتيبة «*فقام الناس فأتوا علياً في داره. فقالوا: نبايعك. فمدّ يدك. لا بد من أمير، فأنت أحق بها. فقال: ليس ذلك إليكم. إنما هو لأهل الشورى وأهل بدر. فمن رضي به أهل الشورى وأهل بدر فهو الخليفة. فنجتمع وننظر في هذا الأمر. فانصرفوا عنه*»
ولكن من المستبعد أن يكون عليّ قد أضاف «أهل الشورى» إلى أهل بدر كمصدر للشرعية. فهو لم يعترف بشورى عمر ولم يتعامل معها إلاّ مرغماً.

هل الثوارُ وقتلة عثمان هم الذين عينوا علياً؟[1]

المتابعُ للروايات يلاحظ بوضوح النشاط الكبير الذي بذله الثائرون الذين كانوا في المدينة من أجل تنصيب علي بن ابي طالب في منصب الخليفة. والحديث يتكرر عن قياداتهم وعن الدور الذي قاموا به حتى ليظن الباحث ان بيعة عليّ انما كانت عملاً من انتاج هؤلاء النشطاء الذين ساهموا مباشرة أو غير مباشرة في قتل عثمان. وكمثال على ذلك نورد ما ذكره الطبري في تاريخه عن طريق المدائني: حيث ذكر أن علياً لما امتنع في البداية عن قبول البيعة جاءه الاشتر «*فأخذ بيده، فقبضها علي. فقال: أبعدَ ثلاثة؟ أما والله لئن تركتها لتقصرن عينيك عليها حينا. فبايعته العامة. واهل الكوفة يقولون أن أول من بايعه الاشتر*»

وكذلك رواية البلاذري في انساب الاشراف من طريق عبدالله بن علي بن السائب وفيها «*جاء علي والناس م ه، والصبيان يعدون ومعهم الجريد الرطب. فدخل حائطاً في بني مبذول. وطرح الاشتر النخعي خميصته[2] عليه ثم قال: ماذا تنتظرون؟ يا علي ابسط يدك.*

فبسط يده فبايعه. ثم قال: قوموا فبايعوا. قم يا طلحة، قم يا زبير. فبايعا وبايع الناس»

ولكن حقيقة الحال لم تكن كذلك.

فهؤلاء الثوار لم يكونوا يمتلكون الشرعية التي تمكنهم من فرض خليفة. وحتى لو كانوا هم القوة المسلحة الضاربة في المدينة المنورة في تلك الايام إلاّ ان ذلك لم يكن بحالٍ ليمنحهم السلطة الشرعية ولا الاخلاقية لتعيين خليفة للمسلمين.

فالدور الذي لعبه هؤلاء كان مساندأً لأصحاب الشرعية الحقيقيين، وهم «اهل بدر» بتعبير علي، أو عموم أهل المدينة المنورة في واقع الحال.

---

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج3 ص455)، انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص16+ ص8)، شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد (ج4 ص8)، كتاب الفتوح لابن اعثم (ج2 ص435)، الكامل في التاريخ لابن الاثير (ص402).

(2) الخميصة: كساء أسود مربع له علمان.

والرواية التالية في تاريخ الطبري توضح ذلك. فالثوار «أهل مصر» قالوا لجموع أهل المدينة «*أنتم أهل الشورى، وأنتم تعقدون الامامة، وأمركم عابر على الأمة، فانظروا رجلاً تنصبونه ونحن لكم تبع. فقال الجمهور: علي بن أبي طالب، نحن به راضون*»

وفي رواية الكامل لابن الاثير وصفٌ لموقف اهل المدينة وشعورهم بحراجة الموقف وضرورة مبايعة خليفة للمسلمين وكيف انهم اتجهوا الى عليّ «*فغشي الناسُ علياً، فقالوا: نبايعك! فقد ترى ما نزل بالاسلام وما ابتلينا به من بين القرى. فقال علي: دعوني والتمسوا غيري فإنا مستقبلون امراً له وجوه وله الوان لا تقوم به القلوب ولا تثبت عليه العقول. فقالوا: ننشدك الله! الا ترى ما نحن فيه؟ الا ترى الاسلام؟ الا ترى الفتنة؟ الا تخاف الله! فقال: قد اجبتكم*»

والحقيقة أن القاعدة الاساسية للذين أرادوا علياً كانت تضم مجموعة من كبار الصحابة ممن لهم رصيدٌ إسلاميٌ كبير، رغم الغياب الظاهر لكبار المهاجرين من ذوي الاصل القرشيّ.

وقد ذكر ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة عن كتاب الجمل لأبي مخنف أسماء المبادرين من هؤلاء «*ان الأنصار والمهاجرين اجتمعوا في مسجد رسول الله(ص) لينظروا من يولونه أمرهم، حتى غصّ المسجد بأهله، فاتفق رأي عمار وأبي الهيثم بن التيهان ورفاعة بن رافع ومالك بن عجلان وأبي أيوب*[1] *خالد بن يزيد على إقعاد أمير المؤمنين عليه السلام في الخلافة. وكان أشدهم عليه عمار فقال لهم: أيها الأنصار! قد سار فيكم عثمان بالأمس بما رأيتموه، وأنتم على شرف من الوقوع في مثله إن لم تنظروا لأنفسكم. وإن علياً أولى الناس بهذا الأمر، لفضله وسابقته. فقالوا: رضينا به حينئذٍ. وقالوا بأجمعهم لبقية الناس من الأنصار والمهاجرين: أيها الناس، إنا لن نألوكم خيراً وأنفسنا إن شاء الله. وإن علياً من قد علمتم، وما نعرف مكان أحدٍ أحمل لهذا الأمر منه، ولا أولى به. فقال الناسُ بأجمعهم: قد رضينا، وهو عندنا ما ذكرتم وأفضل*»

(1) هو الصحابي المشهور ابو ايوب الانصاري. حضر بيعة العقبة وشهد بدرا واحدا، ونزل الرسول (ص) ضيفاً في بيته عند اول هجرته للمدينة.

ولا يخفى ان هؤلاء الذين ذكرت اسماؤهم من الصحابة رفيعي المقام -من الطبقة الاولى، وخصوصاً من الأنصار[1].

وروى البلاذري في انساب الاشراف عن طريق ابي داود الطيالسي ما يشير الى الدور المهم الذي لعبه الصحابي الكبير عمار بن ياسر في بيعة علي *«قتل عثمان وعليّ بأرض له يقال لها البُغيبغة فوق المدينة باربعة فراسخ. فأقبل عليّ فقال له عمار بن ياسر: لتنصبنّ لنا نفسك، او لنبدأنّ بك!*

فنصب لهم نفسه فبايعوه»[2]

وأما الثوار من أهل الأمصار الذين كان حضورهم كثيفاً في المدينة، فلم يكن دورهم مباشراً في عملية اختيار وبيعة عليّ. فعلى الرغم من أن شخص عليّ كان يناسبهم تماماً، بسبب معارضته المعروفة لعثمان وسياساته، إلاّ أنهم كانوا يُسَلمون بأنه ليس في مقدورهم أن يمنحوا الشرعية للخليفة. وكانوا يعرفون أن أهل المدينة وحدهم هم الذين يقدرون على منح الشرعية أو حجبها[3]. ولذلك انحصر دورهم في الضغط على معارضي بيعة عليّ، بعد أن انتخبته المدينة.[4]

اذن قرر عليّ التجاوب مع نداء عامة المسلمين في المدينة، الخائفين من الوضع الخطير، وخاصة بعد أن تحقق شرطهُ بالحصول على الشرعية. وهو بقراره ذلك كان يلغي المبدأ الذي أرساه عمر بن الخطاب في حصر شؤون

---

(1) وفي رواية ابن اعثم الكوفي لاجتماع الناس في المسجد واختيار عليّ للخلافة ترد الاسماء التالية للأنصار الذين دعوا لمبايعة علي: ابو الهيثم بن التيهان، رفاعة بن رافع، مالك بن العجلان، خزيمة بن ثابت، الحجاج بن غزية وابو ايوب خالد بن زيد.

(2) أقبلُ الرواية مع تحفظي على اللغة المستعملة. فلم يكن عمار يتحدث مع عليّ هكذا، وخاصة «لنبدأن بك»!

(3) وفي رواية لابن اعثم يخاطب الثوار الكوفيون والمصريون أهل المدينة بقولهم *«أشيروا علينا، فإنكم أهل السابقة وقد سمّاكم الله أنصاراً، فأمرونا بأمركم»*.

(4) في تاريخ الطبري توجد رواية لسيف بن عمر تشير الى أن الثوار أخذوا بعد قتل عثمان يبحثون في المدينة، وبيأس شديد، عن أي رجل من كبار الصحابة ليبايعوه بالخلافة: فيطاردون عليا فيتهرب منهم، ويبحثون عن الزبير فلا يجدونه، ويطلبون طلحة فيتعد عنهم ويأتون سعداً ليعرضوا عليه البيعة فلا يقبل، ويلتمسون ابن عمر فيردّهما وهذه الرواية تظهر أن الثوار لم يكن لديهم تفضيل معين وأنهم لا يميزون بين كبار الصحابة. ولكن ذلك غير صحيح، بل ينبغي رد تلك الرواية لأنها من خيال سيف.

الخلافة في مجموعةٍ ضيقة من الصحابة القرشيين واستثناء جمهور المسلمين، سواء من الترشيح أو الترشّح. وهو بذلك يقبل أن تكون شرعية حكمه قائمة في الأساس على إجماع أهل المدينة و جمهور الأنصار.

هل كان عليّ طالبا للحكم؟ أم تمنّع عن قبول البيعة ؟[1]

أرى أنه كان بالفعل طالباً لمنصب الخلافة. ولا أشك في ذلك. وهناك روايات كثيرة تبيّن ذلك، ومنها :

رواية صالح بن كيسان[2] التي اوردها البلاذري في انساب الاشراف والتي تقول :

«قتل عثمان بن عفان لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة، فدعا علي بن ابي طالب الناسَ الى بيعته فبويع يوم السبت لاحدى عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة»

ولكن سيرته اللاحقة تثبت أن ذلك لم يكن لأسبابٍ شخصية بل كرسالةٍ عليه أن يؤديها. وقد قال عليّ مرّة «... *اللهم أنك تعلم أنّه لم يكن منّا منافسة في سلطان ولا التماس شيءٍ من فضول الحطام، ولكن لنردّ المعالمَ من دينك، ونظهر الإصلاحَ في بلادك. فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطّلة من حدودك. اللهم إنّي أول من أناب وسمع وأجاب، لم يسبقني الاّ رسول الله بالصّلاة. وقد علمتم أنّه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل فتكون في أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيضلّهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويذهب بها دون المقاطع، ولا المعطّل للسنّة فيهلك الأمّة*»[3]

---

(1) مصادر هذا البحث: انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص7+ ص16)، نهج البلاغة بشرح محمد عبده (ج2ص178).

(2) واخرج البلاذري ايضا رواية عن الزهري يقول فيها «لما قتل عثمان برز عليّ للناس فدعاهم الى البيعة فبايعوه، وذلك انه خشي أن يبايع الناس طلحة. فلما دعاهم الى البيعة لم يعدلوا به طلحة ولا غيره»

(3) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده.

وعلي بن ابي طالب كان يؤمن بحقه في الخلافة منذ اليوم الاول لوفاة النبي (ص). وموقفه من ابي بكر معروف. وهو ايضاً كان يشعر بأنه تعرض للظلم على ايدي عبد الرحمن بن عوف ومجلس الشورى الذي عينه عمر بن الخطاب فاختار عثمان على حسابه هو بالذات. ولذلك لم يكن يريد أن تتكرر الحالة فيجدُ غيرَه وقد تصدى لمنصب الخليفة فيبايعه البعضُ ليجد عليّ نفسه أمام خيار الطاعة أو خلق الفتنة كما حصل يوم السقيفة حين انشغل علي وبنو هاشم في تجهيز النبي (ص) ليجدوا أبا بكر قد بويع وانتهى الأمر. ومن هنا نفهم هذه الرواية للبلاذري عن طريق الزهري (انساب الاشراف) «*فلما قتل عثمان برز علي للناس فدعاهم الى البيعة فبايعوه، وذلك انه خشي ان يبايع الناس طلحة، فلما دعاهم الى البيعة لم يعدلوا به طلحة ولا غيره*»[1].

واما تمنع علي عن قبول البيعة فلا استبعد ان ذلك حصل بالفعل. وهناك روايات كثيرة تشير الى ذلك.

ولم يكن تمنّع عليّ عن القبول الفوري للبيعة إلاّ تعبيراً منه عن جسامة المهمة التي تنتظره. فهو كان يحمل نوايا إصلاح كبيرة جداً، وتتطلّب من جمهور المسلمين قبول تضحياتٍ لا شك عظيمة. فكأنه بتمنّعه ذاك أراد أن يقيم نوعاً من الحجة على الناس، لكي يعرفوا أنهم باختيارهم علياً، أخيراً، لا بد لهم من قبول قيادته وتوجيهاته مهما كانت مؤلمة. فهو يريد أن يقول لهم: أنتم الذين اخترتموني، وعليكم تنفيذ تعهداتكم الضمنية بالوفاء لي. لقد كان عليّ متجها نحو تغيير ثوريّ في مجمل الاوضاع التي خلقها عثمان في دولة الاسلام من خلال اثني عشرة سنة من الحكم، وتلك مهمة عسيرة وبحاجة الى جهدٍ وعرقٍ وتضحيات، وعلى الذين بايعوه أن يفهموا ذلك.

ليس صحيحاً أن علياً أراد مبايعة طلحة [2]

يجب استبعاد كل الروايات التي يظهر فيها عليّ وهو يطلب من طلحة (أو الزبير) أن يبسط يده ليبايعه. ومنها:

(1) رغم اني لا اعتقد ان طلحة كان مرشحاً حقيقياً لأن يبايعه «الناس» في تلك الظروف الصعبة.

(2) مصادر هذا البحث: انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص16)، كنز العمال للمتقي الهندي (ج5 ص 748)، كتاب الفتوح لابن اعثم الكوفي (ج2 ص435).

الرواية التي أخرجها البلاذري من طريق محمد بن سعد (انساب الاشراف) «لما قتل عثمان جعل الناس يبايعون عليا. قال فجاء طلحة فقال له عليّ: هات يدك ابايعك! فقال طلحة: انت أحق بها مني»

وكذلك رواية[1] المتقي الهندي في كنز العمال. فهو روى عن محمد بن الحنفية «لما قتل عثمان استخفى علي في دار لابي عمرو بن حصين الانصاري.

فاجتمع الناس فدخلوا عليه الدار، فتداكوا على يده ليبايعوه تداكك الابل البهم على حياضها، وقالوا: نبايعك.

قال: لا حاجة لي في ذلك. عليكم بطلحة والزبير!

قالوا: فانطلق معنا .

فخرج علي وانا معه في جماعة من الناس حتى اتينا طلحة بن عبيد الله.

فقال له: ان الناس قد اجتمعوا ليبايعوني ولا حاجة لي في بيعتهم، فابسط يدك ابايعك على كتاب الله وسنة رسوله.

فقال له طلحة: انت أولى بذلك مني وأحق لسابقتك وقرابتك. وقد اجتمع لك من هؤلاء الناس من تفرق عني.

فقال له علي: أخاف أن تنكث بيعتي وتغدر بي!

قال: لا تخافن ذلك. فوالله لا ترين من قبلي ابدا شيئا تكرهه

قال: الله عليك بذلك كفيل؟

قال: الله علي بذلك علي كفيل

ثم اتى الزبير بن العوام ونحن معه فقال له مثل ما قال لطلحة، ورد عليه مثل الذي رد عليه طلحة

وكان طلحة قد أخذ لقاحا لعثمان ومفاتيح بيت المال. وكان الناس اجتمعوا عليه ليبايعوه، ولم يفعلوا..»

---

(1) وجديرٌ بالذكر ان المتقي الهندي هو من اهل الحديث. وقريبٌ من هذه الرواية وردت في كتاب الفتوح لابن اعثم .

انها روايات مصممة بعناية لكي تنسجم مع الخط الرسمي للفكر المذهبي السني الذي يصر على ان يُظهر الصحابة وهم في حالة مثالية من الوئام والود والترفع عن المناصب الى حد انهم يتعازمون على الخلافة والكل بها زاهد!

رواياتٌ القصْدُ منها إظهار مخالفة عائلة عليّ له![1]

ونتكلم بالتحديد عن عبد الله بن العباس والحسن بن علي.

ومنها رواية عن زهدم الجرمي في تاريخ دمشق لابن عساكر يذكر فيها ان ابن عباس قال لجلسائه *«لما كان من أمر هذا الرجل ما كان، يعني عثمان، قلت لعلي: اعتزل، فلو كنتَ في جحر طلبتَ حتى تستخرج، فعصاني.*

وايم الله ليتأمرن عليكم معاوية، وذلك أن الله يقول (ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل انه كان منصورا). لتحملنكم قريش على سنة فارس والروم وليتمنن عليكم النصارى واليهود والمجوس، فمن اخذ منكم بما يعرف نجا ومن ترك -وأنتم تاركون- كنتم كقرن من القرون هلك فيمن هلك»

ومنها ما رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى عن زهدم الجرمي ايضا *«خطب ابن عباس فقال: لو لم يطلب الناس بدم عثمان لرموا بالحجارة من السماء»*

ولا يمكن تصديق مثل هذه الروايات، لعدة اسباب :

ففيها نبوءات بالغيب. وقد تحققت فعلاً، مما يرجح أنها تم تفصيلها بأثر رجعي لكي تنسجم مع الأحداث التي جرت لاحقاً.

وهي تجعل عبد الله بن العباس كمن يبدو معارضاً لعليّ ومؤيداً للطلب

---

(1) مصادر هذا البحث: الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص80)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج59 ص125) و انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص33).

بدم عثمان ومقتنعاً بدعاية معاوية! علماً بأن ابن عباس كان مقرباً من عليّ الذي استوزره واستعمله.

ومؤلفوا هذه الروايات ظنوا أن بإمكانهم استغلال الخلاف الذي حصل بين ابن عباس وعلي في أواخر عهد عليّ (بحدود سنة 40 للهجرة) عندما كان والياً على البصرة[1] فلفقوا هذه الروايات التي ترمي الى إظهار أن معاوية كان على حق وانتصاره كان حتمياً.

ومنها ايضاً ما رواه البلاذري في انساب الاشراف عن طارق بن شهاب *«قال الحسن بن عليّ لعليّ بالربذة وقد ركب راحلته وعليها رحل له رث: اني لأخشى ان تقتل بمضيعة!*

فقال: اليك عني. فوالله ما وجدت الاّ قتال القوم أو الكفر بما جاء به محمد»

وهذه الرواية تندرج في اطار سلسلة الروايات التي يهدف اصحابها الى إبراز خلاف مزعوم بين الامام علي وابنه الحسن. وكأن علياً متطرّف متعصّب والحسن معتدل ومتسامح! ومنبع هذه النظرية هو قيام الحسن بن علي بتسليم الحكم الى معاوية بعد اغتيال والده. فكانهم يريدون ان يقولوا ان الحسن كان يرى خلاف رأي ابيه منذ البداية وبالتالي ما ان استلم الحكم حتى نفذ ما يعتقده أصلاً: الخلافة لمعاوية!

وهذا الكلام كله غير صحيح، فالحسن وابوه لهما نفس الرأي والنظرة لمعاوية ولكل الأحداث التي جرت من ايام عثمان وما بعدها. وانما قام الحسن بتسليم الحكم لمعاوية مضطراً مرغما لظروف لم تترك له خياراً آخر. وستكلم بالتفصيل عن صُلح الحسن في فصول لاحقة.

وهل يمكن ان يقول الحسن لأبيه «لأخشى أن تقتل بمضيعة»!! هذا محال.

(1) سيأتي الكلام عنه في موضعه في الفصول اللاحقة.

تفنيد رواية منكرة[1]

وفي تاريخ الطبري نجد رواية[2] سيف بن عمر التي تفيد بأن الحسن بن عليّ قد أبلغ أباه أن كل مواقفه خاطئة وأنه لو أطاعه لما حصل الذي حصل:

«قال: أمرتكَ يومَ أحيط بعثمان رضي الله عنه أن تخرج من المدينة فيقتل ولستَ بها.

ثم أمرتكَ يوم قتل ألاّ تبايع حتى تأتيك وفود أهل الأمصار والعرب وبيعة كل مَصر.

ثم أمرتك حين فعل هذان الرجلان ما فعلا أن تجلس في بيتكَ حتى يصطلحوا فإن كان الفساد، كان على يدي غيرك.

فعصيتني في ذلك كله»[3]

وهنا يحاول سيف بن عمر أن يقوّل الحسن انه كان من الأفضل لو أن علياً لم يتصدّ للخلافة والبيعة والاكتفاء بانتظار أن تأتيه البيعة من كل الأمصار. فهل كان الحسن يظن ان معاوية والولاة الأمويين سيطاردون أباه ويلاحقونه من أجل إعطائه البيعة وهو في بيته؟! وهل الحسن من السذاجة بحيث يعتقد أن القرشيين من جماعة الشورى سيستبعدون أنفسهم ويطلبون عليا للإمارة؟! وهل يعقل للحسن ان يطلب من أبيه الخليفة ألاّ يخرج لملاقاة طلحة والزبير وهما يحشدان ضده!

الحقيقة أن هذه كلها رغبات وآراء سيف الذي كان يعتبر أنه كان من الأفضل لو بقي عليّ معتزلاً أمورَ المسلمين، قاعداً في بيته، تاركاً القيادة للآخرين. ولكنه قرر أن ينسب كل ذلك لابنه الحسن.

---

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج3 ص474)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص261)، الاخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري (ص146).

(2) وهذه الرواية أخرجها أيضا ابن كثير في البداية والنهاية دون الاشارة الى مصدرها. وفيها أن عليا قال للحسن انه «يحن حنين الجارية»!

(3) وقد روى ابو حنيفة الدينوري في الاخبار الطوال ما يشبه رواية سيف هذه دون أن يشير إلى مصدره، ودون أن يكون فيها (فإن كان الفساد كان على يدي غيرك). فربما أخذها عن سيف.

والعبارة الأخيرة التي استعملها «*كان الفساد على يدي غيرك*» خبيثةٌ جداً، وهي تشي بمقصد سيف الحقيقي. فهي تعني أنه ما دام عليّ قد عصى الحسنَ في ذلك، فالفساد كان على يديه هو. فغرضه أن يوحي بأن علياً هو سبب الفساد في الأرض.

الفصل الثاني:
مواقف مختلف الاطراف من بيعة عليّ

موقف كبار الصحابة من بيعة علي

هناك تضاربٌ في الروايات حول بيعة كبار الصحابة، والقرشيين منهم خاصة، لعليّ. والأرجح أن يكون أبرزهم قد بايعوه بالفعل، ولكن عن غير رغبةٍ منهم، بل ربما بضغطٍ أو نوع من الإكراه من جانب الثوار.

أولاً: طلحة والزبير[1]

المصادر التاريخية تتفق على أنهما بايعا علياً بالفعل، ولكنها متضاربة حول بيعتهما وكيف تمّت.

فهناك روايات تقول انهما بايعا بمحض ارادتهما، طائعين ومختارين، وبحماس ظاهر. ومنها:

رواية اليعقوبي في تاريخه. فقد أكد على ان علياً نال بيعة عامة وتامة

---

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ اليعقوبي (ج2 ص178)، انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص8 و ص19 و ص49)، تاريخ الطبري (ج3 ص451)، شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد (ج4 ص8)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج1 ص35)، العقد الفريد لابن عبد ربه (ج3 ص64)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص259)، الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص81 و ص88 و ص90)، كتاب الفتوح لابن اعثم (ج2 ص465)، كتاب الجمل للشيخ المفيد (ص40)، نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، (ج1 ص40 و ج3 ص334).

وطوعية من كبار الصحابة فقال «*بايعه طلحة والزبير والمهاجرون والأنصار، وكان أول من بايعه وصفق على يده طلحة بن عبيد الله. فقال رجل من بني أسد: أول يد بايعت يدٌ شلاء أو يدٌ ناقصة.*

وقام الاشتر فقال: ابايعك يا أمير المؤمنين على ان علي بيعة أهل الكوفة.

ثم قام طلحة والزبير فقالا: نبايعك يا أمير المؤمنين على ان علينا بيعة المهاجرين.

ثم قام ابو الهيثم بن التيهان وعقبة بن عمرو وأبو أيوب فقالوا: نبايعك على ان علينا بيعة الانصار، وسائر قريش»[1]

وايضاً روى البلاذري في انساب الاشراف عن صالح بن كيسان «*وكان أول من بايعه طلحة بن عبيد الله، وكانت اصبعه أصيبت يوم أحد فشلّت، فبصر بها اعرابي حين بايع فقال: ابتدأ هذا الأمر أشل. لا يتم*»

وأما الطبري في تاريخه فقد أخرج عددا كبيرا من الروايات المتعارضة حول بيعة طلحة والزبير. فبعض الروايات تذكر طلحة والزبير بالاسم، بالاضافة الى عموم الصحابة والمهاجرين والانصار، على أنهم «ألحّوا» على عليّ وطالبوه برجاء شديد أن يقبل البيعة «*واجتمع المهاجرون والانصار، فيهم طلحة والزبير، فأتوا عليا فقالوا: يا أبا الحسن هلمّ نبايعك. فقال: لا حاجة لي في أمركم. أنا معكم، فمن اخترتم فقد رضيت به، فاختاروا. فقالوا: والله ما نختار غيرك...*» وتذكر بعض الروايات أن طلحة بيده الشلاء كان أول من بايع، مما أدى الى تشاؤم بعض الناس من ذلك!

وروى ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة نقلاً عن كتاب الجمل لأبي مخنف «*فنهض الناسُ معه حتى دخل المسجد، فكان اول من بايعه طلحة. فقال قبيصة بن ذؤيب الاسدي: تخوفت ألا يتم أمره، لأن أول يد بايعته شلاء. ثم بايعه الزبير*»

---

(1) ولم يذكر اليعقوبي معارضات ابن عمر ولا سعد ولا اسامة ... الخ اللهم إلا بعض الشخصيات الاموية، وهم بالتحديد: مروان بن الحكم، وسعيد بن العاص والوليد بن عقبة، اللذين قالوا له، على لسان الوليد، انهم لن يبايعوه لأنه وترهم وكان يعيب عليهم، فتركهم علي على حالهم، ولكن مروان قال له: بل نبايعك، ونقيم معك فترى ونرى.

إلاّ أن الأرجح والأصحّ انهما فعلا ذلك مُكرهَين. وهناك الكثير من الروايات التي تؤيد ذلك :

فمثلا روى الذهبي في سير أعلام النبلاء «*كان طلحة أولّ مَن بايع. أرهقه قتلة عثمان، وأحضروه حتى بايع*»

وأخرج البلاذري في انساب الاشراف رواية عن أبي مخنف عن الشعبي «*وأخذ طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام مفتاح بيت المال وتخلفا عن البيعة. فمضى الأشتر حتى جاء بطلحة، يتله تلاً عنيفاً، وهو يقول: دعني حتى انظر ما يصنع الناس فلم يدعه حتى بايع عليا. فقال رجل من بني أسد يقال له: قبيصة بن ذويب: أول يد بايعت هذا الرجل من أصحاب محمد(ص) شلاء. والله ما أرى هذا الأمر يتم. وكان طلحة أول من بايع من أصحاب رسول الله(ص). وبعث علي بن أبي طالب من أخذ مفاتيح بيت المال من طلحة.*

وخرج حكيم بن جبلة العبدي إلى الزبير بن العوام حتى جاء به فبايع. فكان الزبير يقول: ساقني لصٌ من لصوص عبد القيس حتى بايعتُ مكرها»

وايضا روى البلاذري في انساب الاشراف من طريق الزهري «*وقد بلغنا ان عليا قال لهما: إن أحببتما أن تبايعاني فافعلا. وإن أحببتما بايعت أيكما شئتما. فقالا: بل نبايعك.*

ثم قالا بعدُ: انما صنعنا ذلك خشية على انفسنا. وقد عرفنا انه لم يكن ليبايعنا. ثم طمرا الى مكة بعد قتل عثمان باربعة أشهر»[1]

وكذلك روى البلاذري عن معمر عن قتادة ان علياً قال لطلحة عندما التقيا في البصرة يوم الجمل «*ويحك أما بايعتني؟ قال: بايعتك والسيف على عنقي*»

وفي تاريخ الطبري روايات تذكر أن طلحة والزبير قد أجبرا بالفعل على البيعة تحت تهديد السلاح. فالزهري يروي أنه بعد أن بويع علي «*أرسل الى الزبير وطلحة فدعاهما الى البيعة. فتلكأ طلحة! فقال مالك الاشتر، وسلّ سيفه، والله لتبايعنّ أو لأضربنّ به ما بين عينيك! فقال طلحة: وأين المهرب عنه؟ فبايعه، وبايعه الزبير والناس..*»

(1) وانا استبعد جدا ان يكون علي قد عرض عليهما أن يبايع احدهما

وروى سيف بن عمر «*لما قتل عثمان رضي الله عنه واجتمع الناس على علي ذهب الاشتر فجاء بطلحة. فقال له: دعني أنظر ما يصنع الناس. فلم يدعه. وجاء به يتله تلاً عنيفاً. وصعد المنبر فبايع...... وجاء حكيم بن جبلة بالزبير حتى بايع. فكان الزبير يقول: جاءني لص من لصوص عبد القيس فبايعت واللج على عنقي*»

وروى ابن عبد ربه في العقد الفريد ان طلحة أجاب أهل البصرة لما سألوه عن بيعته علياً في المدينة فقال «*أدخلوني في حشّ، ثم وضعوا اللجّ على قَفَيّ فقالوا: بايع وإلاّ قتلناك. قوله اللج: يريد السيف. وقوله قفي: لغة طيء، وكانت أمه طائية*»

وروى ابن كثير في البداية والنهاية أن مندوبي عثمان بن حنيف حينما ذهبا لاستطلاع خبر عائشة وجمعها القادمين الى البصرة «*فجاءا الى طلحة فقالا له: ما أقدمك؟ فقال: الطلب بدم عثمان. فقالا: ما بايعتَ علياً؟ قال: بلى، والسيف على عنقي، ولا أستقبله إن هو لم يخل بيننا وبين قتلة عثمان. فذهبا الى الزبير فقال مثل ذلك...*»

وروى صاحب الامامة والسياسة ان لا الزبير ولا طلحة نفيا، حينما واجههما الناسُ في البصرة بعد بضعة شهور بإلزامية بيعتهما لعليّ، أنهما بالفعل قد بايعاه، ولكنهما سيتعذّران أنهما بايعا مجبَرين «وقال الزبير: بايعنا علياً والسيف على أعناقنا. حيث تواثب الناس بالبيعة إليه دون مشورتنا»

و«قال طلحة: دعانا إلى البيعة بعد أن اغتصبها وبايعه الناس..... وخفنا أن نرد بيعته فنقتل، فبايعناه كارهين».

كيف يقبل عليّ بيعة الزبير وطلحة وهما مُكْرَهان؟؟

اذن تمت بيعة طلحة والزبير بالاكراه. وإن كان من المستبعد أن يكون عليّ قد أمرَ بذلك، إلاّ أنه ولا شك كان يدرك أنهما إنما يبايعان كارهين، وقبلَ ذلك منهما لأنه لا سبيل آخر في تلك الظروف، ولأن الشكليات مهمة أيضاً وخاصة ضرورة الظهور بنوع من الوحدة من قبل صحابة الرسول(ص).

وسوف يصرّ عليّ لاحقاً على إلزامية بيعته في أعناق الرجلين، وسوف يحتج عليهما ببيعتهما له على الملأ ولن يقبل منهما ادعاءهما بأنهما بايعا مُكرَهين. فعليّ يعتبر أنه لا يجوز نكث البيعة بعد حصولها، بغضّ النظر عن الاقتناع الشخصي للرجل المبايع وموقفه من الخليفة.

فقد كتب عليّ إلى طلحة والزبير قبل معركة الجمل *«فإن كنتما قد بايعتماني كارهين فقد جعلتما لي عليكما السبيل بإظهاركما الطاعة، وإسراركما المعصية. وإن كنتما بايعتماني طائعين فارجعا إلى الله من قريب»*[1]

وفي رواية ابن اعثم[2] أنه احتج عليهما بتاريخهما ومكانتهما في الاسلام التي تجعل عذر «الإكراه» غير مقبول من مثلهما *«فإن كنتم قد بايعتم مكرهين فقد جعلتم اليّ السبيل عليكم بإظهاركم الطاعة وكتمانكم المعصية، وأنت يا زبير فارس قريش! وأنت يا طلحة شيخ المهاجرين! ودفعكم هذا الامر قبل أن تدخلوا فيه كان أوسع لكم من خروجكم منه بعد إقراركم»*

وقال أيضا عن الزبير بالتحديد :

«يزعم أنه قد بايع بيده، ولم يبايع بقلبه، فقد أقرّ بالبيعة، وادّعى الوليجة فليأتِ عليها بأمر يعرف، وإلاّ فليدخل فيما خرج منه»[3]

وعليّ نفسه كانت سيرته مثالاً أكيداً على هذا المبدأ: فهو قد بايعَ الخلفاءَ قبله عن غير اقتناع منه ولا رغبة. وعندما أشار معاوية بن أبي سفيان مرة، في معرض القدح، إلى أن علياً كان يبايع الخلفاء قبله مُكرهاً، لم ينفِ عليٌّ ذلك بالتحديد :

«وقلتَ أني كنتُ أقاد كما يقاد الجملُ المخشوش حتى أبايع. ولعمر الله لقد أردتَ أن تذمّ فمدحتَ، وأن تفضحَ فافتضحتَ! وما على المسلم من

---

(1) الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص90).

(2) كتاب الفتوح لابن اعثم (ج2 ص465). وقوله «دفعكم هذا الامر...» يعني خلافكم عليّ بشأن الخلافة

(3) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، (ج1 ص40). والوليجة هي ما يضمر في القلب ويكتم.

غضاضة في أن يكون مظلوماً، ما لم يكن شاكّاً في دينه ولا مرتاباً بيقينه. وهذه حجّتي إلى غيرك قصدها...»[1]

وقد كان قاومَ الضغوط الكبيرة التي تعرّض لها ليبايع أبا بكر بعد السقيفة، واستمر على موقفه ذاك فترة طويلة. ولكنه بعد أن بايعَ اعتبر أن البيعة قيدٌ ملزمٌ في عنقه يستحيل الخروج عليه. وذلك تكرر مع عمر وعثمان. لم يشق عليّ عصا الطاعة ولم يدعُ إلى ثورة، وقرر اعتبار وحدة جماعة المسلمين فوق كل اعتبار. كان الشعور الداخلي بالظلم والغبن الذي تعرّض له نوعاً من التضحية التي يقدم عليها عليّ من أجل مصلحة دين محمد(ص) وأمة العرب التي وحّدها. ولا شك أن علياً كان يذكر أن عدداً مهماً من كبار شخصيات الصحابة قد تخلفوا عن بيعة أبي بكر في أول الأمر، وعارضوا تنصيبه خليفة، ولكنهم اضطروا إلى القبول به والاعتراف بسلطته لاحقاً، بعد أن حصل على بيعة عامة من المسلمين، في المدينة. إن غياب كل بني هاشم، وعلى رأسهم عليّ والعباس، بالإضافة إلى شخصياتٍ من عيار أُبيّ بن كعب، وعمار بن ياسر، وسعد بن عبادة، وأبي ذر الغفاري، والزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، لم ينقض بيعة أبي بكر ولم يمنعه من ممارسة سلطته.

وكان عليّ يؤمن أن هذا هو السلوك الواجب اتباعه من قبل الصحابة لأنه لا يمكن أبداً حصول إجماع على شخص الخليفة على صعيد الاقتناع الشخصي لكل الناس. ولا بد أن يوجد من بين الناس مَن يعتقد أن شخصاً آخر أولى من الخليفة في منصبه، فما العمل؟

الحل بنظر عليّ هو أن مَن يمنح الشرعية هم غالبية أهل المدينة المنورة والمهاجرين، وذلك قد حصل بالفعل في حالته. مع ملاحظة أن علياً هنا يخالف منهج عمر بن الخطاب في حصر الأمر في شورى بضعة أشخاص من المهاجرين القرشيين واستثناء الأنصار من ذلك تماماً.

ولكن لا يمكن اعتبار طلحة والزبير معفيين من اللوم ولا بريئين من مسؤولية التمرد على الخليفة وإشعال الحرب الأهلية الأولى في الإسلام

(1) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده (ج3 ص334).

بعد بضعة شهور، حتى وإن تعرضا لضغوط لكي يبايعا! لأنه ببساطة كان ممكناً لهما أن يعتذرا من عليّ عن عدم البيعة، ولم يكن عليّ ليكرههما عليها بالقوة. فمثلاً يروي الطبري أن كلاً من سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر، وعلى انفراد، قد رفضا بيعة عليّ وقالا له: «*لا نبايع حتى يبايع الناس*» وأنه تركهما ولم يجبرهما على البيعة. ولا يخفى أن سعد بن أبي وقاص هو نظيرٌ لطلحة والزبير، وكان ممكناً لهما أن يفعلا مثله، بدلاً من نكث البيعة العلنية لاحقاً.

وجهة النظر الشيعية

ويمكن أخذ ما رواه الشيخ المفيد في كتاب الجمل كنموذج لرؤية المذهب الشيعي لموضوع بيعة علي.وهو يبتدأ الكلام بقوله «*قد ثبت بتواتر الاخبار ومتظاهر الحديث والآثار*» ثم يشرع بالحديث عن امتناع علي من قبول بيعة «الصحابة» بعد مقتل عثمان، وإصرارهم بإلحاح شديد على بيعته، وأنه قرر أن «يمتحنهم» فاقترح عليهم أن يبايعوا طلحة أو الزبير «*فأبى القومُ عليه تأمير من سواه، والبيعة لمن عاداه. وبلغ ذلك طلحة والزبير فصارا اليه راغبين في بيعته، منتظرين للرضا بتقدمه عليهما، وإمامته عليهما. فامتنع! فألحّا عليه في قبول بيعتهما له. واتفقت الجماعة كلها على الرضا به وترك العدول عنه الى سواه*» وبدأ الناس يتزاحمون ويتدافعون من شدة حرصهم وانكبابهم على بيعته «*فتمت بيعة المهاجرين والبدريين والانصار العقبيين المجاهدين في الدين والسابقين في الاسلام من المؤمنين واهل البلاء الحسن مع النبي(ص) من الخيرة البررة الصالحين*». ثم يبدأ الشيخ المفيد بعمل مقارنة بين بيعة علي- التي تمت بذلك الاجماع الكبير طوعا وايثاراً -وبيعة الخلفاء الثلاثة من قبله. فيقول بأن بيعة علي أصحّ، لأن بيعة ابي بكر انما تمت بأربعة (عمر وابو عبيدة وبشير وسالم)، وتمت بيعة عمر بواحد (وهو ابو بكر) بينما تمت بيعة عثمان بالخمسة من اهل الشورى. ومن ذلك العرض كله يريد الشيخ المفيد أن يخلص الى النتيجة التالية «*ثبت فرض طاعته وحرم على كل أحد من الخلق التعرض لخلافه ومعصيته، ووضح الحق في الحكم على*

مخالفيه ومحاربيه بالضلال عن هدايته والقضاء بباطل مخالفة أمره وفسقهم بالخروج عن طاعته»

ثانياً: موقف سعد بن ابي وقاص و عبد الله بن عمر[1]

يمكن القول ان هذين الصحابيين هما من أهم رموز تيار «اعتزال الفتنة» في صفوف الصحابة في تلك الفترة. وهو التيار الذي اتخذ موقفاً سلبياً من كل ما يجري ورفض تأييد أيٍّ من أطراف النزاع.

لا خلاف على موقفهما هذا بين كل المصادر التاريخية.

ورغم ذلك إلاّ ان هناك قولين بشأن بيعة هذين الصحابيين:

الاول، وهو ما نذهب اليه ونعتقد بصحته، انهما لم يبايعا علياً بالخلافة على الاطلاق

والثاني، انهما قد بايعاه بالخلافة ولكنهما تخلفا (قعدا، بالتعبير القديم) عن الخروج معه للعراق والمشاركة في حروبه هناك.

والروايات التي تدعم رأينا، وهي أنهما رفضا بيعة عليّ من حيث المبدأ، كثيرة للغاية، ومنها :

اورد البلاذري في انساب الاشراف رواية ابي مخنف عن الشعبي *«واتي عليٌّ بعبد الله بن عمر بن الخطاب ملبيا والسيفُ مشهورٌ عليه. فقال له: بايع.*

فقال: لا ابايع حتى يجتمع الناس عليك.

---

(1) مصادر هذا البحث: انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص8)، كتاب الفتوح لابن اعثم (ج2 ص442)، تاريخ الطبري (ج3 ص 451-454)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص253)، شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد (ج4 ص9)، الامامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص72-73)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص31)، الأخبار الطوال للدينوري (ص143)، المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري (ج3 ص115-118 + ص558)، كتاب الجمل للشيخ المفيد (ص45)، كتاب الثقات لابن حبان (ج2 ص270)، نهج البلاغة، بشرح محمد عبده (ج1 ص35)، سير اعلام النبلاء للذهبي (ج3 ص224).

قال: فأعطني حميلا الا تبرح

فقال: لا أعطيك حميلاً.

فقال الأشتر: ان هذا رجل قد أمِن سوطك وسيفك فأمكني منه.

فقال علي: دعه، أنا حميله. فوالله ما علمته إلاّ سيئ الخلق صغيرا وكبيرا.

وجيء بسعد بن أبي وقاص فقيل له: بايع.

فقال: يا أبا الحسن إذا لم يبقَ غيري بايعتك.

فقال علي: خلوا سبيل أبي اسحق»[1]

وكذلك رواية ابن اعثم الكوفي في كتاب الفتوح:

«وأقبل سعد بن ابي وقاص الى علي بن ابي طالب رضي الله عنه فقال: يا ابا الحسن، والله ما أشك فيك أنك على الحق، ولكني أعلم أنك تنازعُ في هذا الامر والذي ينازعك فيه هم أهل الصلاة. فإن أحببتَ أني ابايعك فأعطني سيفاً له لسانٌ وشفتان يعرف المؤمن من الكافر حتى أقاتل معك مَنْ خالفك بعد هذا اليوم!

فقال علي رضي الله عنه: يا بن نجاح يا سعد! أترى لو أن سيفاً نطق بخلاف ما نزل به جبريل عليه السلام هل كان إلاّ شيطاناً ؟! ليس هكذا يشترط الناسُ على واليهم. بايعْ واجلسْ في بيتك. فإني لا أكرهك على شيء.

فقال سعد: حتى انظر في ذلك يا أبا الحسن.

فوثب عمار بن ياسر فقال: ويحك يا سعد ! أما تتقي الله الذي اليه معادُك؟! أيدعوك أمير المؤمنين الى البيعة فتسأله أن يعطيك سيفاً له لسان وشفتان؟! أما والله ان فيك لهنّات»

---

(1) وروى ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة نقلًا عن كتاب الجمل لأبي مخنف نفس هذه الرواية تقريباً، ولكن فيها زيادة على لسان سعد، أنه قال لعليّ: «والله لا يأتيك من قبلي أمرٌ تكرهه أبدا» وكذلك زيادة على لسان عليّ أنه قال للأشتر بشأن ابن عمر انه لا يريد منه البيعة «على كُره».

وأما الطبري في تاريخه فرغم أنه أخرج روايات تتحدث عن إلحاح عموم «الصحابة» أو «المهاجرون والانصار» على عليّ من أجل قبول البيعة، إلاّ أنه أخرج رواية عن ابن شبة يذكر فيها صراحة أن سعداً وابن عمر امتنعا عن بيعة علي بالرغم من تعرضهما الى الضغط والتهديد من قبل الاشتر، فتركهما ولم يرغمهما. والرواية هذه قريبة من رواية الشعبي لدى البلاذري.

كما أخرج رواية عن محمد بن عمر (الواقدي) يذكر فيها «*بايع الناسُ عليا في المدينة، وتربص سبعة نفر فلم يبايعوه: منهم سعد بن ابي وقاص، ومنهم ابن عمر، وصهيب، وزيد بن ثابت، ومحمد بن مسلمة، وسلمة بن وقش، واسامة بن زيد*»[1]

وروى ابن قتيبة في الامامة والسياسة ان عمار بن ياسر لما طالب ابن عمر بالبيعة لعلي اعترف بفضله وأحقيته ولكنه رفض بحجة انه« *جاء أمرٌ فيه السيف ولا أعرفه*»

واما سعد بن ابي وقاص فإنه لما اتاه عمار «*أظهر الكلام القبيح*»

فرجع عمار بأخبارهما الى علي فقال «*دعْ هؤلاء الرهط: اما ابن عمر فضعيف، واما سعد فحسود*»[2]

ويبدو أن ابن عمر كان يرى بيعة علي غير شرعية على الاطلاق! والحل بنظره هو أن يقيل عليٌّ نفسه منها ويردّ الأمر شورى حسب طريقة عمر. فابنُ ابي الحديد يروي عن ابي مخنف ان ابن عمر قد رجع لعليّ في اليوم التالي لامتناعه عن بيعته واقترح عليه «*أتاه في اليوم الثاني فقال: اني لك ناصح: ان بيعتك لم يرضَ بها كلهم. فلو نظرتَ لدينك ورددتَ الأمرَ شورى بين المسلمين! فقال علي عليه السلام: ويحك! وهل ما كان عن طلب مني له؟ ألم يبلغك صنيعهم؟ قم عني يا أحمق، ما أنت وهذا الكلام!*»

---

(1) وأخرج ابن كثير في البداية والنهاية نفس هذه الرواية عن الواقدي ولكن فيها اختلاف طفيف في بعض الأسماء: فهو يقول :محمد بن ابي سلمة وسلمة بن سلامة بن رقش !

(2) ولكن هذا الخبر في الامامة والسياسة جاء تحت عنوان «*اعتزال عبد الله بن عمر وسعد بن ابي وقاص ومحمد بن مسلمة عن مشاهد علي وحروبه*» فهل يعني ذلك ان الامتناع كان عن القتال فقط - بعد البيعة؟

وأما الرأي الثاني، الذي يقول ان سعدا وابن عمر قد بايعا علياً كخليفةٍ ولكنهما رفضا تأييده في حروبه، فتدعمه الروايات التالية:

قال ابن سعد في الطبقات الكبرى بشأن الذين امتنعوا عن بيعة علي: *«قالوا: بايعه طلحة والزبير وسعد بن ابي وقاص وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وعمار بن ياسر واسامة بن زيد وسهل بن حنيف وابو ايوب الانصاري ومحمد بن مسلمة وزيد بن ثابت وخزيمة بن ثابت وجميع من كان بالمدينة من اصحاب رسول الله(ص) وغيرهم»* وأضاف *«ثم ذكر طلحة والزبير انهما بايعا كارهين غير طائعين»*

والسياق الذي يورده أبو حنيفة الدينوري في أخبار المعارضين لعلي من كبار الصحابة لا يوحي بأنهم رفضوا أن يبايعوه، بل أن تلك المعارضة ظهرت حينما انتدب عليٌ الناس للخروج معه إلى العراق. واما عند تطرقه لبيعة علي فيقول *«ثم قتل عثمان رضي الله عنه. فلما قتل بقي الناس ثلاثة أيام بلا إمام، وكان الذي يصلي بالناس الغافقي. ثم بايع الناسُ عليا رضي الله عنه»*

وهو على كل حال لا يذكر سوى أربعة أشخاص بعينهم. ويقول انه لما سألهم عما بلغه من تقاعسهم عن الخروج معه:

«فقال سعد: قد كان ما بلغك. فأعطني سَيفاً يعرف المسلمَ من الكافر حتى أقاتلَ به معك!»

«وقال عبد الله بن عمر: أنشدك الله أن تحملني على ما لا أعرف»

«وقال محمد بن مسلمة: ان رسول الله(ص) أمرني أن أقاتل بسيفي ما قوتل به المشركون. فإذا قوتل أهل الصلاة ضربت به صخر أحد حتى ينكسر. وقد كسرته بالأمس»

وقال له أسامة بن زيد *«أعفني من الخروج معك في هذا الوجه، فإني عاهدتُ الله ألاّ أقتل من يشهد ان لا إله إلاّ الله»*

ويضيف الدينوري ان مالك الاشتر اقترح على عليّ أن يعاقب هؤلاء الذين يريدون التخلف عنه بالحبس ولكنه رفض وتركهم على رأيهم.

والحاكم النيسابوري (وهو من اهل الحديث) يتبنى نظرية ان جميع الصحابة قد بايعوا علياً .

فقد قال الحاكم في المستدرك على الصحيحين «*الاخبار الواردة في بيعة أمير المؤمنين كلها صحيحة مجمع عليها. فأما قول من زعم ان عبد الله بن عمر وأبا مسعود الانصاري وسعد بن ابي وقاص وأبا موسى الأشعري ومحمد بن مسلمة الانصاري وأسامة بن زيد، قعدوا عن بيعته فإن هذا قول من يجحد حقيقة تلك الأحوال*»

أي أن الحاكم يذهب الى أن تلك الشخصيات التي ذكرها قد بايعت عليا بالفعل بيعة صحيحة، ولكنها قعدت عن القتال معه فلم يخرجوا معه. قال الحاكم بعد أن استعرض الروايات بشأن مواقفهم «*فبهذه الاسباب وما جانسها كان اعتزال من اعتزل عن القتال مع علي رضي الله عنه وقتال من قتاله*»

وقد تحدث الحاكم عن موقف ابن عمر بالتحديد، فروى عن المدائني «*ما كان الناس يشكون ان ابن عمر بايع عليا على ان لا يقاتل معه، ورضي علي منه بذلك*» والجديد الذي يأتي به الحاكم هنا ان بيعة ابن عمر كانت مشروطة بألاّ يقاتل، وان علياً وافق ! ولا شك ان هذه محاولة من الحاكم لتفسير موقف ابن عمر وسعد الرافض للقتال مع علي(رغم بيعتهما)، واعطائهما عذراً شرعياً.

كما اخرج الحاكم في المستدرك روايات تتحدث عن «ندم» ابن عمر وسعد لأنهما لم يناصرا علياً:

ففي رواية عن الزهري يذكر أن رجلا أقبل يسأل ابن عمر عن آية «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما..» ويقول له انه يريد أن يقتدي به في «*فرقة الناس واعتزال الشر*» فامتنع ابن عمر عن إجابته. فلما انصرف قال لمن معه «*ما وجدت في نفسي من شيئ في أمر هذه الآية ما وجدت في نفسي أني لم أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرني الله عز وجل*»

وبشأن سعد بن أبي وقاص، فقد أخرج الحاكم النيسابوري في نفس السياق أن رجلا قال له «*ان عليا يقع فيك انك تخلفت عنه*» فأجابه «*والله انه*

لرأي رأيته وأخطأ رأيي، ثم أخذ سعد يسرد مناقب ومواقفه علي التي يعرفها من زمن رسول الله(ص).

ويتفق الشيخ المفيد، الشيعي، في كتاب الجمل مع الفكرة الاساسية للحاكم، وهي ان سعداً وابن عمر قد بايعا عليا بالفعل، ولكنهما، وأسامة بن زيد ومحمد بن مسلمة، رفضا الخروج معه الى حرب البصرة. ويؤكد الشيخ المفيد على أن هؤلاء جميعا قد بايعوا عليا طواعية وبلا لبس، وأن تقاعسهم عن الخروج معه كان لأسباب أخفوها في نفوسهم.

*****

وموقف سعد بن أبي وقاص من بيعة عليّ يثير الدهشة فعلاً! فسعدٌ هو الأعلمُ بحقّ عليّ وفضله، وهو بالذات روى بعضاً من أهم فضائل عليّ بن أبي طالب المشهورة. وقد روى أئمة الحديث أن سعداً هو الذي شهدَ في مواقف عدة، أحدها أمام معاوية بن أبي سفيان، أن النبي (ص) قال إن منزلة عليّ منه كمنزلة هارون من موسى يوم تبوك، وأنه امتدحه وأعطاه الراية يوم خيبر، وأن آية المباهلة نزلت في عليّ وزوجته وابنيه، وأن الرسول (ص) قد أمسك بيد عليّ أمام المسلمين يوم غدير خم وقال: مَن كنتُ مولاه فعليّ مولاه.

فكيف امتنع سعدٌ عن بيعة عليّ ونصرته بعد كل ما رواه؟

هل يمكن تفسير ذلك بالتزامه الراسخ بالموقف القرشيّ المبدئيّ الرافض قطعياً لوصول عليّ إلى منصب الخلافة، تحت أي ظرفٍ من الظروف؟!

فحتى على افتراض أن سعداً كان مستاءً لمقتل عثمان بتلك الطريقة العنيفة، فلا شأن لعليّ بذلك. وسعدٌ كان يعرف أن علياً ليس مسؤولاً عن سياسة عثمان التي أدّت إلى الثورة عليه.

لقد اتخذ سعدٌ موقف الحياد السلبي خلال كل الصراع الطويل الذي خاضه عليّ ضد خصومه الكثر. وكان موقفه هذا، في النهاية، نصرة فعلية لمعاوية -وهو من طلقاء قريش في مكة- لأنّه ببساطة ساوى بين الطرفين من ناحية أخلاقية، وذلك غاية ما كان يطمح اليه معاوية!

لقد أجادّ معاوية استغلال موقف سعد. فمعروفٌ أن سعداً كان من طبقة أوائل المؤمنين بدعوة محمد(ص)، ومجرّد أن يتخاذل عن نصرة عليّ، وأن يتقوقع في بيته لسنواتٍ طويلة، يعني أن لديه ميلاً نفسيا ظاهراً نحو معسكر (طلقاء) قريش ضد معسكر عليّ وأهل الرسول(ص) والأنصار.

وإن ذلك الطلب التعجيزي لسعد من عليّ حين دعاه إلى نصرته:

«*قال سعد: أعطني سَيفاً يعرف المسلمَ من الكافر حتى أقاتلَ به معك!*»[1]

يعني أن سعداً أبلغ علياً أنه لن يؤيده أبداً.[2]

وهذا كله دفع عليّاً فيما بعد إلى أن يشير الى ضغينةٍ يكنها سعدٌ له في صدره حين قال في خطبةٍ له مشهورة «... فصغى رجلٌ منهم لضِغنِه ...»[3]

ولكن ما يُحسبُ لسعد أنه، وهو لم يبايع علياً في الأصل، لم يشترك مباشرة في قتاله وحربه وفضّل الاعتزال فيما بعد، بعكس الزبير وطلحة الذين قررا نكث بيعتهما وشنّا عليه حرباً ضروساً. أي أنه كان اكثر صدقاً واستقامة منهما. وهو كان صنواً للزبير وطلحة، وربما يفوقهما في المزايا الاسلامية كونه كان قائداً للجيش الذي انتصر في القادسية، وكان عضواً في مجلس شورى عمر، وبالتالي لا بد أنه قد دُعي للانضمام الى حركتهما الساعية لتقويض حكم عليّ، وعلى ذلك يكون قد رفض.

ويبدو ان التزام سعد بفكرة «اعتزال الفتنة» فاق عنده كل التزام غيره، وجعله يقدمه على واجب نصرة الحق ومواجهة الباطل.

تفنيد رواية شاذة

أخرج الذهبي في سير اعلام النبلاء رواية غريبة جداً، تقول ان ابن عمر

---

(1) الأخبار الطوال للدينوري. وروى مثل ذلك ابن حبان في كتاب «الثقات».
(2) ويبدو أن سعدا قد ورّث موقفه السلبي تجاه آل بيت الرسول(ص) لابنه عمر، الذي أصبح فيما بعد قائدا للجيش الأموي الذي ارتكب مذبحة كربلاء بحق آل بيت النبي(ص).
(3) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده.

ذكر أن علياً طلب منه، وبكل إلحاح، أن يتولى منصب والي الشام! ولكنه رفض وأصرّ على الرفض حتى اضطر ان يذهب الى مكة متهرّباً من إلحاح عليّ!

فعن ابن عيينة «*عن عمر بن نافع، عن ابيه عن ابن عمر قال: بعث إليّ عليّ فقال: يا أبا عبد الرحمن! إنك رجل مطاع في أهل الشام، فسِر فقد أمرتك عليهم.*

قلتُ: أذكرك الله، وقرابتي من رسول الله (ص)، وصحبتي إياه، إلاّ ما اعفيتني!

فأبى عليّ. فاستعنتُ عليه بحفصة. فأبى.

فخرجتُ ليلاً الى مكة. فقيل له: إنه قد خرج الى الشام. فبعث في أثري فجعل الرجل يأتي المربد فيخطم بعيره بعمامته ليدركني.

قال: فأرسلت حفصة: انه لم يخرج الى الشام، إنما خرج الى مكة. فسكنَ»

وهذه رواية متطرفة جدا. فهي تقول ان ابن عمر كان بايع علياً بالفعل وبكل اريحية! وإلاّ لما كان عليٌّ يؤمره على الشام، فلا يمكن أن يؤمر رجلاً رفض بيعته. والرواية أيضاً تحاول أن تقول انه كان لعلي رأي إيجابيٌّ بابن عمر، بدليل اختياره لذلك المنصب. ولكن من قال ان ابن عمر كان «مطاعاً في أهل الشام»، كما ورد على لسان علي؟ كما ليس مفهوماً الى أي قرابة من رسول الله(ص) يشير ابن عمر في جوابه؟ فابن عمر من بني عدي وليس بينه وبين النبي(ص) أي قرابة. وكذلك الأمر بالنسبة الى «صحبته» لرسول الله(ص)، فالنبي (ص) توفي وابن عمر شاب يافع (النبي أكبر من أبيه عمر بما يزيد على عشر سنين).

وأخيراً الرواية تريد أن تفسر مفارقة ابن عمر لعلي ولجوئه الى مكة بالقول ان ذلك لم يكن لكراهة خلافته بل فراراً من إصرار عليّ على توليته!! وذلك تعسّف ظاهر.

*****

ثالثاً: موقف أسامة بن زيد[1]

وبالإضافة إلى سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، كان هناك مَن شاركهم في الموقف من الصحابة من أمثال أسامة بن زيد، مع اختلاف السبب الكامن وراء هذا الموقف من بيعة عليّ. فأسامة بن زيد برّر لعليّ تقاعسه عنه بأنه قد عاهدَ اللهَ أن لا يشهر سيفه بوجه إنسانٍ يقول (لا إله إلاّ الله) أبداً، بعد ذلك الموقف الذي حصلَ معه أيام الرسول(ص) حينما قتلَ رجلاً من المشركين نطقَ بالشهادتين في آخر لحظةٍ قبل قتله، فلامَه الرسول(ص) على ذلك بشدة وكررَ قوله له «هلاّ شققتَ عن قلبه؟»[2].

روى البلاذري في أنساب الأشراف عن الشعبي *«ودعا أسامة بن زيد بن حارثة مولى رسول الله(ص) إلى البيعة فقال: أنت أحب الناس إليّ، وآثرهم عندي، ولو كنت بين لحيي أسد لأحببتُ أن أكون معك. ولكني عاهدتُ الله ألاّ أقاتل رجلا يقول: لا إله إلاّ الله»*

وروى ابن الأثير في أسد الغابة أن أسامة قال لعلي *«لو أدخلتَ يدك في فم تنين لأدخلتُ يدي معها. ولكنك قد سمعتَ ما قال لي رسول الله(ص) حين قتلتُ ذلك الرجل الذي شهد أن لا إله إلاّ الله»*

وروى ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة نقلاً عن كتاب الجمل لأبي مخنف *«ثم بعث الى أسامة بن زيد فلما جاء قال له: بايع. فقال: اني مولاك، ولا خلاف مني عليك. وستأتيك بيعتي إذا سكن الناسُ. فأمره بالانصراف»*

وروى الذهبي في سير اعلام النبلاء عن الزهري *«لقي علي اسامة بن زيد فقال: ما كنا نعدك إلاّ من أنفسنا يا اسامة، فلم لا تدخل معنا؟*

قال: يا ابا حسن! إنك والله لو اخذتَ بمشفر الأسد لأخذتُ بمشفره

---

(1) مصادر هذا البحث: أنساب الأشراف للبلاذري (ج3 و ص9)، أسد الغابة لابن الاثير (ج1 ص65)، شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد (ج4 ص9)، سير اعلام النبلاء للذهبي (ج2 ص504)، صحيح البخاري (كتاب الفتن ج9 ص71)، فتح الباري لابن حجر (ج13 ص59)، المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري (ج3 ص116)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص31 و ج4 ص71).
(2) المستدرك على الصحيحين للحاكم.

الآخر معك، حتى نهلك جميعاً أو نحيا جميعاً. فأما هذا الأمر الذي أنت فيه، فوالله لا أدخل فيه أبداً»

والظاهر أن موقف أسامة كان بالفعل نابعاً من موقفه ذاك مع رسول الله(ص) الذي يبدو أنه أثر به كثيراً وولد لديه شبهة بشأن ما حصل من قتل للخليفة عثمان والظروف التي أحاطت ببيعة علي. وليس هناك شبهات بشأن علاقة مُريبة ربطت أسامة ببني أمية أيام حكمهم، رغم انه توفي عام 54 أو 58 أو 59 كما ذكر ابن الأثير في ترجمته (بل انه ذكر حادثة شتم قبيح وجهه لأسامة مروان بن الحكم).

وخلافاً لحال اهل التاريخ فإن أهل الحديث لا يصرحون بأن اسامة قد امتنع عن البيعة بل تجد في حديثهم نوعاً من الغموض، فيصير الكلام عن تخلف اسامة عن علي في حروبه وليس عن رفضه بيعته.

روى البخاري في صحيحه ان أسامة بن زيد أرسل مولاه حرملة الى علي وقال له:

«إنه سيسألك الآن فيقول: ما خلّفَ صاحبك؟ فقل له: يقول لك: لو كنتَ في شدق الأسد لأحببتُ أن أكون معك فيه، ولكنّ هذا أمرٌ لم أره.

فلم يعطني شيئاً. فذهبتُ الى حسن وحسين وابن جعفر فأوقروا لي راحلتي»[1]

وشرح ابن حجر في فتح الباري هذا الحديث فقال ان أسامة وهو بالمدينة بعث مولاه الى علي في الكوفة ليسأله مالاً، وجهز عذره عن تخلفه عن علي مع مولاه لعلمه أن علياً *«كان ينكر على من تخلف عنه ولا سيما مثل أسامة الذي هو من أهل البيت...»* ونقل عن ابن بطال قوله *«أرسل أسامة الى علي يعتذر عن تخلفه عنه في حروبه..»* ولم يصرح ابن حجر بأن المال الذي أرسل أسامة يطلبه ومنعه علي هو عطاؤه من بيت المال، بل نقل عن ابن التين *«انما منع علياً أن يعطي رسول اسامة شيئاً لأنه لعله سأله شيئاً من مال الله فلم يَرَ أن*

(1) ورواه ايضاً ابن سعد في الطبقات الكبرى (ج4 ص71).

يعطيه لتخلفه عن القتال معه. وأعطاه الحسنُ والحسينُ وعبد الله بن جعفر لأنهم كانوا يرونه واحداً منهم...»

والحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين يؤكد على صحة بيعة أسامة لأمير المؤمنين علي. وهو قد أخرج هذه رواية شدق الاسد المشهورة وأتبعها بقوله «*فلا أقاتل رجلا يقول الله أكبر مما نهاني عنه حتى ألقاه (ص)*» فالحاكم ملتزم بنظرية أن كل الصحابة قد بايعوا عليا بالفعل ولكن بعضهم كره القتال والخروج معه، ومنهم أسامة.

وايضا ابن سعد في الطبقات الكبرى ذكر اسم اسامة من ضمن الصحابة الذين بايعوا علياً بالفعل.

موقف طلقاء قريش[1]

وأما الطلقاء وزعماء قبيلة قريش، فقد كان خير تعبير عن موقفهم من بيعة عليّ ما قاله عبد الله بن سعد بن أبي السرح لما وصله الخبر:

« فطلعَ عليه راكبٌ. فقال: يا عبد الله ما وراءك؟ خبّرنا بخبر الناس.

قال: قتَلَ المسلمون عثمان.

فقال عبد الله بن سعد: إنا لله وإنا إليه راجعون.

يا عبد الله: ثم صنعوا ماذا؟

قال: ثم بايعوا ابن عم رسول الله (ص) علي بن أبي طالب.

قال عبد الله بن سعد: إنا لله وإنا إليه راجعون.

قال له الرجل: كأن ولاية علي عدلت عندكَ قتلَ عثمان؟

قال: أجل.»[2]

---

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ دمشق لابن عساكر (ج29 ص41)، شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد (ج6 ص57)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج5 ص449)، كتاب الفتوح لابن اعثم (ج2 ص443)، الامامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص66).

(2) رواها ابن عساكر في تاريخ دمشق من طريق ابي مخنف. وايضاً رواها ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة من طريق الكلبي.

وكذلك نذكر عدو النبي (ص) القديم، صفوان بن أمية بن خلف، الذي كان عجوزاً هرماً في مكة ايام بيعة علي. ورغم ذلك فقد بذل جهداً كبيراً في التحريض ضده وساهم في حركة التمرد عليه والتي قادتها عائشة وكان على وشك الخروج معها الى البصرة ولكنه توفي.[1]

وموقف هؤلاء كان متوقعاً، وليس فيه أي مفاجأة.

ويضاف اليهم القيادات الأموية في المدينة، وبالذات مروان بن الحكم وسعيد بن العاص والوليد بن عقبة. فهؤلاء كانوا طبعاً معارضين لتولي علي منصب الخلافة. وبعض المصادر[2] تقول انهم بايعوا علياً «صاغرين»، وبعضها الآخر[3] يقول انهم هربوا من وجهه ولم يبايعوه.

موقف أهل المدينة: الأنصارُ مع عليّ[4]

وأبدت المدينة المنورة حماسة وبهجة لاختيار علي بن أبي طالب خليفة. فعلى سبيل المثال:

«وقام قومٌ من الأنصار فتكلموا. وكان أول مَن تكلم ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري، وكان خطيب الأنصار، فقال: والله يا أمير المؤمنين لئن كانوا تقدموك في الولاية فما تقدموك في الدين، ولئن كانوا سبقوك أمس فقد لحقتهم اليوم. ولقد كانوا وكنتَ. لا يخفى موضعك ولا يجهل مكانك. يحتاجون إليك فيما لا يعلمون، وما احتجتَ إلى أحدٍ مع علمك.

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد .
(2) كتاب الفتوح لابن اعثم .
(3) الامامة والسياسة لابن قتية .
(4) مصادر هذا البحث: شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد (ج10 ص109)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص 179 + ص 188)، سير أعلام النبلاء للذهبي، صحيح البخاري (ج6 باب سورة الأحزاب ص22)، كتاب الفتوح لابن اعثم (ج2 ص435)، الأستيعاب لابن عبد البر (ص 230 + ص138)، انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص17)، أسد الغابة لابن الأثير (ج2 ص179)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص179)، تاريخ خليفة بن خياط (ص148)،المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري (ج3 ص104) و البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص 261 + ص281).

ثم قام خزيمة بن ثابت[1] الأنصاري، وهو ذو الشهادتين، فقال: يا أمير المؤمنين ! ما أصبنا لأمرنا هذا غيرك، ولا كان المنقلب إلاّ إليك. ولئن صدقنا أنفسنا فيك، فلأنتَ أقدم الناس إيماناً وأعلم الناس بالله، وأولى المؤمنين برسول الله. لكَ ما لهم، وليس لهم ما لكَ». [2]

وقال رفاعة بن رافع الأنصاري «*... وقد بايعناك ولم نألُ، وقد خالفك مَن أنتَ خيرٌ منه وأرضى، فمُرْنا بأمركَ*»

وقال الحجاج بن غزية الأنصاري «*....يا معشر الأنصار! أنصروا أمير المؤمنين ثانيةً، كما نصرتم رسول الله(ص). وإن الآخرة لشبيهة بالأولى...*»[3]

وروى ابن اعثم في كتاب الفتوح «*فقام نفرٌ من الانصار منهم ابو الهيثم بن التيهان ورفاعة بن رافع ومالك بن العجلان وخزيمة بن ثابت والحجاج بن غزية وابو ايوب خالد بن زيد*» فخاطبوا الناسَ وقالوا «*انكم قد عرفتم فضلَ علي بن ابي طالب وسابقته وقرابته ومنزلته من النبي(ص) مع علمه بحلالكم وحرامكم وحاجتكم اليه من بين الصحابة، ولن يألوكم نصحاً. ولو علمنا مكان أحد هو أفضل منه وأجمل لهذا الأمر واولى به منه لدعوناكم اليه.*

---

(1) وقد انبرى العلامة ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة وتصدى للرد على الرواة من ذوي الاتجاه الاموي الذين شككوا في أن خزيمة بن ثابت الذي استشهد مع عليّ في صفين هو ذاته «ذو الشهادتين»، فقال «*ومن غريب ما وقعتُ عليه من العصبية القبيحة أن أبا حيان التوحيدي قال في كتاب البصائر: ان خزيمة بن ثابت المقتول مع علي عليه السلام بصفين ليس هو خزيمة بن ثابت ذا الشهادتين، بل آخر من الانصار، صحابيّ اسمه خزيمة بن ثابت!*
وهذا خطأ. لأن كتب الحديث والنسب تنطق بأنه لم يكن في الصحابة من الانصار ولا من غير الانصار خزيمة بن ثابت الاّ ذو الشهادتين. وانما الهوى لا دواء له. على ان الطبري صاحب التاريخ قد سبق أبا حيان بهذا القول، ومن كتابه نقل ابو حيان. والكتب الموضوعة لأسماء الصحابة تشهد بخلاف ما ذكراه»

(2) تاريخ اليعقوبي. وخزيمة بن ثابت هو من كبار الصحابة، وشهد أحدا ومؤتة كما جاء في سير أعلام النبلاء للذهبي. وقد قبل رسول الله شهادته عن شهادة رجلين كما روى البخاري في صحيحه.
وقد أصبح من كبار قادة جيش الإمام علي واستشهد معه في معركة صفين.

(3) قول رفاعة والحجاج من أسد الغابة لابن الأثير. ومثل ذلك روى ابن سعد في الطبقات الكبرى.

فقال الناس كلهم بكلمة واحدة: رضينا به طائعين غير كارهين»

روى ابن عبد البر في الاستيعاب عن الشعبي ان رفاعة بن رافع[1] بن مالك قال لعلي «*...ثم بايعناك ولم نألُ. وقد خالفك من أنت في أنفسنا خيرٌ منه وأرضى، فمُرنا بامرك.*

وقدم الحجاج بن غزية الأنصاري فقال: يا أمير المؤمنين:

دَرَاكِها دَرَاكِها قبل الفَوت لا وَألَت نفسي إن خفتُ الموت

يا معشر الأنصار ! انصروا اميرَ المؤمنين أخرى، كما نصرتم رسولَ الله (ص) أولاً. إن الآخرة لشبيهةٌ بالأولى، إلاّ أن الاولى أفضلهما»

وروى البلاذري في انساب الاشراف من طريق يحيى بن معين «انتهت بيعة عليا[2] الى حذيفة[3] وهو بالمدائن فبايع بيمينه شماله ثم قال: لا ابايع بعده لأحدٍ من قريش. ما بعده الا أشعر أو أبتر»

وطبعاً لا ننسى أهم الشخصيات الانصارية المؤيدة لعلي بن ابي طالب والمتحمسة له ،من غير هؤلاء، وبالأخص قيس بن سعد بن عبادة، وقرظة بن كعب والاخوين سهل وعثمان بن حنيف.

وهؤلاء الذين ذكرت اسماؤهم هم من أكابر الانصار وزعمائهم، وهم بالتأكيد يعبرون عن الحالة العامة السائدة في المدينة. وقد بقي الأنصار مخلصين لعلي حتى النهاية، وكانوا معه بغالبيتهم الساحقة. روى اليعقوبي[4]

---

(1) قال عنه ابن عبد البر «شهد بدراً وأحداً وسائر المشاهد مع رسول الله(ص)»

(2) هكذا وردت في الاصل، وهو غلط والصحيح عليٌّ

(3) حذيفة بن اليمان من كبار الصحابة وله مع النبي (ص) مواقف مشهورة. وهو ليس من الانصار بالدم ولكنه حليفٌ لهم ويُعدُ منهم. وقد توفي قبيل معركة الجمل. وقد قتل اثنان من ابنائه وهما يقاتلان في جيش الامام علي في صفين بعد ان كان ابوهما اوصاهما باتباع علي، روى ذلك ابن عبد البر في الاستيعاب.

(4) تاريخ اليعقوبي.. وورد في تاريخ خليفة بن خياط أنه كان مع علي 800 رجل ممن شهدوا بيعة الرضوان واستشهد منهم 63 في المعركة. وروى الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين أنه كان مع علي في صفين 80 بدرياً و250 من أهل بيعة الرضوان. والأرجح أن تكون هذه الأرقام مبالغاً فيها، خاصة وأن الفارق الزمني بين معركة بدر ويوم الحديبية وصفين يزيد على 30 عاما، ولكن السياق العام للروايات صحيح.

«وكان مع علي يوم صفين من أهل بدر سبعون رجلاً، وممن بايع تحت الشجرة سبعمائة رجل، ومن سائر المهاجرين والأنصار أربعمائة رجل. ولم يكن مع معاوية من الأنصار إلاّ النعمان بن بشير ومسلمة بن مخلد»[1]

التيار العثماني في صفوف الانصار[2]

ولكن التيار العثماني، من الأنصار، وكما هو متوقع، لم يكن سعيداً بوصول عليّ للخلافة. فهؤلاء القلة الذين كانوا قد استفادوا من عهد عثمان كانوا يشعرون أن امتيازاتهم ستزول على يد عليّ.

روى ابن عساكر :

«لما بويع عليّ بن أبي طالب، بلغَه عَن حسان بن ثابت و كعب بن مالك[3] و النعمان بن بشير، وكانوا عثمانية، أنهم يقدّمون بني أمية على بني هاشم ويقولون: الشام خيرٌ من المدينة»

---

(1) وفي مقابل اتجاه البعض لتضخيم عدد الصحابة الذين كانوا مع علي في حروبه، ذهب ابن كثير الى نقيض ذلك، وتطرّف ! فقد روى في البداية والنهاية أن عليا حين خرج الى البصرة *«تثاقل عنه أكثر أهل المدينة، واستجاب له بعضهم. قال الشعبي: ما نهض معه في هذا الأمر غير ستة نفر من البدريين، ليس لهم سابع! وقال غيره: أربعة»* وأضاف في موقع آخر (ج7 ص281) *«وقال الامام أحمد: حدثنا أمية بن خلد قال لشعبة أن أبا شيبة روى عن الحكم عن عبد الرحمن بن ابي ليلى قال: شهد صفين من أهل بدر سبعون رجلاً. فقال: كذب أبو شيبة! والله لقد ذاكرنا الحكم في ذلك فما وجدناه شهد صفين من أهل بدر غير خزيمة بن ثابت. وقد قيل إنه شهدها من اهل بدر سهل بن حنيف، وكذا أبو أيوب الانصاري. قال شيخنا العلامة ابن تيمية في كتاب الرد على الرافضة: وروى ابن بطة بإسناده عن بكير بن الأشج أنه قال: أما إن رجالاً من أهل بدر لزموا بيوتهم بعد قتل عثمان فلم يخرجوا إلاّ إلى قبورهم»*

(2) مصادر هذا البحث: تاريخ دمشق لابن عساكر (ج50 ص178 + ص180)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص253 + ص257)،الاستيعاب لابن عبد البر (ص 550)،تاريخ الطبري (ج3 ص452)، شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد (ج6 ص59 و ج4 ص8)، انساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص9)،صحيح البخاري (كتاب الفتن ج9 ص70)، سير اعلام النبلاء للذهبي (ج2 ص495)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (ج3 ص117-118)، الامامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص73)، التاريخ الصغير للبخاري (ج1 ص112)،الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص443) ،مسند احمد بن حنبل (ج5 ص69)،اسد الغابة لابن الاثير (ج4 ص330) الأخبار الطوال للدينوري (ص143).

(3) وكعب بن مالك هذا كان من الثلاثة الذين تخلفوا عن الرسول(ص) يوم تبوك، فنزلت فيهم الآية القرآنية. ذكر ذلك ابن عساكر في تاريخ دمشق.

وقد حصل جدالٌ بين هؤلاء الثلاثة وبين عليّ، أسفر في النهاية عن قرار عليّ بطردهم من المدينة :

«*أخرجوا، فلا تجاوروني في بلدٍ أنا فيه.*

فخرجوا من يومهم فساروا حتى أتوا معاوية، فقال لهم: لكم الكفاية. فأعطى حسانَ بن ثابت ألف دينار وكعبَ بن مالك ألف دينار وولى النعمان بن بشير حمص، ثم نقله إلى الكوفة بعد»[1]

وقد كان حسان بن ثابت، الشاعر، هو صاحب القصيدة المشهورة التي يحث فيها أهلَ الشام ومعاوية على الثأر لعثمان والطلب بدمه :

لتسمعنّ وشيكاً في ديارهمُ　　　الله أكبر واثاراتِ عثمانا

و كان معاوية كثيرا ما يردد بيتاً من الشعر فيه اتهامٌ لعليّ بقتل عثمان، حتى كاد يتخذه شعاراً :

يا ليت شعري وليت الطير تخبرني　　　ما كان شأن عليٍّ وابن عفانا

ورغم ان ابن عبد البر في الاستيعاب لم يتحدث عن تفاصيل تخلف حسان بن ثابت وكعب بن مالك عن بيعة علي، إلاّ أنه روى شعراً لهما فيه رثاء حارّ لعثمان وتحريض على الثأر له .

ومنها قصيدة أخرى له يقول فيها :

قتلتم وليّ الله في جوف داره　　　وجئتم بأمرٍ جائرٍ غير مهتدِ

فلا ظفرت أيمانُ قومٍ تعاونوا　　　على قتل عثمان الرشيد المسددِ

وذكر قصيدة لكعب بن مالك يقول فيها :

إني رأيتُ قتيلَ الدار مضطهداً　　　عثمانُ يُهدى الى الأجداث في كفنِ

يا قاتل الله قوماً كان أمرُهُمُ　　　قتل الإمام الزكيّ الطيب الردنِ

ما قاتلوه على ذنبٍ ألمّ به　　　إلاّ الذي نطقوا زوراً ولم يكنِ

---

(1) تاريخ دمشق لابن عساكر.

ومن الأنصار الذين امتنعوا عن بيعة علي كان زيد بن ثابت. ولكن ذلك متوقعاً لأن زيد بن ثابت كان من رجال عثمان المقربين، وهو كان قد رَفَعَ ذِكرَه حين كلفه بنسخ المصحف، وأغدقَ عليه الأموال وولاّه بيت المال.

وروى الطبري في تاريخه اسماء مجموعة أكبر من الانصار المعارضين لعليّ «*بايعت الانصار عليا إلاّ نفيرا يسيرا منهم منهم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومسلمة بن مخلد، وابو سعيد الخدري، ومحمد بن مسلمة، والنعمان بن بشير، وزيد بن ثابت، ورافع بن خديج، وفضالة بن عبيد، وكعب بن عجرة. وكانوا عثمانية*»[1]

وتحدث ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة عن قيام مسلمة بن مخلد الانصاري بالتصدي لوالي عليّ المعين على مصر –قيس بن سعد– ومطالبته بدم عثمان واعتزاله هو وجماعته بيعة عليّ.

وهناك انصاري آخر خذل الامام عليا: وهب بن صيفي. فقد روى البلاذري في انساب الاشراف في رواية ابي مخنف عن الشعبي «*وبعث إلى وهب بن صيفي الأنصاري ليبايعه فقال: ان خليلي وابن عمك قال لي: قاتل المشركين بسيفك فإذا رأيتَ فتنة فاكسره واتخذ سيفاً من خشب واجلس في بيتك. فتركه*»[2]

ولكن السياق يظهر امتناع الرجل عن نصرة علي في حربه. وليس امتناعه من بيعته.

وذكر الامام البخاري في صحيحه اسم ابي مسعود الانصاري من ضمن المتخاذلين عن عليّ. فقال «*دخل ابو موسى وابو مسعود على عمار حين بعثه عليٌّ الى أهل الكوفة يستنفرهم.*

---

(1) وروى ابن كثير في البداية والنهاية نفس الخبر نقلا عن الطبري ولكن بصيغة «ومن *الناس من يزعم انه لم يبايعه طائفة من الانصار، منهم،*»

(2) وروى البخاري في التاريخ الصغير هذه الرواية كما يلي «*عن عديسة بنت اهبان بن صيفي قالت حيث قدم علي بن ابي طالب البصرة جاء الى ابي فقال ابي: ان خليلي وابن عمك أمرني إذا كان قتال بين فتين من المسلمين أن أتخذ سيفاً من خشب. فانصرف.* «وأخرج أحمد في مسنده عن عديسة بنت اهبان بن صيفي روايات قريبة مما رواه البخاري في التاريخ الصغير.

فقالا: ما رأيناكَ أتيتَ أمراً أكره عندنا من إسراعك في هذا الأمر منذ أسلمتَ.

فقال عمار: ما رأيتُ منكما منذ أسلمتما أمراً أكره عندي من إبطائكما عن هذا الأمر»[1]

ولكن الامام الذهبي في سير اعلام النبلاء ذكر ما يفيد بأن علياً كان حسن الرأي في ابي مسعود الانصاري في أول الأمر الى درجة انه استخلفه على عاصمته لما خرج للحرب، مما يعني أنه كان قد بايعه بالفعل:

«قال خليفة: استعمل عليّ لمّا حاربَ معاوية أبا مسعود.

وكذا نقل مجالد عن الشعبي قال: فكان يقول: ما اودّ أن تظهر إحدى الطائفتين على الأخرى!

قيل: فمه؟

قال: يكون بينهم صلح.

فلما قدم علي أخبر بقوله فقال: اعتزل عملنا.

قال: وممه؟

قال: إنا وجدناك لا تعقل عقله.

قال: أما أنا فقد بقي من عقلي ان الآخر شر»

وذكر ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة نقلاً عن كتاب الجمل لأبي مخنف اسم عبد الله بن سلام من ضمن الممتنعين عن بيعة علي[2]. ورغم ان عبد الله بن سلام كان متعاطفاً مع الخليفة عثمان ويروي نبوءات من التوراة (وهو في الأصل ليس انصارياً، بل يهوديّ دخل الاسلام) عن سوء مصير قتلته، إلاّ انني لا أظنه كان يجرؤ على رفض بيعة عليّ، خصوصاً في تلك الاجواء

(1) وكررها الحاكم في المستدرك على الصحيحين. ولكن سياق الرواية لا يتحدث عن البيعة بحد ذاتها وانما عن مناصرة الامام علي قبيل معركة الجمل. فربما تكون البيعة قد سبقت هذا الموقف.

(2) وذكر ذلك ايضاً الطبري في تاريخه، وكرره ابن كثير في البداية والنهاية نقلا عنه.

المتورطة التي تلت مقتل عثمان في المدينة. فهو كان مكروهاً من اوساط الثوار الذين وصفوه بـ«اليهودي» وشتموه. وعلى كل حال فابن ابي الحديد يتابع ليذكر رأي المعتزلة في هذا الأمر *«فأما أصحابنا فإنهم يذكرون في كتبهم ان هؤلاء الرهط انما اعتذروا بما اعتذروا به لما ندبهم الى الشخوص معه لحرب أصحاب الجمل. وانهم لم يتخلفوا عن البيعة، وانما تخلفوا عن الحرب»*

ومحمد بن مسلمة [1] كان من الانصار الذين تخلفوا عن عليّ.

قال البلاذري في انساب الاشراف في رواية ابي مخنف عن الشعبي:

«وبعث علي إلى محمد بن مسلمة الأنصاري ليبايع. فقال: ان رسول الله(ص) أمرني اذا اختلف الناس أن أخرج بسيفي فأضرب به عرض أحد حتى ينقطع. فإذا انقطع أتيتُ بيتي فكنتُ فيه لا أبرح حتى تاتيني يد خاطفة أو ميتة قاضية. قال: فانطلق اذا. فخلى سبيله» [2]

وروى ابن قتيبة في الامامة والسياسة ان عمار بن ياسر ذهب الى ابن مسلمة يطالبه ببيعة علي فرفض بحجة ان رسول الله(ص) امره الا يشترك في قتال المسلمين. وتضيف الرواية ان عليا فسّر لعمار موقف ابن مسلمة منه كما يلي *«وتَرَني الى محمد بن مسلمة أني قتلت أخاه يوم خيبر: مرحب اليهودي»* [3]

---

(1) ويلاحظ ان الشخصيات الانصاريّة التي ارتبطت بعلاقات وثيقة بالخلفاء الثلاثة قبل علي، ابي بكر وعمر وعثمان، كانت من المعارضين لبيعة عليّ اولاً ولحروبه تالياً. ومنهم محمد بن مسلمة. فقد روى ابن سعد في طبقاته ان النبي(ص) آخى بينه وبين ابي عبيدة بن الجراح، وهو من كبار المهاجرين الأثيرين لدى عمر بن الخطاب. وكان محمد بن مسلمة من المقربين لعمر وكان يعتمد عليه في اداء مهمات خاصة. قال ابن الاثير في اسد الغابة *«استعمله عمر بن الخطاب على صدقات جهينة. وهو كان صاحب العمال ايام عمر. كان عمر اذا شكي اليه عامل ارسل محمدا يكشف الحال. وهو الذي ارسله عمر الى عماله ليأخذ شطر اموالهم لثقته به»*

(2) وروى مثل ذلك ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة نقلًا عن كتاب الجمل لأبي مخنف.

(3) لم افهم معنى قول الامام علي ان محمد بن مسلمة الانصاري هو اخو الفارس اليهودي مرحب الذي قتله الامام في خيبر. ولكن سيرة محمد بن مسلمة تفيد انه كان اخاً ليهوديّ آخر بالرضاعة، وهو كعب بن الاشرف من بني قينقاع. فربما حصل خلط لدى الرواة بين اليهوديين مرحب وكعب.

وقد كرر ابن مسلمة كلامه لعلي حين نادى في الناس للخروج إلى العراق بعد بضعة شهور «*إن رسول الله(ص) أمرني أن أقاتل بسيفي ما قوتل به المشركون، فإذا قوتل أهل الصلاة ضربتُ به صخر أُحُدٍ حتى ينكسر، وقد كسرته بالأمس*»[1]

وختاماً لا بد من الاقرار ان التيار العثماني في صفوف الانصار ضم شخصيات مهمة من بينهم. ورغم انه لا شك كان يعبر عن الاقلية إلاّ انه لا يمكن تجاهله. وهذا يعني ان الحكم القرشي (ابو بكر - عمر - عثمان) وعلى مدى 25 عاماً قد نجح في خلق درجة معقولة من التأييد له في صفوف الانصار، خلافاً لما كانت عليه الحال عند وفاة النبي(ص) ومشكلة سعد بن عبادة.

إجمالُ موقف الانصار من عليّ[2]

كان الأنصار، في إجمالهم، يعتبرون مآل الخلافة إلى عليّ عودة للحق إلى نصابه. واجتماعهم على عليّ، رغم مخالفة قريش ومَن والاها، كان بنظرهم أمراً يشابه اجتماعهم في السابق حول رسول الله (ص) حين عاداه نفس أولئك الذين اجتمعوا ضدّه اليوم، وآباؤهم. وقد عبّر قيس بن سعد بن عبادة عن ذلك في معرض ردّه على «الأنصاري الخائن» النعمان بن بشير[3]، أثناء معركة صفين حين خاطبه الأخير معاتباً له وللأنصار بسبب نصرتهم لعلي:

«*إن النعمان بن بشير الأنصاري وقف بين الصفين فقال: يا قيس بن سعد: اما أنصفكم مَن دعاكم إلى ما رضي لنفسه؟ إنكم يا معشر الأنصار أخطأتم*

---

(1) الأخبار الطوال للدينوري. وقريبٌ من ذلك رواه الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين.

(2) مصادر هذا البحث: الإمامة والسياسة لابن قتية (ج1 ص131)، كتاب المحبر لابن حبيب البغدادي (ص290)، التاريخ الصغير للامام البخاري (ج1 ص103)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج2 ص89)، تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري (ج3 ص 1087).

(3) الذي كان أبوه أول من شقّ الصف الأنصاري يوم السقيفة، وانحاز للقرشيين، حين وثب فبايع أبا بكر.

في خذل عثمان يوم الدار، وقتلكم أنصاره يوم الجمل، وإقحامكم على اهل الشام بصفين. فلو كنتم إذ خذلتم عثمان خذلتم علياً كان هذا بهذا. ولكنكم خذلتم حقاً ونصرتم باطلاً ثم لم ترضوا أن تكونوا كالناس حتى أشعلتم الحرب ودعوتم إلى البراز، فقد والله وجدتم رجال الحرب من أهل الشام سراعاً إلى برازكم، غير أنكاس عن حربكم. ثم لم ينزل بعليّ أمرٌ قط إلاّ هونتم عليه المصيبة، ووعدتموه الظفر. وقد والله أخلفتموه، وهان عليكم بأسكم وما كنتم لتخلوا به انفسكم، من شدتكم في الحرب، وقدرتكم على عدوكم. وقد اصبحتم أذلاء على أهل الشام، لا يرون حربكم شيئا وأنتم اكثر منهم عددا ومَدَداً. وقد والله كاثروكم بالقلة، فكيف لو كانوا مثلكم في الكثرة؟ والله لا تزالون أذلاء في الحرب بعدها ابداً، إلاّ أن يكون معكم أهل الشام. وقد أخذت الحرب منا ومنكم ما قد رأيتم، نحن أحسن بقية وأقرب إلى الظفر، فاتقوا الله في البقية.

فضحك قيس وقال: والله ما كنت أراك يا نعمان تجترئ على هذا المقام. اما المنصف المحق فلا ينصح أخاه من غش نفسه، وأنت والله الغاش لنفسه، المبطل فيم انتصح غيره. أما ذِكركَ عثمانَ فإن كان الإيجاز يكفيك فخذه: قتلَ عثمانَ مَن لستَ خيراً منه، وخذله مَن هو خيرٌ منك.

وأما أصحاب الجمل فقاتلناهم على النكث.

وأما معاوية فلو أن العرب اجتمعت على بيعته لقاتلتهم الأنصار!

وأما قولك: إنا لسنا كالناس، فنحن في هذه الحرب كما كنا مع رسول الله، نتقي السيوفَ بوجوهنا، والرماحَ بنحورنا حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون.

ولكن انظر يا نعمان هل ترى مع معاوية إلاّ طليقا أعرابياً أو يمانيا مستدرجا؟

وانظر أين المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان، الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه؟

ثم انظر هل ترى مع معاوية غيرك وغير صويحبك؟ ولستما والله بدريين ولا عقبيين ولا أحديين ولا لكما سابقة في الإسلام ولا آية في القرآن»[1]

وبالفعل، فقد كان الأنصارُ ووجوههم موجودين مع عليّ يوم صفّين. ومن أبرز هؤلاء الصحابة الأنصار، بالإضافة إلى قيس بن سعد وخزيمة بن ثابت وثابت بن قيس بن شماس، كان أبو مسعود الأنصاري وأبو سعيد الخدري، وأبو أمامة الصدى ين عجلان، وأبو أيوب الأنصاري، وعثمان بن حنيف، وسهل بن حنيف، وسعد بن الحارث، وأبو عمرة بشير بن عمرو وغيرهم. وبعض هؤلاء استشهد في المعركة مع عليّ.[2]

وبدوره كان عليّ يكنّ حباً عظيما للأنصار. فجَعلهم خاصته ومقربيه، واعتمدَ عليهم في القيادة والإدارة، وعيّن منهم في مناصب رئيسية في حكومته. وقد وصفهم مرة لأصحابه في الكوفة فقال:

«... وما كانوا يوم أعطوا رسول الله(ص) أن يمنعوه ومَن معه من المهاجرين حتى يبلغ رسالات ربه إلاّ قبيلتين، قريباً مولدهما، وما هما بأقدم العرب ميلاداً، ولا بأكثرهم عدداً.

فلما آووا النبي(ص) وأصحابه، ونصروا الله ودينه، رمتهم العرب عن قوس واحدة، فتحالفت عليهم اليهود، وغزتهم القبائل قبيلة بعد قبيلة، فتجردوا لنصرة دين الله، وقطعوا ما بينهم وبين العرب من الحبائل، وما بينهم وبين اليهود من الحلف، ونصبوا لأهل نجدٍ وتهامة وأهل مكة واليمامة، وأهل الحزن والسهل، وأقاموا قناة الدين، وصبروا تحت حماس الجلاد، حتى دانت لرسول الله(ص) العرب، ورأى منهم قرة العين قبل أن يقبضه الله عز وجل إليه..»[3]

*****

---

(1) الإمامة والسياسة لابن قتية .

(2) من كتاب المحبر لابن حبيب البغدادي. وهناك شك بشأن كل من ابي مسعود الانصاري وابي سعيد الخدري. وذكر الإمام البخاري في التاريخ الصغير أن خزيمة بن ثابت وأبا فضالة الأنصاري استشهدا مع عليّ في صفين.

(3) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.

ولم ينسَ الحكام الأمويون أبدا للأنصار مواقفهم المشهودة، سواء منها الخاذلة لعثمان والمبتهجة للخلاص منه، أو الناصرة لعليّ بن أبي طالب والموالية له. فمثلاً:

«قدِمَ عبد الملك المدينة وهو غضبانٌ على أهلها، فصلى بهم صلاة الصبح، فقرأ بهم في الركعة الأولى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) - آية 1 من سورة محمد- و(إذا زلزلت) وقرأ في الركعة الثانية سورة الفتح و(إذا جاء نصر الله). ثم خرج وعليه جبة خز. وكنا بين يديه نسمعه عابساً قد حفت به الحراب، وأهل المدينة يسبحون.

فقال: يا أهل المدينة! مالكم تسبحون كأنكم أنكرتم دخولنا المسجد؟ أما والله لو قتلتكم في نواحيها لرأيتكم حلالا! الحمد لله الذي أذلكم بعد عزكم ووضعكم بعد ارتفاعكم، وانزل بكم بأسه الذي لا يرده عن القوم المجرمين. إنما مثلكم كمثل القرية التي ضرب الله مثلها: قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رَغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون.....

وقام ابن مصقلة فقال: يا أهل المدينة! شاهت الوجوه. أنتم والله أخبث الناس أنفساً وأخبث حجراً ومدرا»[1]

*****

موقف الأمصار من بيعة عليّ

خلال الأشهر الأولى التي تلت مقتل عثمان، نجح عليّ في الحصول على الاعتراف به في معظم الأمصار .

أولاً: البصرة[2]

قبلت البصرة الوالي الجديد لعليّ: عثمان بن حنيف[3] الأنصاري، دون

---

(1) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري .

(2) مصادر هذا البحث: الإصابة لابن حجر العسقلاني (ص372 ج4)، كتاب الثقات لابن حبان (ج2 ص274)، كتاب الفتوح لابن اعثم (ج2 ص449)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج29 ص262)، تاريخ الطبري (ج3 ص463)، انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص22).

(3) جاء في الإصابة لابن حجر أنه شهد بدرا وأحد، وكذلك أخوه سهل الذي استخلفه عليّ على المدينة وحضر المشاهد كلها مع الرسول(ص).

مشاكل كبيرة، بعد أن تركها والي عثمان عبد الله بن عامر. وجديرٌ بالذكر أن والي عثمان، ابن عامر، حاول جسّ نبض أهل البصرة فيما لو حاول إعلان العصيان على الخليفة الجديد ولكنه تلقى جواباً سلبياً جعله يقرر المغادرة إلى الحجاز:

قال ابن حبان في كتاب الثقات «*وبلغ أهلَ البصرة قتل عثمان. فقام ابن عامر فصعد المنبر فخطب وقال: إن خليفتكم قتل مظلوماً، وبيعته في أعناقكم، ونصرته ميتاً كنصرته حياً، واليوم ما كان أمس. وقد بايع الناس علياً، ونحن طالبون بدم عثمان، فأعدوا للحرب عدتها!*

فقال له حارثة بن قدامة: يا ابن عامر: إنك لم تملكنا عنوة. وقد قتل عثمان بحضرة المهاجرين والأنصار وبايع الناس علياً، فإن أقرّكَ أطعناك، وإن عزلكَ عصيناك»[1]

وروى ابن عساكر في تاريخ دمشق من طريق محمد بن سعد ان ابن عامر لما علم بمقتل عثمان «*حمل ما في بيت المال واستعمل على البصرة عبد الله بن عامر الحضرمي ثم شخص الى مكة فوافى بها طلحة والزبير وعائشة*»

والطبري في تاريخه لا يورد سوى رواية سيف بشأن تعين عثمان بن حنيف على البصرة من قبل علي، وفيها «*وأما عثمان بن حنيف فسار فلم يرده احد عن دخول البصرة ولم يوجد في ذلك لابن عامر رأي ولا حزم ولا استقلال بحرب. وافترق الناس بها: فاتبعت فرقة القوم، ودخلت فرقة في الجماعة، وفرقة قالت ننظر ما يصنع اهل المدينة فنصنع كما صنعوا*»

ولكن البلاذري يشير الى ان والي علي المعيّن على البصرة قام بالقاء القبض على خليفة والي عثمان في البصرة مما يشير الى نوع من التوجس من تحركات جماعة نظام عثمان:

---

(1) رواها ايضاً ابن اعثم في كتاب الفتوح باختلاف يسير. وأضاف ان ابن عامر بعدها غادر ليلاً متجهاً الى المدينة فأصبح الناس فلم يجدوه. وقال ايضا انه في المدينة لقيه طلحة والزبير فلاماه على تركه البصرة، وفيها الرجال والاموال، وهروبه منها. ولامه الوليد بن عقبة كذلك.

«وولى عليٌّ عثمان بن حنيف الانصاري البصرة فوجد بها خليفة عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن عبد شمس، وهو ابن عامر الحضرمي حليف بني عبد شمس، فحبسه وضبط البصرة»

ثانياً: الكوفة[1]

اعترفت الكوفة بعليّ وبايعته بعد أن قام عليّ بتثبيت أبي موسى الأشعري، وهو الوالي الذي كانت قد اختارته وفرضته على عثمان. وكان تعيين عليّ له بناءً على نصيحة مالك الأشتر الذي قال له إن أهل الكوفة به راضون.

فأخذ أبو موسى بيعة أهل الكوفة لعليّ وكتب له *«أما بعد، فقد قرأتُ كتابكَ، ودعوتُ من قبلي المسلمين، فسمعوا وأطاعوا»*[2]

واخرج ابن اعثم الكوفي في فتوحه رواية توضح مدى شعبية علي بن ابي طالب في الكوفة الى درجة اضطرت واليها القائم بالاعمال ابا موسى الاشعري الى مبايعة علي:

« وبلغ اهل الكوفة قتل عثمان وبيعة الناس لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه فقامت الناس الى اميرهم ابي موسى الاشعري فقالوا: ايها الرجل لم لا تبايع عليا وتدعو الناس الى بيعته فقد بايعه المهاجرون والانصار؟

فقال فأنشأ رجل من اهل الكوفة ابياتا مطلعها

*ابايع غير مكتنك عليا ***** وان لم يرض ذاك الاشعريا*

الى آخره.

قال وأقبل هاشم بن عتبة بن ابي وقاص الى ابي موسى الاشعري فقال: يا ابا موسى ما الذي يمنعك ان تبايع عليا؟

---

(1) مصادر هذا البحث: كتاب «الثقات» لابن حبان (ج2 ص274)،كتاب الفتوح لابن اعثم الكوفي (2 ص 439)، المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري (ج3 ص117)، انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص29).

(2) من كتاب «الثقات» لابن حبان. وايضاً روى البلاذري من طريق صالح بن كيسان بشأن ابي موسى *«فكلم الأشترُ فيه علياً فأقره»*

فقال: انتظر الخبر

قال: وأي خبر تنتظر وقد قتل عثمان؟ اتظن انه يرجع الى الدنيا؟ إن كنت مبايعا لأمير المؤمنين وإلا فاعتزل امرنا! ثم انشأ ابياتا مطلعها:

ان ابن عفان اذ أودى بشقوته ●●●● طغى فحل به من ذلكم غير

الى آخره.

قال: ثم ضرب هاشم بن عتبة بيده على الاخرى وقال: لي شمالي ويميني لعلي بن ابي طالب.

فلما قال هاشم ذلك وثب ابو موسى الاشعري فبايع ولم يجد بداً من ذلك

قال: وبايعت اهل الكوفة عليا رضي الله عنه بأجمعهم وانشأ هاشم بن عتبة ابياتا مطلعها:

ابايعه في الله حقا وما انا ●●●● ابايعه مني اعتذارا ولا بطلا

الى آخره»[1]

ثالثاً: اليمن[2]

ذكر ابن اعثم في كتاب الفتوح ما يفيد انه كانت هناك حماسة لمبايعة علي بن ابي طالب أميراً للمؤمنين. فقد قال ان وفوداً من اليمن أقبلت لاعلان الطاعة والبيعة لعلي في المدينة:

---

(1) ولكن الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين أخرج رواية تفيدنا بأن أبا موسى امتنع من بيعة الامام علي «*إن أمير المؤمنين عليا رضي الله عنه وجّه الى الكوفة ليأخذ البيعة له محمدا ابنه ومحمد بن ابي بكر، وكان على الكوفة ابو موسى الاشعري وأبو مسعود، فامتنع ابو موسى ان يبايع، فرجعا الى أمير المؤمنين، فبعث الحسن ابنه ومالك الاشتر*»
وهذه الرواية تناقض نظرية الحاكم بأن كل الصحابة قد بايعوا عليا بالفعل ولكن بعضهم كره القتال والخروج معه. فهي تذكر صراحة امتناع ابي موسى من البيعة لعلي. ولكن سياق الرواية هو في الفترة التي تلت بيعة عليّ ببضعة أشهر: عندما دعا الناس للخروج معه الى البصرة، وبالتالي لا تناقض بين ان يكون ابو موسى قد بايعه أصلاً ولكنه رفض دعوته للنصرة لاحقاً، قبيل حرب الجمل.

(2) مصادر هذا البحث: كتاب الفتوح لابن اعثم (ج2 ص439)، كتاب الثقات لابن حبان (ج2 ص274)، تاريخ الطبري (ج3 ص463).

«وبلغ ذلك أهل اليمن فبايعوا طائعين غير مكرهين. ثم انهم قدموا عليه يهنونه بالخلافة» ثم يذكر ابن اعثم اسماء رؤساء الوفود اليمانية:

«فأول من قدم عليه رفاعة بن وائل الهمداني في قومه من همدان،،،،

وقدم عليه كيـسون بن سلمة الجهني في قومه من جهينة،،،

ثم قدم عليه روبية بن وبر البجلي في قومه من بجيلة،،،،

فأقبل رؤساء القوم منهم العياض بن خليل الازدي،،،

ورفاعة بن شداد الخولاني،،،

وهشام بن أبرهة النخعي،،،

وجميع بن خيثم الكندي،،،

والاخنس بن قيس العتكي ،،،

وعقبة بن النعمان النجدي،،،

وعبد الرحمن بن ملجم المرادي»

وهذه الاسماء التي ذكرها ابن اعثم هي لأشخاص من كبرى القبائل في اليمن كما هو ظاهر. مما يشير الى اتساع قاعدة التأييد لعلي هناك. وقد أورد ابن اعثم ابياتاً شعرية حماسية قالها رؤساء الوفود تأييداً لعليّ وابتهاجاً ببيعته.

وليس هناك ما يمنع من تصديق رواية ابن اعثم هذه.

واستقبلت اليمن واليها الجديد المرسل من قبل علي، عبيد الله بن عباس، وأعطته البيعة:

قال ابن حبان في كتاب الثقات *«وأما عبيد الله بن عباس فإنه خرج منطلقاً إلى اليمن، لم يعانده أحد ولم يصدّه عنها صادّ، حتى دخلها فضبطها لعليّ»*.

وفرّ واليها القديم يعلي بن أمية إلى مكة بعد أن انتهب بيت مالها.

قال الطبري في تاريخه من رواية سيف *«وانطلق عبيد الله بن عباس الى اليمن. فجمع يعلي بن أمية كل شيء من الجباية وتركه وخرج بذلك وهو سائر على حاميته الى مكة فقدمها بالمال»*

رابعاً: مصر[1]

قبلت مصر والي عليّ، قيس بن سعد بن عبادة، ودانت له، رغم وجود نواة من المتربّصين ذوي النزعة العثمانية، الذين بقوا معتزلين، ولكن مسالمين.

وبشأن دخول قيس لمصر لا يوجد في تاريخ الطبري سوى رواية سيف وفيها «*افترق اهل مصر فرقاً: فرقة دخلوا في الجماعة وكانوا معه، وفرقة وقفت واعتزلت الى خربتا وقالوا إن قتل قتلة عثمان فنحن معكم وإلاّ فنحن على جديلتنا حتى نحرك او نصيب حاجتنا، وفرقة قالوا نحن مع علي ما لم يقد اخواننا وهم في ذلك مع الجماعة*»

وقال ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة من رواية الكلبي ان قيس بن سعد جمع اهل مصر وتلا عليهم كتاب تكليفه من قبل عليّ «*فقام الناس فبايعوا، واستقامت مصر وأعمالها لقيس وبعث عليها عماله. إلاّ ان قرية منها قد أعظم أهلها قتل عثمان، وبها رجل من بني كنانة يقال له يزيد بن الحارث، فبعث الى قيس: إنّا لا نأتيك فابعث عمالك، فالأرض أرضك، ولكن أقرنا على حالنا حتى ننظر الى ما يصير امر الناس*»

ثم تحدث ابن ابي الحديد عن تململ في صفوف بعض ذوي النزغة العثمانية وبداية مطالبات بالثأر لدم الخليفة «*ووثب مسلمة بن مخلد بن صامت الانصاري فنعى عثمانَ ودعا الى الطلب بدمه. فأرسل اليه قيس: ويحك! أعليّ تثب؟! والله ما أحب ان لي ملك الشام ومصر وأني قتلتك. فاحقنْ دمك. فأرسل اليه مسلمة: اني كافّ عنك ما دمت انت والي مصر*»

ولخص موقف قيس من المعارضين «*وكان قيس بن سعد ذا رأي وحزم. فبعث الى الذين اعتزلوا: اني لا أكرهكم على البيعة. ولكني أدعكم وأكف عنكم. فهادنهم، وهادن مسلمة بن مخلد، وجبى الخراج وليس أحد ينازعه*»

---

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج3 ص463)، شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد (ج6 ص59).

وسوف تثبت الايام ان هؤلاء «المتربصين» من ذوي النزعة العثمانية والذين تجنب قيس الاصطدام بهم سيكون لهم تأثير كبير على مجريات الأمور في مصر في ظل احتدام الصراع بين علي ومعاوية بعد فترة قليلة. فرغم ان هؤلاء حتى تلك اللحظة كانوا مستقلين تماماً عن معاوية الاّ انهم بلا شك سيكونون حلفاء طبيعيين له في معركته ضد عليّ. ولن يجد معاوية صعوبة كبيرة في استقطابهم الى جانبه والاستفادة منهم في تقويض سيطرة عليّ على مصر.

خامساً: مكة[1]

ومكة هي وكر قريشٍ وأصلها، وكما هو متوقع فلم تبايع علياً. وزاد من نفور مكة التلقائي من عليّ، تأثير عائشة ودعوتها المعادية له. كان موقف أهل مكة، القرشيون، من بيعة علي بن أبي طالب، هو الرفض التام، بالإجماع، منذ البداية:

روى البلاذري في انساب الاشراف *«لما بايع الناس علياً، كتبَ إلى خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة يؤمره على مكة، وأمَرَه بأخذ البيعة له.*

فأبى أهل مكة أن يبايعوا علياً.

فأخذ فتى من قريش يقال له عبد الله بن الوليد بن زيد بن ربيعة بن عبد العزى بن عبد شمس الصحيفة فمضغها وألقاها، فوطئت في سقاية زمزم»

كما ان مكة في تلك الفترة كانت قد تحولت الى مركز تجمع لأفراد العائلة الأموية، وولاة عثمان الهاربين.

وكان ثقل مكة وأهميتها معنوية فقط. فليس فيها من الإمكانات المادية ما يجعلها ذات قيمة اقتصادية أو عسكرية هامة. ومكة عندما رفضت خلافة عليّ لم تنضوِ تحت قيادة واضحة محددة، بل بقيت مجموعات متعددة بمرجعيات

(1) مصادر هذا البحث: انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص12)

مختلفة. ويمكن القول انها بقيت بلا أمير وخرجت عن السلطة المركزية للخليفة في المدينة المنورة.

ولن يتمكن عليّ من الحصول على بيعة مكة إلاّ بعد انتصاره في معركة الجمل، فعيّن عليها ابن عمه قثم بن العباس.

سادساً: الشام[1]

بقيت الشام، حيث معاوية بن أبي سفيان، هي العقبة الكأداء في وجه عليّ.

وقد كان لعلي موقفٌ مبدأيّ تجاه معاوية وأقرانه من ولاة بني أمية: العزل فوراً من مناصبهم، فلن يستعملهم ولو ساعة من نهار!

روى الطبري من طريق الواقدي ان علياً ردّ على اقتراح المغيرة بن شعبة بتثبيت معاوية وابن عامر بقوله *«والله لو كان ساعة من نهار لاجتهدت فيها رأيي ولا ولّيت هؤلاء، ولا مثلهم يُولى»* وكذلك قال لابن عباس *«واما الذي يلزمني من الحق والمعرفة بعمال عثمان فوالله لا أولي منهم احداً ابداً، فإن اقبلوا فذلك خير لهم وان أدبروا بذلت لهم السيف»*. وفي رواية ابن كثير ان ابن عباس قال لعليّ *«اكتبْ معي الى معاوية، فمنّهِ وعِدْه! فقال علي: والله ان هذا ما لا يكون ابداً»*

وهذه الرواية هي أصدق تعبير عن رأي عليّ، رجل المبادئ، وهي الصحيحة.

فأرسلَ عليّ مبعوثاً يطلب البيعة من معاوية، وبدون شروط. وكان نصّ كتاب عليّ له:

«من عبد الله عليّ أمير المؤمنين الى معاوية بن أبي سفيان:

---

(1) مصادر هذا البحث: الكامل في التاريخ لابن الاثير (ص 402 ،ص404 و ص405)، تاريخ الطبري (ج3 ص460)، نهج البلاغة، بشرح محمد عبده (ج3 ص398)، الاخبار الطوال للدينوري (ص 141 -142)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج59 ص 117+ ص122)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص255 وص257).

أما بعد. فقد علمتَ إعذاري فيكم، وإعراضي عنكم حتى كان ما لا بدّ منه ولا دفعَ له. والحديث طويل والكلام كثير. وقد أدبرَ ما أدبرَ وأقبلَ ما أقبلَ. فبايع مَن قِبلك وأقبل عليّ في وفدٍ من أصحابكَ»[1]

ولكن معاوية أمسكه لفترة من الزمن، ثم أطلقه عائداً بلا أي جواب، بل اكتفى معاوية بأن قال له «*انصرف الى صاحبك، فإن كتابي مع رسولي على اثرك*[2]»!

فقرر عليّ تعيين والٍ جديد، وهو سهل بن حنيف الأنصاري، وأرسله الى الشام. ولكن لم يسمح له معاوية حتى بالوصول إلى الشام، فردّه جنوده إلى المدينة حين وصل إلى تبوك. روى ابن الأثير في الكامل «*فأما سهل فإنه خرج حتى اذا كان بتبوك لقيته خيلٌ فقالوا: من انت؟ قال: أمير. قالوا: على أي شيءٍ؟ قال: على الشام. قالوا: إن كان بعثك عثمان فحيّ هلا بك وإن كان بعثك غيره فارجعْ. قال: أوما سمعتم بالذي كان ؟ قالوا: بلى. فرجع الى عليّ*»

وسرعان ما وصل رسول معاوية الى عليّ ! ولكنه كان يحمل رسالة فارغة ! فعندما فض عليّ الكتاب الذي ارسله معاوية لم يجد فيه سوى البسملة و«*من معاوية بن ابي سفيان الى علي بن ابي طالب*» ! ويبدو ان معاوية اراد بهذه الحركة المثيرة جذب اهتمام اهل المدينة الذين كان وجهاؤهم حاضرين في حضرة علي. وبالفعل لما التفت عليّ الى مندوب معاوية مستفسراً عن هذه الرسالة أجابه الرجل (وكان يؤدي دوره المرسوم من سيده) بعد ان طلب الامان «*اني قد خلفت بالشام خمسين الف شيخ خاضبي لحاهم بدموع اعينهم*

---

(1) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده. واما الدينوري في الاخبار الطوال فيقول ان نص كتاب علي كان «*اما بعد، فقد بلغك الذي كان من مصاب عثمان رضي الله عنه، واجتماع الناس عليّ ومبايعتهم لي. فادخل في السلم أو ائذن بحرب*». ولكني استبعد هذا النص لسببين: الاول انه لا يعقل ان يهدد علي بالحرب من اول رسالة يطلب فيها بيعة معاوية. والثاني ان الدينوري يقول ان الكتاب ارسله علي مع الحجاج بن غزية الانصاري، وهذا مستبعد لأن الحجاج بن غزية من المتهمين بالتواطؤ لقتل عثمان، فمن المستبعد ان يكون هو اختيار عليّ كرسول لمعاوية.

(2) الاخبار الطوال للدينوري

تحت قميص عثمان، رافعيه على اطراف الرماح، قد عاهدوا الله الا يشيموا سيوفهم حتى يقتلوا قتلته أو تلحق ارواحهم بالله»[1]

وأما رواية ابن الاثير في الكامل فتقول ان رسول معاوية لما وصل المدينة رفع عالياً «الطومار» المختوم من معاوية حتى يعلم اهل المدينة ان معاوية معترض، وان علياً لما وجد الرسالة الخالية سأل المندوبَ

«ما وراءك؟

قال: آمنٌ أنا؟

قال: نعم. ان الرسول لا يقتل.

قال: ورائي اني تركتُ قوماً لا يرضون إلاّ بالقود.

قال: ممن؟

قال: من خيط رقبتك! وتركتُ ستين ألف شيخ تبكي تحت قميص عثمان وهو منصوبٌ لهم قد ألبسوه منبرَ دمشق»

اذن كانت هذه طريقة معاوية لاعلان نواياه وايصال رسالته الى المدينة واهلها: انه لن يدخل في طاعة الخليفة الجديد ولن يسمح ان يمر حدث بحجم مقتل عثمان مرور الكرام.[2]

و«قميص عثمان» هذا قد صار مثلاً متداولاً في العربية، للتعبير عن استغلال أمرٍ لمآرب وأطماع غير معلنة. وأصلُ المثلُ هو قيام معاوية بعرض قميص عثمان الملطخ بالدماء على عامة أهل الشام لتحريضهم واستدرار عاطفتهم والحصول على دعمهم.

فقد قامت نائلة بنت الفرافصة، زوجة عثمان، أو ام حبيبة بنت ابي سفيان،

---

(1) الاخبار الطوال للدينوري

(2) ويقول لنا ابن كثير ان علياً قرر عندها القيام بـ«غزو» الشام وبدأ الاستعداد لذلك «وخرج من *المدينة*، *ورتب الجيش*» بل وذكر اسماء قادة الالوية والتشكيلات العسكرية، ولكن بدء أحداث حرب الجمل شغلته عن الانطلاق في حملته ! و طبعاً لا يمكن تصديق هذه الرواية لأن المدينة لم يكن بها قوات تذكر او جيوش تجعل علياً يفكر في مثل تلك الخطوة اصلاً.

أخت معاوية، بإرسال القميص الذي قتل الخليفة وهو يرتديه، مرفقاً بخصلةٍ من لحيته، أو بأصابع نائلة التي قطعت من قبل المهاجمين، الى الشام حيث معاوية، لينشره في المسجد الكبير هناك أو ليرسله الى أصقاع الشام، من أجل حشد التأييد لقضيته في أوساط اهل الشام ومقاتليها.

وهذه رواية ابن عساكر في تاريخ دمشق «*فلما قتل عثمان كتبت نائلة ابنة الفرافصة الى معاوية كتاباً تصف فيه كيف دخل على عثمان وكيف قتل، وبعثت اليه بقميصه الذي قتل وهو عليه، فيه دمه.*

فقرأ معاوية الكتاب على اهل الشام. وأمر بقميص عثمان فطيف به في أجناد الشام ونعى اليهم عثمان وأخبرهم بما أتي اليه واستحل من حرمته وحرضهم على الطلب بدمه.

فبايعوه على الطلب بدم عثمان»

وفي رواية أخرى لابن عساكر ان ام حبيبة زوجة النبي(ص) بعثت مع النعمان بن بشير الى معاوية «*بقميصه مضرجاً بالدم وبخصلة الشعر التي نتفت من لحيته، فعقدت الشعر في زر القميص ،،، فصعد معاوية المنبر وجمع الناس ونشر القميص وذكر ما صنع بعثمان ودعا الى الطلب بدمه .*

فقام اهل الشام فقالوا هو ابن عمك وانت وليّه ونحن الطالبون معك بدمه. فبايعوه له»

واما ابن الاثير في الكامل فقال ان النعمان بن بشير حمل الى معاوية أصابع نائلة المقطوعة بالاضافة الى القميص المخضب بالدماء «*فكان معاوية يعلق قميص عثمان وفيه الاصابع، فاذا رأى ذلك اهل الشام ازدادوا غيظا وجدا في أمرهم، ثم رفعه. فاذا أحسّ منهم بفتور يقول له عمرو بن العاص: حرك لها حوارها تحنّ. فيعلقها*»

ولكن لم تكن لمعاوية الصفة الشرعية للقيام بأية مبادرة علنية فاعلة، سوى الامتناع عن الاستجابة لطلب علي. فحتى تلك اللحظة كان هو مجرد والٍ معيّن على إقليمٍ من بلاد المسلمين. ولم يكن له ماضٍ إسلامي مشرف

يؤهله للمنافسة على المنصب الأعلى في دولة الاسلام. وكان هناك قادة آخرون أكثر منه تمثيلاً بكثير في عالم الاسلام.

كان معاوية ينتظر، ويتوقع، أن تكونَ الحركة الاعتراضية الأولى ضد عليّ صادرةً من غيره، من أوساط الصحابة ذوي الشرعية. وهذا ما كان.

رسائل معاوية[1]

ولكن معاوية لم يكتفِ بالانتظار السلبي، بل ان هناك مؤشرات تشير الى انه بدأ الاستعداد مبكراً للمواجهة الكبرى ضد الخليفة الجديد. وعلى الأقل فقد بدأ في محاولة تحريض الجهاز الأموي الذي كان حاكماً ايام عثمان، وبدأ يبرز شيئاً فشيئاً كقطب الرحى أو مركز تكتل قيادات بني أمية التي كانت ترى الدنيا أظلمت بوصول علي بن ابي طالب للخلافة.

بدأ معاوية يبرز كباعثٍ للأمل في أوساطهم بأن المعركة لم تحسم بعد وأن هناك إرادة وقوة حقيقية للتصدي لعلي موجودة في الشام.

راسلهم معاوية ليقول لهم: انهضوا يا اخوتي واستعدوا لقادم الايام .

وسوف نستعرض هنا مجموعة من الرسائل المتبادلة بين معاوية وبقية القيادات الاموية[2]. وقد أثبتنا نصوصاً طويلة هنا :

كتب معاوية الى مروان بن الحكم:

«اما بعدُ، فقد وصل اليّ كتابُكَ بشرحِ خبر قتل امير المؤمنين عثمان، وما رَكبوه به ونالوه منه جَهْلاً بالله وجرأةً عليه، واستخفافاً بحقِّهِ، ولأماني لوّحَ الشيطان بها في شركِ الباطل ليُدْهِدهم في أُهْوِيَّاتِ الفِتَن، ووَهداتِ الضلال، ولعمري لقد صَدَّقَ إبليسُ عليهم ظَنَّهُ، اقْتَنَصَهم بأنشوطة فَخِّه، فعَلَى رِسْلِك يا عبدالله تَمشي الهُوَيْنَى وتكون أوّلا ، فإذا قرأت كتابي هذا فكن كالفَهْد الذي

---

(1) مصادر هذا البحث: شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد (ج10 ص233-245)، جمهرة رسائل العرب (ج1 ص301)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج63 ص249).

(2) هذه الرسائل كلها موجودة في شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد نقلًا عن الزبير بن بكار في «الموفقيات»

لا يصطاد إلا غيلةً، ولا يتشازر الا عند حيلة، وكالثعلب لا يُفلِت الا رَوَغاناً، وأخفِ نفسك منهم اخفاء القُنْفُذ رأسه عند لمسِ الأكُفّ، وامتهِنْ نفسك امتهانَ مَن ييأس القوم من نصره وانتصاره، وابحث عن أمورهم بَحْثَ الدّجاج عن حَبِّ الدُّخن عند فقاسها، وأنغل الحجاز فأني مُنغل الشام، والسلام.»[1]

وورد عليه مروان:

«اما بعدُ، فقد وَصَلَ اليّ كتابك، فنعمَ كتابُ زعيم العشيرة، وحامي الذّمار ،،،، وانا على صحة نيّتي، وقوة عزيمتي، لتحريك الرحم لي وغليان الدم مني. غير سابقك بقولٍ، ولا متقدّمك بفعلٍ، وانت ابنُ حرب وطلابُ التِّراتِ[2]، وابي الضّيم، وكتابي إليك وانا كحَرْباء السَّبْسَب في الهجير ترقُّب عين الغزالة، وكالسَّبُع المُفلِت من الشرك يَفْرَق من صوت نفسه[3]، منتظراً لِمَا تَصِحُّ به عزيمتك، ويَرِدُ به امرك فيكون العمل به والمحتذى عليه»

وكتب الى عبد الله بن عامر بن كريز :

«،،،،، فكأني بكم يا بني أميّة شعارير كالا وراق تقودها الحُداة، أو كَرَخَم الخَنْدَمة تَذْرِفُ خوفَ العُقاب[4]، فثب[5] الآن قبل ان يستشري الفساد، ونَدبُ السّوطِ جديد، والجُرْحُ لمَّا يَنْدَمِل، ومن قبل استضراء الأسد، والتقاءِ لحيَيه على فريسته،،، ونازل الرأي، وانصِب الشَّرَك، وأرم عن تمكن،،، واجعل اكبر عُدَّتك الحذَرَ، وأحدَّ سلاحِك التحريض ،،،، وأَزْحَفْ زَحْفَ الحَيَّة، وإسبق قبل أن تُسْبَقَ، وقُمْ قبل ان يقامَ لك، واعلم أنّك غيرُ متروك ولا مُهْمَل، فأني لك ناصح امين، والسلام.»

فأجابه ابن عامر :

---

(1) جمهرة رسائل العرب نقلًا عن رواية الزبير بن بكار لدى ابن ابي الحديد. ومعنى «ليدحدحهم»: ليدحرجهم. وأنغل الحجاز: أي أفسده. ومعنى كلام معاوية ان على مروان ان يعمل بروية ودهاء لإفساد الأمور على علي بن ابي طالب في الحجاز.

(2) الترات جمع ترة، وهي الثأر.

(3) كلام مروان عن الحرباء وعين الغزالة والسبع ،،، يقصد منه أنه مستنفر ومترقب وجاهز.

(4) كلام معاوية عن الشعارير والحداة وخوف العُقاب،،، يقصد به ان بني أمية وهم متفرقون سيكونون ضائعين تائهين خائفين.

(5) ثِب: فعل الأمر من وثب، والمقصود به: تحركْ وثر بسرعة.

«اما بعدُ، فإنّ امير المؤمنين كان لنا الجَناح الحاضِنةَ تأوي إليها فراخها تحتها، فلما أقصده السهمُ صرنا كالنعام الشارد، ولقد كنتُ مشرَّد الفكر، ضال الفهم، التمِسُ درّيّة استجنُّ بها من خَطْأ الحوادث[1]، حتى وقعَ اليَّ كتابُك، فانتبهت من غفلة طار فيها رُقادي، فأنا كواجد المحجةِ كان الى جانبها حائراً. وكأني أعاينُ ما وصفت من تصرُّف الاحوال.

فالذي أخبرك به ان الناس في هذا الامر: تسعةٌ لك، وواحد عليك، ووالله ان الموت في طلب العزّ احسن من الحياة في الذلّة. وأنت ابنُ حَرْبٍ فَتى الحروب، ونضّار بني عبد شمس، والهِمَمُ بك منوطةٌ لأنّك مُنهِضُها، فإذا نهضتُ فليس لنا التخلف عنك، بل ولا لأحدٍ من الناس القُعود حين نهوضك. وانا اليوم على خِلاف ما كانت عليه عزيمتي من طلب العاقبة، وحُبِّ السلامة قبل قرعِك سُويداء القلب بسَوْط الملام. ولنِعْمَ مؤدِّب العشيرة انت، وإنّا لنرجوك بعد عثمان كهفاً لنا، نتوقع لوعدك، نترقب لامرك وما يكون منك لأمتثله واعمل عليه، إن شاء الله تعالى»

وكتب الى الوليد بن عقبة بن ابي معيط :

«،،، الا انّ أخاك عثمان[2] أصبحَ منك بعيداً، فصرتُ بعده مزيداً، فأطلب لنفسك ظلاً تأوي إليه فتستكنُّ به، فأني اراك على التراب رقُودا، وكيف بالرُّقادِ بك ؟ لا رُقادَ لك ! فلو قد استتَبَّ هذا الامر لِمُريده ألْفيتَ كشريد النعام يفزَع من ظلّ الطائر، وعن قليل تشربُ الرَّنَق[3]، وتستشعر الخوف. ألا وانّي أراك فسيحَ الصَّدر، مُسترخي اللَّبَب، رَخْوَا الحِزام، قليلَ الاكتراث، وعن قليل يُجتَث أصْلُك، والسلام»

فأجابه الوليد :

«اما بعدُ، فإنّك ابنُ حرب وسيدُ قريش، واكملهم عَقْلاً، واحسنهم فَهْماً،

---

(1) الدريّة: ما يُستتر به. ويقصد ابن عامر أنه كان خائفاً يسعى ليقي نفسه من ضرر الأحداث التي وقعت.
(2) الوليد بن عقبة أخو عثمان لامه.
(3) الرنق: الماء الكدر والعكر.

واصوبهم رأياً، واعرفهم لحُسن السياسة، إذ انت معدن الرِّياسة، تُورِدِ بمعرفةٍ، وتُصْدِر عن مَنْهَلٍ رويّ، مُناويك كالمنقلب من العيون، تهوي به عاصفُ الشَّمال في لُجَّةِ البحر.

،،، فملأتُ بطني على حرام إلا مُسكةَ الرَّمق، حتى أَفري أوْداجَ قَتلةِ عُثمان فَرْيَ الأُهُبَ بشبا الشفار[1]. واما اللَّينُ فهيهاتَ، إلا خُفيةَ الموت إذ يرتقبُ غفلة الطالب، فإنا على مُداجاةٍ[2] ولم نُبدِ صَفَحاتنا بعدُ، وليس دون الدَّم بالدم مَزْحَل. إذ لا يخفى عند ذوي المعرفة والمروءة ان العار منقصة والضعفَ ذلّ. أيَخْبِطُ قتلة عثمان زهرة الحياة الدنيا، ويسقون برد العين، ولما يمتطوا الخوف، ويستحلسوا الحذر؟ ،،،،، لا دُعيتُ لعقبة ! ان كان ذلك، حتى انصب لهم حرباً، تضع الحوامل لها اطفالها ،،، وقد عَقلتُ نفسي على الموت عقل البعير، واحتسبتُ اني قتيل ثاني بعد عثمان أو أقتل قاتله!

فعجل عليَّ ما يكون من رأيك.، فإنا منوطون بكَ متبعون عقبك. ولم احسب الحالَ يتراخى بك الى هذه الغاية لما أخافهُ من إحكام القوم أمرهم. والسلام عليك.»[3]

وارسل معاوية الى يعلي بن أمية:

«،،، كتبتُ اليك صبيحةَ وَرَدَ عليَّ كتابُ مروان بن الحكم، يخبرني بأستشهاد أمير المؤمنين وشرح الحال فيه. وانّ امير المؤمنين طالَ بهِ العمر حتى نقصت قُواه، وثُقُلت نهضتُهُ، وظهرت الرِّعْشة في اعضائه، فلما رأى ذلك منه اقوامٌ لم يكونوا عنده موضعاً للامامة والامانة، وتقليد الولاية، وثبوا به وألَّبوا عليه، فكان اعظم ما نقموا عليه وعابوه به، ولا يتُك اليمن، وطول مدّتك عليها، ثمّ ترامى بهم الامر حالاً بعد حال، حتى ذبحوه ذَبْحَ النَّطيحةِ مبادراً

(1) ومعنى الكلام ان الوليد يحلف انه لن يطيب له عيش حتى يقطع أعناق قتلة عثمان بالشفرات الحادة.

(2) المداجاة: المداراة.

(3) وفي رواية ابن عساكر (تاريخ دمشق ج63 ص249) ان الوليد كان أرسل شعراً الى معاوية يعاتبه فيه ويلومه على تباطئه في الطلب بدم عثمان، وان معاوية أجابه

هومُستعجبِ مما يرى من أناتنا ولو زبته الحربُ لم يترمرمِ

بها الموتُ، وهو مع ذلك صائم، معانقٌ المصحفَ، يتلو كتاب الله تعالى. عظُمت مصيبةُ الاسلام بصهر الرسول، والامام المقتول على غير جُرْم سفكوا دمه، وانتهكوا حُرْمته، وانت تعلم ان بَيعتَهُ في أعناقنا، وطلب ثأره لازمٌ علينا، فلا خيرَ في دنيا تعدلُ بنا عن الحقّ ،،، واعلم ان القوم قاصدُوك بادئَ بَدْءٍ، لاستنزاف ما حوتهُ يداك من المال، فأعلم ذلك واعمل على حَسَبه»

فأجابه يعلي:

«اما بعدُ، فانا وانتم بني اميّة كالحَجر، الذي لا يُبْنَى بغير مَدَر(٢)، وكالسّيفِ لا يقطع الا بضاربه. وصلَ اليّ كتابك يخبرنا بخبر القوم وحالهم، فلئن كانوا ذبحوه ذبحَ النطيحة يُودِيْ بها الموتُ، فوالله لنخرجنّ ذابحه، ولننحرنه نحر البدنه وافى بها الهَدْيُ الاجل!

ثكلتني من انا ابنها ان نمتُ عن طلب وتر عثمان أو يقال: لم يبق فيه رمق. اني أرى العيش بعد قتل عثمان مرا. إن أدلج القوم فاني مدلج. وان كان قصدهم ما حوته يداي من المال، فالمال أيسرُ مفقود ان دفعوا الينا قتلة عثمان، وان أبوا ذلك، أنفقنا المال على قتالهم، وانّ لنا واياهم لمعركةً نتناحر فيها نحر الجزّار النقائع عن قليل تصلّ لحومها»

وكتب معاوية الى سعيد بن العاص:

«اما بعدُ، فقد ورد عليّ كتاب مروان بن الحكم من ساعةٍ حين وقعت النازلةُ،،، ومروان الرائدُ لا يكذبُ أهله، فعلام الافكاك يابن العاص ولات حين مناص؟ ذلك انكم يا بني اميّة عمّا قليل تسألون أدْنى العيش من ابعد المسافة، فَيُنكِرُكم من كان بكم عارفاً، ويصدُّ عنكم مَن كان لكم واصِلاً، متفرقين في الشعاب، تتمنون لماظة المعاش.

الا وان امير المؤمنين عُتِبَ عليه فيكم، وقُتِلَ في سبيكم، ففيمَ القعود عن نُصرته، والطلب بدمهِ! وانتم بنو ابيه، وذوو رحمه وأقربوه وطُلّاب ثأره، فأصبحتم مستمسكين بشظف معاشٍ زهيدٍ عما قليل يُنزع منكم عند التخاذُل وضعْفِ القُوى.

فإذا قرأت كتابي هذا فدِبّ دبيبَ البُرء في الجسد النَّحيف، وسِرْ سير النجوم تحت الغمام، واحشدْ حشد الذرة في الصّيف لأنجحارها في الصّرد،،،»

وكان جواب سعيد مختلفاً عن بقية زملائه من القيادات الاموية:

«اما بعدُ، فإنّ الحزمَ في التثبّت، والخَطأ في العَجلة، والشُّؤم في البدار،،، ذَكرتَ حق أمير المؤمنين علينا وقرابتنا منه، وانه قُتل فينا: فخَصلتان ذكْرُهما نقصٌ، والثالثة تكَذُّبٌ! وامرتنا بطلب دمه، فأيُّ جهة نسلُك فيها ابا عبد الرحمن؟ رُدِمَت الفجاج، وأُحكِم الامرُ عليك، وَوَلي زمامَهُ غيرك، فدعْ مناوأة من لو كانَ افترش فراشه صدر الامر لم يعْدل به غيره. وقلت: كأنّا عن قليل لا نتعارف، فهل نحن الا حيٌّ من قريش، ان لم تنلنا الولاية لم يضق عنا الحقّ؟ انها خلافة منافية، وبالله أقسِمُ قسماً مبروراً لئن صحت عزيمتك على ما ورد به كتابك لألَقَيتكَ بين الحالين طليحا. وهبني إخالُك بعد خَوْضِ الدماء تنالُ الظفر، هل في ذلك عوَض من ركوب المأثم ونقص الدين؟

اما انا فلا علي بني اميّة ولا لهم! اجعلُ الحزم داري والبيت سجني واتوسد الاسلام، واستشعر العافية. فأعدلْ ابا عبد الرحمن زمام راحلتك الى محجة الحقّ، واستَوْهب العافية لاهلك، واستعطف الناس على قومك.

وهيهات من قبولك ما اقول حتى يفجّر مروانُ ينابيعَ الفتن تأجّجُ في البلاد، وكأني بكما عند ملاقاة الاقران تعتذران بالقدر! ولبئس العاقبةُ الندامةُ عمّا قليل يَضِحُ لك الامر والسلام».

من خلال استعراض هذه النصوص الطويلة يمكن التعليق كما يلي:

أخذ معاوية على عاتقه مهمة رفع الروح المعنوية لبقية زملائه من قادة الدولة ايام عثمان. فهؤلاء كانوا يمرون في حالة من الضياع والقلق على المستقبل بعد النهاية المأساوية لشيخهم ووليّ نعمتهم عثمان. لقد فقدوا مكانتهم في الدولة ولم يعودوا يسيطرون على ولاياتهم التي وصل اليها ولاة جدد من طرف الخليفة الجديد عليّ، باستثناء الشام.

لم تكن لدى معاوية ايه أوهام بشأن ضراوة وصعوبة المعركة المقبلة ضد أمير المؤمنين الجديد عليّ. وكان يهمه أن يضمن تأييد أقربائه من قيادات عهد عثمان. فانضمامهم اليه -مستقبلاً- فيه مصلحة لأنهم ذوو خبرات كبيرة لا يستهان بها في الادارة والقيادة والحروب.

كانت دعوة معاوية لهم غير تفصيلية وبلا خطة عمل واضحة. فهو يكتفي بدعوتهم الى النهوض للثأر لعثمان وعدم السماح للخليفة الجديد بأن يرسخ أقدامه في الارض. فكأن رسائله تلك أقرب الى إعلان النوايا منها الى أفعال محددة. وهو لم يَدْعُهم للقدوم اليه في الشام وانما دعاهم الى ضرورة التحرك، وترك الباب مفتوحاً. ولذلك ليس مفاجئاً أن يكون تحركهم الفعلي مع طلحة والزبير وعائشة وليس مع معاوية. وسنأتي للدور الذي لعبه هؤلاء في التحضير لحرب الجمل - وبالذات مروان وابن عامر ويعلي.

ويلاحظ ان ردود هؤلاء على معاوية كانت ايجابية، بل وحماسية، في اجمالها (ما عدا سعيد بن العاص). ونقرأ في كلام هؤلاء لمعاوية تسليماً منهم بقيادته واستعداداً منهم لاتباعه. فبعد أن كانوا ايام عثمان نظراء له -في أهمية مناصبهم- صاروا اليوم يدركون ان معاوية وحده من يمتلك القوة الكافية لقيادتهم والحفاظ على مصالحهم. كما نلمس في أجوبتهم عاطفة حارة تجاه عثمان وما جرى له. ولا شك أن عاطفتهم تلك كانت صادقة.

واما سعيد بن العاص، الذي ينتمي الى الفرع الأكثر أنفة وشموخاً من بني امية[1]، فقد رفض الانصياع الى معاوية في هذه المرحلة، ولم يكن راضياً عن النوايا التصعيدية لمعاوية. بل ان لسعيد بن العاص مواقف لاحقة[2] تجعلنا نميل الى الاعتقاد انه لم يكن ليمانع بتسلم علي بن ابي طالب للخلافة ويفضل ذلك على الحرب الأهلية. وسوف نرى انه لن ينضم الى جماعة طلحة والزبير وعائشة في مسيرهم الى البصرة بل سيعتزلهم ويبقى في مكة.

---

(1) وحتى ابنه من بعده، عمرو بن سعيد (الأشدق)، ستكون له نفس الأنفة وسيكون مصيره القتل على يد عبد الملك بن مروان.

(2) منها مثلاً: سيرفض لعن علي بن ابي طالب على المنابر بعد ان استتب الامر لبني أمية. ولن يمانع في دفن الحسن بن علي الى جوار جده رسول الله(ص).

الكذب: عليّ يولي معاوية على الشام![1]

وروى البلاذري في أنساب الاشراف عن صالح بن كيسان «وكتب علي *الى معاوية: إن كان عثمان ابن عمك فأنا ابن عمك، وإن كان وصلك فإني أصلك، وقد أمرتك على ما أنت عليه، فاعمل فيه بالذي يحق عليك*»

وهذا كذب اختلق على الامام علي، وقد تراكمت الشواهد على خلافه.

بل ان هناك رواية أكثر سخفاً ذكرها ابن قتيبة في الامامة والسياسة يقول فيها عن علي:

«ثم أرسل بالبيعة الى الافاق والى جميع الامصار. فجاءته البيعة من كل مكان إلاّ الشام فإنه لم يأته منها بيعة.

فأرسل الى المغيرة بن شعبة فقال له: سر الى الشام فقد وليتكها.

قال: تبعثني الى معاوية وقد قتل ابن عمه، ثم آتيه واليا فيظن اني من قتلة ابن عمه؟ ولكن إن شئتَ ابعث اليه بعهده فإنه بالحري إذا بعث له بعهده أن يسمع ويطيع.

فكتب علي الى معاوية: اما بعد: فقد وليتك ما قبلك من الامر والمال، فبايع من قبلك، ثم أقبل الي في الف رجل من اهل الشام.

فلما أتى معاوية كتاب علي دعا بطومار فكتب فيه: من معاوية الى علي: اما بعد فانه :

ليس بيني وبين قيس عتاب غير طعن الكلى وضرب الرقاب»

فحسب هذه الرواية المختلقة فإن علياً يختار المغيرة بن شعبة كوالٍ له على الشام كبديل لمعاوية ! وذلك مستحيل لأن المغيرة هو من نفس نوعية معاوية والتي كان لعليّ رأي مبدأيّ ضدها. وليس ذلك فحسب بل تواصل الرواية لتقول انه يثبت معاوية في منصبه بعدما اعتذر المغيرة عن ذلك التكليف!

(1) مصادر هذا البحث: أنساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص13) الامامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص 67-68)

نصائح المغيرة وابن عباس![1]

توجد روايات كثيرة تتحدث عن نصائح قدمها كل من المغيرة بن شعبة الثقفي وعبد الله بن عباس للامام علي بتثبيت معاوية بن ابي سفيان في منصبه كوالٍ للشام، وذلك على الاقل الى أن تستقر أمور علي في الخلافة وبعد ذلك يمكنه أن يغير ويبدل.

وهناك فرق بين الرجلين: فابن عباس هو ابن عم علي ومن شيعته والمقربين اليه ولذلك ربما يكون بالفعل راغباً بإسداء نصحٍ مخلص لعلي لتجنب تفاقم الامور، خاصة مع ميله الشخصي الى الموادعة. ولذلك انا لا استبعد أن يكون قدم نصيحة كتلك.

واما المغيرة فشخصٌ تلفّ الشبهات بشخصه منذ اليوم الاول لدخوله الاسلام والى آخر يوم في حياته. ولم يكن يوماً قريباً من شخص عليّ ولا نهجه، وقد أمضى سنوات طويلة في خدمة معاوية بعد ذلك. ومع ذلك فأنا لا أستبعد أن يكون قد دخل على عليّ باقتراحاته تلك، ربما كنوع من جس النبض للخليفة الجديد ولمعرفة كيف يفكر. فلعل المغيرة كان يريد ان يحسب الموقف المناسب له بين طرفي النزاع فأراد أن يعرف اين تميل الرياح. وربما اراد أن تكون له حظوة عند معاوية عن طريق إخباره بنوايا علي تجاهه. ولكن على كل حال، فوّت عليه عليّ الفرصة لأن نواياه تجاه معاوية كانت معلنة ولم يتكلف عليّ عناء إخفائها.

وهذه بعض الروايات:

وروى ابو حنيفة الدينوري في الاخبار الطوال[2] :

«ثم ان المغيرة بن شعبة دخل على علي رضي الله عنه فقال: يا امير

---

(1) مصادر هذا البحث: الاخبار الطوال للدينوري (ص142)، الكامل في التاريخ لابن الاثير (ص403)، الامامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص 67-68)، سير اعلام النبلاء للذهبي (ج3 ص139)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج59 ص122)، مروج الذهب للمسعودي (ج2 ص 277-278).

(2) وقريبٌ من ألفاظها رواه المسعودي في مروج الذهب .

المؤمنين ان لك حق الصحبة، فأقر معاوية على ما هو عليه من إمرة الشام، وكذلك جميع عمال عثمان، حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعتهم استبدلتَ حينئذ أو تركتَ.

فقال علي رضي الله عنه: أنا ناظر في ذلك[1].

وخرج عنه المغيرة ثم عاد اليه من غد فقال: يا امير المؤمنين اني أشرت أمس عليك برأي، فلما تدبرته عرفت خطأه. والرأي أن تعاجل معاوية وسائر عمال عثمان بالعزل لتعرف السامع المطيع من العاصي، فتكافئ كلاً بجزائه. ثم قام فتلقاه ابن عباس داخلاً فقال لعلي رضي الله عنه: فيم أتاك المغيرة؟ فأخبره علي بما كان من مشورته بالأمس، وما أشار عليه بعد.

فقال ابن عباس: أما أمس فإنه نصح لك، وأما اليوم فغشك!

وبلغ المغيرة ذلك فقال: صدق ابن عباس، نصحت له فلما رد نصحي بدلت قولي»

وفي الكامل لابن الاثير رواية تقول لنا ان ابن عباس اقترح على عليّ أن يعتزل الناسَ بل ويغادر المدينة ! باعتبار انهم لن يجدوا له بديلا :

«*قال ابن عباس: فقلتُ له: أطعْني والحقْ بمالك بينْبُع وأغلق بابك عليك، فإن العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك. فإنك والله لئن نهضتَ مع هؤلاء اليوم ليحمّلنك الناسُ دمَ عثمان غدا.*

فأبى عليّ»

وروى ابن قتيبة في الامامة والسياسة :

«*وكان ابن عباس غائبا بمكة المشرفة، فأقبل الى المدينة وقد بايع الناس عليا. قال ابن عباس: فوجدتُ عنده المغيرة بن شعبة، فجلستُ حتى خرج ثم دخلت عليه. فسألني وساءلته. ثم قلت له : ما قال لك الخارج من عندك آنفا؟*

(1) انا استبعد تماماً أن يكون علي قد قال «انا ناظر في ذلك» لأن موقفه المبدأي بشأن عزل معاوية وعمال عثمان مؤكد ومعروف.

قال: قال لي قبل هذه الدخلة أرسل الى عبد الله بن عامر بعهده على البصرة، والى معاوية بعهده على الشام. فإنك تهدّئ عليك البلادَ وتسكن عليك الناس.

ثم أتاني الآن فقال لي: اني كنت أشرت عليك برأي لم اتعقبه. فلم أرَ ذلك رأياً. وإني أرى ان تنبذ اليهما العداوة فقد كفاك الله عثمان، وهما أهون موتة منه.

فقال له ابن عباس: اما المرة الاولى فقد نصحك فيها، واما الثانية فقد غشك فيها

قال: فإني قد وليتك الشام فسِرْ اليها

قال: قلت: ليس هذا برأي. أترى معاوية وهو ابن عم عثمان مخليا بيني وبين عمله؟ ولستُ آمن إن ظفر بي أن يقتلني بعثمان! وأدنى ما هو صانع ان يحبسني ويحكم علي.

ولكن اكتبْ الى معاوية فمنّه وعدهُ، فإن استقام لك الامر فابعثني»

وربما تكون الرواية الأصح هي التي وردت في سير اعلام النبلاء للذهبي عن ابن عباس قال «*استعملني عثمان على الحج. ثم قدمتُ وقد بويع لعلي. فقال لي: سِرْ الى الشام، فقد وليتكها.*

قلت: ما هذا برأي[1] *! معاوية أموي، وهو ابن عم عثمان وعامله على الشام، ولستُ آمن أن يضرب عنقي بعثمان، أو أدنى ما هو صانع أن يحبسني.*

قال علي: ولِمَ؟

قلت: لقرابة ما بيني وبينك، وان كل من حمل عليك حمل عليّ. ولكن اكتب اليه، فمنّه وعِدْهُ!

فأبى عليٌ وقال: لا والله! لا كان هذا أبداً»[2]

---

(1) ويمكن قبول ان يكون ابن عباس اعتذر عن عرض عليّ بتعيينه والياً على الشام بديلًا لمعاوية، فذلك ينسجم مع شخصيته الوادعة والبعيدة عن التوجهات الصدامية.

(2) وهذه الرواية بتمامها ذكرها ابن عساكر بإسنادٍ كامل في تاريخ دمشق.

وفي رواية الكامل لابن الاثير ومروج الذهب للمسعودي ان علياً أجاب المغيرة «لا والله، لا أستعملُ معاوية يومين»

وهذا الجواب هو الأصحّ، وهو يتسق مع تاريخ عليّ ومواقفه وفكره. وأما الاجوبة الاخرى من نوعية «انا ناظرٌ في الأمر» أو غيرها مما يشي بتفكير عليّ الجدّي بإقرار معاوية على الشام فكلها من صنع رواة كذابين.

تلخيص المواقف من بيعة عليّ

بعد هذا الاستعراض، يمكن تلخيص المواقف من بيعة على النحو التالي:

أولاً موقف المهاجرين القرشيين وأبنائهم:

عارض مَن بقي حياً من كبار الصحابة القرشيين تولي عليّ بن أبي طالب الخلافة[1]. ومن بين أعضاء لجنة الشورى السداسية التي عينها عمر بن الخطاب، كان لا يزال منهم على قيد الحياة ثلاثة - بالإضافة إلى عليّ نفسه. اختار طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام الاستجابة لضغط الثوار فبايعا علياً بالخلافة علناً. ورفضَ ثالثهما، سعد بن أبي وقاص، أن يبايع علياً، واختار موقفاً سلبياً وقرر أن يعتزلَ الأمر، ولم يُكرهه عليّ على بيعته رغم قدرته على ذلك.

كان هؤلاء يرون أنفسهم أنداداً لعليّ، الذي أصبح بنظرهم خليفة للغوغاء والمتمردين والرعاع من الذين لا يكنون الودّ لقبيلة قريش. وكانوا يرون أنه كان ينبغي احترام منهج عمر في حصر حق اختيار الخليفة بهم وحدهم دون غيرهم.

واتخذ عبد الله بن عمر بن الخطاب موقفاً مشابهاً لسعد.

وشذ عن موقف هؤلاء ابنان لاثنين من كبار الصحابة القرشيين: محمد

---

(1) وقد ذكر الطبري في تاريخه (ج3 ص452) اسم قدامة بن مظعون ايضا ضمن مَنْ رفضوا بيعة عليّ. ورغم كونه قرشياً وبدرياً الاّ ان قدامة لا يعتبر من كبار الصحابة - ربما بسبب حدّ شرب الخمر الذي أقامه عليه عمر أثناء خلافته.

بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة، اللذين كانا من أشد العناصر المؤيدة لعليّ بن أبي طالب حماساً.

ثانياً موقف أبناء طلقاء قريش وقيادة الجهاز الإداري في عهد عثمان بن عفان:

كان هؤلاء، وبالإجماع، ضد تولي عليّ لمنصب الخليفة. كان هؤلاء يعرفون أن امتيازاتهم ووضعهم ومستقبلهم ستضيع كلها على يد عليّ. وكانوا مصممين على منع حدوث ذلك بأي ثمن. وبدأوا يعدّون العدة لإعلان التمرد ومواجهة الخليفة الجديد، ولكنهم كانوا بحاجة إلى أمرين: قيادة مركزية توحد صفوفهم، وواجهة شرعية تغطي تحركهم. وسرعان ما وجدوا مطلبيهم في شخص معاوية بن أبي سفيان، وأم المؤمنين عائشة، على التوالي.

ثالثاً موقف الأنصار:

كانوا مسرورين جداً بوصول عليّ بن أبي طالب، أخيراً، إلى منصب الخليفة. كانوا يعتبرونه امتداداً لعهد النبي(ص) وحكمه وكان شخصه يناسبهم تماماً لأنه سوف ينهي، أو يقلل كثيراً من سيطرة قريش على مقاليد الأمور وتعاليها عليهم، وسوف يعيد إليهم اعتبارهم ودورهم المحوري في دولة الإسلام، بعدما عانوه من تهميش. وقرر عموم الأنصار ربط مصيرهم بمصير عليّ.

ولكن كانت هناك أقلية من بينهم ارتبطت بمصالح معينة مع عثمان بن عفان وحكمه فعارضت تولي عليّ الخلافة. ومن أشهرهم النعمان بن بشير وزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة وحسان بن ثابت.

رابعاً المؤمنون الضعفاء السبّاقون:

كانوا مع خلافة عليّ بن أبي طالب بدون تردد. وكان ممن بقي على قيد الحياة من هؤلاء عمار بن ياسر وخباب بن الأرت[1].

---

(1) شهد خباب صفين وعمره 73 عاماً، وتوفي بعد العودة إلى العراق، فصلى عيه عليّ ودفنه في الكوفة. ذكر ذلك ابن سعد في الطبقات الكبرى (ج3 ص167).

وشذ ابنٌ لأحد أبرز الصحابة الموالي، وهو، أسامة بن زيد بن حارثة، فقرر الاعتزال.

***

ويمكن بسهولة ملاحظة التشابه الكبير في مواقف مختلف الفئات بين ما حصل يوم اجتماع السقيفة وبيعة أبي بكر قبل 24 عاماً، وبين ما حصل عقب مقتل عثمان وبيعة عليّ. فالمواقف تكررت تقريباً.

***

خامساً وأما بشأن الأمصار :

فصحيحٌ أن علياً قد حصلَ على اعترافها -باستثناء الشام- بسلطته وخلافته، ولكن كانت سيطرة عليّ على الأقاليم سطحية أو شِبهَ اسميّة. لقد حصل عليّ على قبول عام من أكثرية المسلمين في الاقاليم بحكم مكانته وتاريخه في الاسلام. ولكن لم تكن لعليّ في الأمصار المختلفة قاعدة إدارية يستند إليها في حكمه. لقد ورث دولة عثمان، ورجالَ عثمان، ونظامَ عثمان، وكان عليّ مصمماً على أن يغيّرَ كل ذلك ويبدأ من جديد.

الجزء الثاني:

حربُ الجمل

ليس ممكناً تصوّر أن يمرّ حدثٌ جللٌ بقدر قتل خليفة المسلمين دون تداعيات وعواقب خطيرة. كان من المؤكد أن مشاكل كبيرة جداً ستندلع، لأن عثمان كان يترأس دولة مترامية الأطراف، وقد رسّخ فيها جهازاً إدارياً وعسكرياً قوياً عمادُه أقرباؤه من بني أمية.

وكان الهدوء الظاهر الذي أعقب بيعة عليّ في المدينة مجرّد سكون مؤقت ناتج عن الترقب لما ستستقر عليه الأمور بعد التطورات الأخيرة. ولكن السماء كانت ملبدة بالغيوم، والعواصف تموج تحت السطح. والانفجار كان مسألة وقت ليس إلاّ.

ولكن المفاجأة كانت في الجهة التي صدرت منها المبادرة! فأولُ تحركٍ لم يأتِ من الأقاليم، ولا من رجالات عثمان. لقد صدر إعلان التمرد والانشقاق من زوجة الرسول(ص)، وابنة الخليفة الأول، أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر.

الفصل الأول: خصومُ عليّ، الخلفيات[1]

عائشة: إعطاء الشرعية للتمرّد

لعبت أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر دوراً محورياً في أول فتنة واقتتال داخليّ وحربٍ أهلية في الإسلام، وهي ما تعرف بحرب الجمل. ولذا فإن الحديث عن شخصية عائشة وخلفيتها ضروري للغاية.

فلا شك أن عائشة كانت تتمتع بقدرٍ كبيرٍ من الفطنة والذكاء. وهي كانت على مستوىً عالٍ من الإلمام بعلوم اللغة والأدب والشعر وتاريخ العرب. وفي أواخر عمرها أصبحت عالمةً فقيهة ومفتية يرجع إليها كثير من الصحابة والتابعين فيما يشكل عليهم من مواضيع الفقه والأحكام. وقد تصدّت عائشة للرواية عن النبي(ص)، خاصةً وقد طال بها العمر كثيراً، فكانت من أكثر الذين رووا أحاديث عن الرسول(ص).

وكانت عائشة أكثر من غيرها من نساء النبي(ص) إدراكاً ووعياً للجهد السياسي الهائل الذي كان يبذله الرسول(ص). فخلال الفترة التي كان فيها النبي(ص) متزوجاً من عائشة، كان في ذات الوقت يبني دولته، ويقوم بدور الرئيس فيها. كانت عائشة تشاهد الرسول(ص) بأم عينيها وهو يستقبل وفود القبائل، وهو يرسل البعوث، وهو يجهز الجيوش، وهو يعيّن الولاة، وهو يعقد التحالفات، وهو يبرم العهود.

---

(1) مصادر هذا البحث: صحيح البخاري (ج5 ص151 باب حديث الإفك + ج6 ص 14 باب مرض النبي ووفاته)، نهج البلاغة بشرح محمد عبده (ج2 ص199)، السنن الكبرى للبيهقي (ج8 ص152)، الامامة والسياسة لابن قتية (ج1 ص95).

ولذا يمكن القول آن البعد السياسي في شخصية عائشة يعود في جذوره إلى الفترة النبوية. آمنت عائشة أن دين محمد(ص) لم يكن مجرّد دعوةٍ إيمانيةٍ محضة، وأنه لا يكفي للمسلم أن يكون مؤمناً بالغيبيات وعقيدة النبي(ص)، بل لا بد من ربط ذلك كله بدورٍ سياسي دنيوي.

وبخلاف زوجات النبي(ص) الأخريات، اللواتي ارتضينَ أن يكنّ بلا دورٍ سياسيٍ يُذكر والاكتفاء بالبقاء على ذكرى رسول الله(ص) وعهده من بعده، كانت عائشة ذات همّةٍ عالية. فهي لم ترضَ إلاّ أن يكونَ لها دور مهمٌّ وكلمةٌ مسموعةٌ بين المسلمين، وخاصةً حين تأصّلت أسباب النزاع والشقاق بينهم وبدأت نذر الحرب الأهلية تلوح في الأفق. وربما كانت عائشة تشعر بنوعٍ من المسؤولية تجاه «أبنائها» وبأنّ عليها واجباً في رعايتهم وتوجيههم إلى ما تراه خيراً لدين محمد(ص) ودولته من بعده.

وبحكم كونها ابنة أبي بكر، صاحب النبي(ص) القديم وشيخ المهاجرين القرشيين، فلا شك أنها كانت قريبةً مما كان يدور في أوساط المهاجرين القرشيين وعقلهم المفكّر عمر بن الخطاب، من تداولٍ ونقاشٍ حول شؤون الحكم والقيادة من بعد النبي(ص)، وخاصةً في السنتين الأخيرتين من حياته(ص).

ومن المؤكد ان عائشة تابعت بكل تركيزٍ واهتمام ذلك الخلاف الخطير الذي حصل بعد وفاة الرسول(ص) وفرحت لنجاح أبيها وعمر في مسعاهما لفرض رؤيتهما للحُكم وإرساء مبدأ تداول الخلافة ما بين المهاجرين القرشيين.

البُعد الشخصي في موقف عائشة

والعامل الشخصي له دور. فالمؤشرات كلها ترجح أن عائشة كان لديها حساسية، بالمعنى السلبي، تجاه أهل بيت النبي(ص) وبالتحديد خديجة وفاطمة وعلي. فمشاعرها الذاتية، النافرة من عليّ، ساهمت أيضاً في صقل إرادتها وعزمها على التمرد.

وقد روى المحدثون ما يوضح تلك الغيرة الشديدة التي كانت تشعر بها عائشة تجاه خديجة بنت خويلد، رغم كونها متوفية منذ سنوات عديدة. وربما فاقمَ من حدة موقفها تجاه خديجة بالتحديد، ما كانت تراه من حب الرسول(ص) لابنته منها: فاطمة. كما كانت عائشة تعرف بالتأكيد مدى حب الرسول(ص) لعليّ والخصال المجتمعة فيه والتي جعلته يطرَحُ نفسَه، ويطرحَهُ آخرون، كمنافس لأبيها عند توليه الخلافة، وأنه كان بما يمتلكه من فضل وثقل في الإسلام يمثل عنصرَ تشكيك رئيسيّ، إن لم يكن الوحيد، في شرعية خلافة أبيها.

كما أن عليّ بن أبي طالب، بمواقفه القديمة من عائشة، لم يقدم لها ما يساعدها على التخلص من نظرتها السلبية له. فعندما حصلت حادثة الإفك، كان لعليّ رأيٌ لا يمكن أن يُمحى من ذاكرتها. فقد روى البخاري أن رسول الله(ص) لمّا كثر الكلام والإشاعات والشبهات حول عائشة وشرفها، صار متضايقاً جداً من الأمر إلى حد أنه أرسلَ عائشة إلى بيت أبيها إلى أن يأتيه الوحي بشأنها. وخلال ذلك استشار علياً بشأنها، فقال له «*يا رسول الله! لم يضيّق الله عليك. والنساء سواها كثير*»[1]

فلم يكن موقف عائشة السلبي تجاه شخص عليّ أمراً طارئاً استجدّ بعد مقتل عثمان، بل كان يعود إلى سنين طويلة. وكان عليّ يعرف أنها تبغضه هو خاصّة. وقد عبّر عن ذلك مرة بقوله «... *وأمّا فلانة فأدركها رأي النساء، وضغنٌ غلا في صدرها كمَرجل القين، ولو دُعيَت لتنالَ من غيري ما أتت إليّ لم تفعل، ولها بعدُ حرمتها الأولى. والحساب على الله تعالى*»[2]

خلفيات موقف طلحة والزبير

كان طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام من المهاجرين الأولين الذين

---

(1) صحيح البخاري/ باب حديث الإفك. وبلغت شدة موقفها من عليّ إلى درجة أنها لا تطيق مجرّد ذكر اسمه كما ورد في صحيح البخاري/ باب مرض النبي ووفاته
(2) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده (ج2 ص199).

شهدوا الإنجاز النبوي منذ بداياته إلى نهايته. وهما أصغر سناً من الرسول(ص) وأبي بكر، وبالتالي هما من نفس جيل عليّ بن أبي طالب تقريباً.

وينتمي طلحة إلى البطن التيميّ من قريش، نفس بطن أبي بكر، ويبدو أنه بالتالي كان يعتبر نفسه وريثاً طبيعياً للخليفة الأول. ورغم انه لم يشهد بدراً، إلاّ أنه شهد أُحُداً، وتوجد عدّة روايات تفيد أنه أبلى بلاءً حَسَناً يومها. وكان تحالفه مع ابنة عمه عائشة أمراً طبيعياً جداً. فهو كان من المتحمسين لمنهج أبي بكر وعمر تجاه عليّ وبني هاشم.

وأما الزبير فهو من بطن أسد بن عبد العزى من قريش. وهو يمتّ بصلة القرابة إلى الرسول(ص) من جهة الأم. فهو ابن صفية بنت عبد المطلب بن هاشم، وهو بالتالي ابن عَمّة النبي(ص) وعليّ. وكان الزبير مشهوراً بالشجاعة والفروسية.

كان لنظام الشورى الذي ابتكره عمر بن الخطاب عواقب بعيدة المدى. فهو لم يؤدّ فقط إلى النتيجة المباشرة المتمثلة باختيار عثمان خليفة عقب عمر، ولكنه أيضاً أدّى إلى أن هؤلاء الأشخاص الذين أدخلهم عمر في لجنة الشورى السداسية، أصبحوا يرون أنفسهم أنداداً كاملي النّدّية لعليّ بن ابي طالب.

ومن الطبيعي أن كلاً من الزبير وطلحة كان يشعر في قرارة نفسه أنه ليس أقل شأناً من عثمان بن عفان في معايير الاسلام. وإذا كانا كلاهما يعرفان تماماً أنهما بعيدان كثيراً عن مؤهلات عليّ الشرعية ومزاياه الفريدة، فكذلك كان عثمان ؟!

فبالنسبة لطلحة والزبير، أصبح الموضوع الآن هو الدفاع عن المبدأ الذي اعتمَدَه عمرُ وأقرّته قريش: الخلافة مناطة باتفاق كبار المهاجرين القرشيين، وما عليّ إلاّ واحدٌ منهم. وما دام الأمر كذلك فهما يريان نفسيهما أهلاً للحكم. وكان الزبير وطلحة واثقين تماما ان من يتصدى منهما للخلافة سيجد قريشاً خلفه حتماً، ما دام الخصمُ هو عليّ! فقريشٌ لا تستسيغ علياً ولا تطيقه وتعتبر ان وصوله للخلافة نوع من هيمنة بني هاشم بالنظر الى ان النبي(ص) هو ايضا

من بني هاشم. فوصول علي للخلافة هو بنظر قريش كسرٌ للتوازن الذي كان قائماً بين بطونها لصالح عائلة بذاتها -بني هاشم- وهذا ما لا يجوز.

ومن المهم هنا ملاحظة مدى التأثير الذي تركته فكرة عمر بشأن الشورى.

ففيما يتعلّق بالزبير بن العوام، تقول المصادر التاريخية انه كان من ضمن المسلمين الذين رفضوا تعيين أبي بكر خليفة وأصرّوا على أحقّية عليّ بن أبي طالب بها. وكان ممن التجؤوا إلى بيت عليّ وفاطمة ورفضوا بيعة الخليفة الجديد[1]. أي أن الزبير كان محسوباً على عليّ وآل البيت، ولم يكن يتصور نفسه غير تابع له. إلى أن جاء عمر بن الخطاب ليقول للزبير: انهض، فلستَ دون عليّ بشيء، ولكَ أن تساميه وتعلو عليه!

وسوف يقول طلحة بن عبيد الله مباشرة لعليّ إنه نقضَ بيعته وتمرّد عليه استناداً إلى قانون عمر بن الخطاب، الذي أصبح مقدساً بنظره، وسوف يحتج عليه به:

«... *كنا في الشورى ستة. فمات اثنان.*

وقد كرهناكَ. ونحن ثلاثة...»[2]

(1) فمثلاً روى البيهقي في السنن الكبرى أن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف ومحمد بن مسلمة قاموا بكسر سيف الزبير من شدة غضبه بسبب بيعة أبي بكر!

(2) الامامة والسياسة لابن قتيبة.

الفصل الثاني:
بدء التحرّك العملي ضد عليّ

ردة فعل عائشة على بيعة عليّ[1]

روى البلاذري وابن الأثير:

«إن الناس لما بايعوا علياً بالمدينة بلغ عائشة أن الناس بايعوا لطلحة. فقالت: إيه ذا الإصبع لله أنت! لقد وجدوك لها محشا.

وأقبلت جذلة مسرورة حتى إذا انتهت إلى سرف استقبلها عبيد بن مسلمة فسألته عن الخبر.

قال: قتلَ الناسُ عثمان.

قالت: نعم. ثم صنعوا ماذا ؟

قال: خيراً. حارت بهم الأمور إلى خير محار. بايعوا ابنَ عم نبيهم علياً.

فقالت: أوفعلوها؟! وددتُ أن هذه اطبقت على هذه[2] إن تمت الأمور لصاحبك الذي ذكرتَ.

فقال لها: ولِمَ؟ والله ما أرى اليوم في الأرض مثله. فلمَ تكرهين سلطانه؟

فلم ترجع إليه جواباً ورجعت إلى مكة فأتت الحجر فاستترت فيه

---

(1) مصادر هذا البحث: انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص18)، الكامل لابن الاثير (ص 406)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص180).

(2) وفي رواية تاريخ اليعقوبي أنها قالت لمن أتاها بخبر بيعة علي «والله ما كنتُ أبالي أن تقع هذه على هذه». تقصد السماء والارض.

وجعلت تقول: إنا عتبنا على عثمان في أمور سميناها له ووقفناه عليها، فتابَ منها واستغفرَ ربه فقبل المسلمون منه ولم يجدوا من ذلك بداً. فوثب عليه مَن إصبعٌ من أصابع عثمان خيرٌ منه فقتله. فقتل والله وقد ماصوه كما يُماص الثوب الرحيض، وصفوه كما يصفى القلب»[1]

وما يلفت النظر في قولها هو «أوفعلوها»، فكأن الناس ارتكبوا محرماً ببيعة عليّ ! وهي تتمنى لو أن السماء انطبقت على الأرض إن كان عليّ تولّى خلافة المسلمين.

وهذا النص يشير أيضاً إلى أن موقفها السلبي من خلافة عليّ كان منذ اليوم الأول لبيعته، ولم يكن ناتجاً عن تطورات لاحقة.

قرار عائشة

قررت أم المؤمنين أن الأمور وصلت إلى درجةٍ لا يمكن قبولها من الانحراف عن منهاج أبيها وعمر بن الخطاب، وبالتالي هي لن تسمح لعليّ بن أبي طالب بأن ينقض المبدأ الذي أرساه أبوها وعمر. فالخلافة لا تكون الاّ بإجماع المهاجرين القرشيين، ذلك هو الأساس، وهو ما لم يحصل في حالة عليّ. وقد أثبتت الانتصارات والفتوحات صواب ذلك المبدأ بنظر أم المؤمنين. وهي مستعدّة لفعل كل شيء في سبيل استرجاع النظام الذي أسسه ابو بكر وعمر، والذي يقوم عليّ بالفعل بتغييره حين قبل ان تكون بيعته تمت رغماً عن ارادة كبار المهاجرين القرشيين ودون موافقتهم. وكان المحيطون بالخليفة عليّ بن أبي طالب، الخليط المتمرّد من ابناء قبائل عربية عديدة بعيدةٍ عن قريش وتراثها، مما يزيد في تصميم عائشة على الذهاب إلى آخر الشوط في تصدّيها للوضع القائم الجديد من أجل تغييره.

---

(1) انساب الاشراف للبلاذري من طريق ابي مخنف . ومعنى كلمة محش: ما تحرك به النار من حديدة أو عود. ويقال فلان محش حرب أي موقدها. وسرف: موضع على بعد 6 أميال من مكة. ورواية الكامل لابن الاثير قريبة منها، وبها قول عائشة «ردّوني ردّوني»، ولكن فيها اضافة ربما مُقحمة على الرواية، حيث يجيبها الرجل «*ولقد كنتِ تقولين اقتلوا نعثلاً فقد كفر*»

كانت عائشة تدرك أن ما تقوم به من تمرّدٍ وانشقاق أمر غير مسبوق في الإسلام، خاصةً وانه يصدر عن امرأة. فلم يسبق في تاريخ العرب أن تزعّمت النساءُ وتصدّينَ للقيادة والريادة. فتلك شؤون الرجال ولم تكن النساء عند العرب سوى «عَيْبَةٍ» يجب صونها و«حُرْمَةٍ» يجب حفظها.

وكانت عائشة، وكل الذين شايعوها وساروا تحت لوائها، يعلمون أن بروز أم المؤمنين على مسرح الأحداث، وظهورها بشخصها في الأمصار البعيدة عن المدينة المنورة أمام المسلمين العاديين طالبةً منهم العون والنصرة، من شأنه أن يثير أقصى درجات البلبلة والصدمة والذهول لديهم. فلا شك أن عامة المسلمين سيعتبرون أن أمراً «هائلاً وفظيعاً» قد جرى، مما دفع أم المؤمنين، زوجة الرسول(ص) وحَرَمه، إلى الخروج والانغماس في الصراع. وسيكون من الصعب على عامة المسلمين أن يتركوا «ثِقَل رسول الله» دون أن يجيبوها.

فشلت عائشة في استدراج بقية أمهات المؤمنين إلى حركتها[1]

وكانت عائشة قد حاولت جرّ بقية أزواج النبي(ص) إلى حركتها المعادية للخليفة عليّ بن أبي طالب. فأرسلت إليهنّ ودعتهنّ إلى الانضمام إليها في التمرد عليه. واستجابت لها من بينهن، وكما هو متوقع، حفصة بنت عمر التي أرادت الرحيل معها[2] لولا أن أخاها عبد الله بن عمر، الذي كان مصمماً على موقفه السلبي من كل ما يجري، تدخّل ومنعها من ذلك. وأما بقية الزوجات فقد عارضنَ بشدة تمرّد عائشة، بل وأرسلنَ إليها وطالبنها بالقرار في بيتها احتراماً لرسول الله(ص) وعهده. ومن بينهنّ كانت أم سلمة الأكثر غضباً على عائشة وكتبت إليها تذكرها بالمنزلة العظيمة التي يتمتع بها علي بن أبي طالب

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج3 ص471-472)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص258)، انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص23)، الإمامة والسياسة لابن قتيبة(ج1 ص76)، كتاب الفتوح لابن اعثم (ج2 ص455-456)، المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري (ج3 ص119)، شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد (ج6 ص219) و«جمهرة رسائل العرب».

(2) تاريخ الطبري. وايضاً: البداية والنهاية لابن كثير

في الإسلام، وبأن خروجها الى البصرة خطأ لا يجوز أن يصدر عن زوجةٍ للرسول(ص)، كما وجهت أم سلمة[1] خطابها الى المسلمين كافة وقالت «*ايها الناس: آمركم بتقوى الله، وان كنتم تابعتم علياً فارضوا به، فوالله ما أعرف في زمانكم خيراً منه*»[2].

وفي الإمامة والسياسة لابن قتيبة رسالة طويلة بعثتها أم سلمة إلى عائشة لما بلغها أنها تنوي الخروج على عليّ والشخوص إلى البصرة طلبت منها فيها عدم هتك حجاب رسول الله وترك عهده. وهذا نصها:

«*وذكروا انه لما تحدث الناس بالمدينة بمسير عائشة مع طلحة والزبير، ونصبهم الحرب لعلي، وتألفهم الناس، كتبت أم سلمة الى عائشة:*

أما بعد: فإنك سدة بين رسول الله وبين أمته، وحجابك مضروبٌ على حرمته. قد جمع القرآن الكريم ذيلك فلا تندحيه[3]، وسكّن عقيرتك[4] فلا تصحريها. الله من وراء هذه الأمة، قد علم رسول الله مكانك لو أراد أن يعهد اليك. وقد علمتِ ان عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال، ولا يرأب بهن إن انصدع. حماديات[5] النساء غض الأبصار وضمّ الذيول. وما كنتِ قائلة لرسول الله (ص) لو عارضك بأطراف الجبال والفلوات، على قعود من الابل، من منهل الى منهل ؟ ان بعين الله مهواك، وعلى رسول الله(ص) تردين، وقد هتكتِ حجابه الذي ضرب الله عليك، وتركت عهيداه.

---

(1) ويلاحظ ان العلامة ابن كثير، الامويّ الهوى، تجاهل أخبار موقف ام سلمة القوي من عائشة، بل انه حاول التخفيف من حدّة انفراد عائشة عن طريق الايحاء بأن بقية امهات المؤمنين لم يكنّ معارضات لمبدأ تحركها بل لمكان مسيرها. فقال في البداية والنهاية ان بقية امهات المؤمنين الموجودات في مكة قلن انهنّ على استعداد للمسير مع عائشة الى المدينة المنورة، ولكن ليس للبصرة. واضاف انهنّ ودعنها وداعاً حاراً لدى خروجها الى العراق «*وبكين، وتباكى الناس، وكان ذلك اليوم يسمى يوم النحيب*»

(2) انساب الاشراف للبلاذري، في رواية ابي مخنف.

(3) أي لا تفتحيه ولا توسعيه بالحركة والخروج الى البصرة.

(4) عقيرتك: من عقر الدار، أي أصلها، والمعنى: سكّني نفسك التي حقها ان تلزم مكانها. ولا تصحريها: لا تبرزيها وتجعليها بالصحراء.

(5) أي غاية ما يُحمدُ منهنّ.

ولو أتيتُ الذي تريدين، ثم قيل لي ادخلي الجنة لاستحييتُ أن ألقى الله هاتكة حجاباً قد ضربه عليّ!

فاجعلي حجابك الذي قد ضرب عليك حصنك. فابغيه منزلاً لك حتى تلقيه. فإن أطوع ما تكونين إذا ما لزمته، وأنصح ما تكونين إذا ما قعدتِ فيه. ولو ذكرتكِ كلاماً قاله رسول الله(ص) لنهشتني نهش الحية. والسلام.

فكتبت اليها عائشة: ما أقبلني لوعظك، وأعلمني بنصحك! وليس مسيري على ما تظنين. ولنعم المطلع مطلعٌ فزعت فيه إليّ فئتان متناجزتان. فإن أقعد ففي غير حرج، وإن أخرج فإلى ما لا غنى بي عن الازدياد منه. والسلام»[1]

وكذلك في كتاب الفتوح لابن اعثم خبر محاولة عائشة اقناع ام سلمة بالخروج الى البصرة ورفض ام سلمة الشديد[2].

ولم تكتفِ أم سلمة بذلك بل إنها، بعد ذلك، قالت لعليّ حين كان يستعد للخروج إلى العراق *«يا أمير المؤمنين! لولا أن أعصي الله عز وجل، وإنك لا تقبله مني، لخرجت معك. وهذا ابني عمر والله لهو أعز عليّ من نفسي يخرج معك فيشهد مشاهدك»*[3]

وفي رواية ابن ابي الحديد نقلا عن هشام الكلبي ان ام سلمة كتبت الى عليّ «... *ولولا ما نهانا الله عنه من الخروج، وأمرنا به من لزوم البيت، لم أدعْ الخروج اليك والنصرة لك. ولكني باعثة نحوك ابني، عدل نفسي، عمر بن ابي سلمة فاستوصِ به يا أمير المؤمنين خيرا»*

---

(1) وشيةٌ بهذا النص ورد في «جمهرة رسائل العرب» نقلًا عن شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد وعن العقد الفريد لابن عبد ربه.

(2) ولكن تفاصيل خبر ابن اعثم تبدو متأثرة كثيراً بالمحاججة الملحية الشيعية وفيه عبارات لا يمكن تصديقها، ومنها اعتراف عائشة بصحة قول ام سلمة ان النبي(ص) قال *«علي خليفتي عليكم في حياتي ومماتي فمن عصاه فقد عصاني»* ونحو ذلك من عبارات يظهر فيها تلاعب الرواة. ورغم ذلك يبقى أصلُ الخبر صحيحاً.

(3) تاريخ الطبري. وقريبٌ من ذلك رواه الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين. وروى الخبر ايضا ابن اعثم في كتاب الفتوح ولكن باستعمال لغة أقرب الى الملحية الشيعية.

خروج طلحة والزبير من المدينة[1]

مكث الزبير وطلحة في المدينة المنورة لبضعة أشهر بعد بيعة علي بن أبي طالب. فقد أسقط في أيديهما لأن علياً قد بويع بالفعل، والتحرك العملي ضده أمرٌ صعبٌ ويحتاج إلى مالٍ ورجالٍ وحشدٍ وتخطيط، مما لم يكن متاحاً لهما على الفور. فكان لا بد من فترةٍ استكشافية للعهد الجديد وتوجهاته، لعلهما ينجحا في التفاهم مع عليّ على ترتيبٍ معين يضمن لهما نوعا من تقاسم السلطة مع الخليفة و يحافظ على وضعهما العالي في الدولة.

ولكن يبدو أن الأمور لم تكن تسير كما رغبا.

فقد بدأ يظهر ان علياً ليس مستعداً لإشراكهما معه في الحكم، بل على العكس كان ينوي في الواقع ابعادهما عن مركز القيادة وصنع القرار.

ويبدو أن الرجلين قد بذلا محاولةً أخيرةً للتفاهم مع عليّ بن أبي طالب والتوصل إلى صيغةٍ مقبولةٍ تضمن لهما استمرار وضعهما العالي والمتميز، ولكن المحاولة باءت بالفشل. فقد وردت روايات تشير إلى أن طلحة والزبير طالبا علياً بتوليتهما مناصب عالية في الدولة، ولكنه رفض. روى صاحب الامامة والسياسة :

«... فلما استبان لهما أن علياً غيرُ مولّيهما شيئا أظهرا الشكاة......فانتهى قولهما إلى عليّ .

فدعا عبدَ الله بن عباس، وكان استوزره، فقال له: بلغكَ قول هذين الرجلين؟

قال: نعم بلغني قولهما .

قال: فما ترى ؟

---

(1) مصادر هذا البحث: الإمامة والسياسة لابن قتية (ج1 ص71)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7، ص 253+ ص255)، انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص18)، نهج البلاغة بشرح محمد عبده (ج2: ص281 و ص220 و ص224)، نهج البلاغة، بشرح ابن ابي الحديد (ج9 ص291)، الاخبار الطوال للدينوري (ص144)، «جمهرة رسائل العرب»، تاريخ الطبري (ج3 ص496).

قال: أرى أنهما أحبا الولاية. فولّ البصرة الزبير، وولّ طلحة الكوفة فإنهما ليسا بأقرب إليك من الوليد وابن عامر من عثمان.

فضحك عليّ ثم قال: ويحك! إن العراقين بهما الرجال والأموال، ومتى تملكا رقاب الناس يستميلا السفيه بالطمع، ويضربا الضعيف بالبلاء، ويقويا على القوي بالسلطان.

ولو كنتُ مستعملا أحداً لضرّه ونفعه لاستعملتُ معاوية على الشام. ولولا ما ظهر لي من حرصهما على الولاية لكان لي فيهما رأي»[1]

وروى البلاذري في انساب الاشراف عن طريق الزهري *«سأل طلحة والزبير علياً أن يوليهما البصرة والكوفة. فقال: تكونان عندي فأتجمل بكما، فإني أستوحش لفراقكما»*

وانا اعتقد انه لو كان الزبير وطلحة قد طالبا فعلا بولاية البصرة والكوفة فإن ذلك لا يعدو كونه «اختبار» أو جسّ نبض لعليّ وطريقة حكمه ونظرته الى دورهما في إدارته الجديدة، وليس هدفاً بحد ذاته. فالرجلان طموحهما أعلى من ذلك حيث كانا يعتبران نفسيهما ندّين لعليّ وليس ولاة له.

وبالاضافة الى ذلك فان الزبير وطلحة قد أغضبهما قرار عليّ في أول عهده بالمساواة التامة بين المسلمين في قسمة الأموال[2]، فقال لهما:

«.. وأمّا ما ذكرتما من أمر الأسوة فانّ ذلك أمر لم أحكم أنا فيه برأيي، ولا وليته هوى منّي . بل وجدتُ أنا وأنتما ما جاء به رسول الله(ص) قد فرغ منه، فلم أحتج إليكما فيما فرغ الله من قسمه وأمضى فيه حكمه، فليس لكما والله عندي ولا لغيركما في هذا عتبى..»[3]

---

(1) الإمامة والسياسة لابن قتيبة. وحسب رواية ابن كثير في البداية والنهاية إن طلحة والزبير *«سألاه ان يؤمرهما على البصرة والكوفة. فقال لهما: بل تكونا عندي أستأنس بكما»*

(2) كان عمر بن الخطاب قد فرض تراتبيّة معينة لتوزيع العطاء بين المسلمين فضّل فيها كبار الصحابة وامهات المؤمنين على غيرهم من النّاس.

(3) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده.

ولا عجبَ من غضب الزبير وطلحة ورفضهما لقرار عليّ، ففي عهد عثمان صارا من كبار الأثرياء والرأسماليين وأصحاب المصالح.(1)

وكان فشل الرجلين في التوصل إلى تفاهم مع عليّ يقوم على أساس صيغةٍ من الحكم الجماعي وتقاسم المناصب، قد قوّى لديهما القناعة بأن القطيعة مع عليّ وحكمه ستكون نهائية. فكل ما صدر عن عليّ حتى الآن لا يسرهما. فإلى جانب رفضه منحهما أي تميز، فهما يريان أن علياً أصبح أقرب إلى «الغوغاء والأعراب» الذين داهموا المدينة، منه إلى كبار الصحابة! ولم يعد الوضع في المدينة يطاق بالنسبة إليهما، فقررا وضع عليّ أمام مسؤولياته كخليفة وطالباه بتطبق الحدود على القاتلين.

روى ابن كثير في البداية والنهاية:

«ولما استقر أمر بيعة عليّ، دخل عليه طلحة والزبير ورؤوس الصحابة رضي الله عنهم، وطلبوا منه إقامة الحدود، والأخذ بدم عثمان.

فاعتذر إليهم بأن هؤلاء لهم مددٌ وأعوان، وأنه لا يمكنه ذلك يومه هذا.

فطلب منه الزبير أن يوليه إمرة الكوفة ليأتيه بالجنود، وطلب منه طلحة أن يوليه إمرة البصرة ليأتيه منها بالجنود ليقوى بهم على شوكة هؤلاء الخوارج وجهلة الأعراب الذين كانوا معهم في قتل عثمان رضي الله عنه.

فقال لهما: مهلاً عليّ حتى أنظر في هذا الأمر».

وفي رواية نهج البلاغة ان علياً أجابَ الذين طالبوه بمعاقبة قتلة عثمان ***«،،،، فاصبروا حتى يهدأ الناسُ وتقع القلوب مواقعها، وتؤخذ الحقوق مسمحة. فاهدأوا عني وانظروا ماذا يأتيكم به أمري ،،،»***

ويبدو أن ذلك الطلب الذي تقدما به لعليّ، رغم علمهما بعدم إمكانيته من الناحية العَملية، كان بمثابة «الإعذار» لعليّ، أمام نفسيهما على الأقل، قبيل شروعهما في تنفيذ مشروعهما الانشقاقي.

---

(1) ذكرنا في الجزء الاول من هذه السلسلة (عهد عثمان بن عفان) تفاصيل ثروات كبار الصحابة ايام حكم عثمان. فليراجع من شاء.

وعندئذ طلب الزبير وطلحة من عليّ السماح لهما بالخروج إلى مكة[1] «من أجل أداء العمرة». فوافق عليّ.

لماذا سمح عليّ لطلحة والزبير بالخروج من المدينة تحت ذريعة العمرة؟ ألم يكن مدركاً للخطر؟

الجواب هو أنهما قد بايعاه بالفعل . وأن البيعة بالذات في منظومة عليّ الإسلامية هي العقد الذي يربط الخليفة بالمسلمين نهائياً. فعليّ نفسه قد تأخر ستة أشهر عن بيعة أبي بكر، ثم بايع عن غير رغبةٍ ولا اقتناع. ولكنه بعدما فعل كان ملتزماً بعهده، بكلمته وبفعله. وبالتالي لم يكن وارداً أبداً بنظره أنه يمكن لصحابيين الإخلال ببيعتهما فيتراجعان عنها وينقلبان عليه، ويُصبحا من الناكثين. كان عليّ يتوقع منهما سلوكاً على نفس الدرجة من المسؤولية. وقد عبّر عليّ مرة عن ذلك بقوله *«وبايعني طلحة والزبير، ثم نكثا بيعتي، وألبا الناس عليّ. ومن العجب انقيادهما لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما وخلافهما عَلَيّ. والله إنهما ليعلمان أني لستُ بدون رجلٍ ممن قد مضى»*[2]

وكان عليّ ولا شك يعرف شعورهما نحوه:

«... انّ هؤلاء قد تمالأوا على سخطة إمارتي... وانّما طلبوا هذه الدنيا حسَداً لمن أفاءها الله عليه فأرادوا ردّ الأمور على أدبارها ...»[3]

بل كان عليّ يعتبر طلحة من الكارهين لعثمان والمحرّضين عليه ولكنّه انقلب للمطالبة بدمه كذبا وبغياً:

«.. والله ما استعجلَ متجرداً للطلب بدم عثمان إلاّ خوفاً من أن يطالب بدمه لأنه مظنّته .. فأرادَ أن يغالط بما أجلبَ فيه ليلبسَ الأمر ويقع الشك.

---

(1) يورد صاحب «جمهرة رسائل العرب» نقلًا عن ابن ابي الحديد نص رسالتين بعثهما معاوية من الشام، واحدة للزبير والاخرى لطلحة، وفيهما حث على الخروج والتمرد على عليّ لجمع الكلمة وإنقاذ الأمة. ولكني أستبعد ان يكون تمرد الزبير وطلحة على عليّ له علاقة بمعاوية ورسائله التي أشك في صدورها عنه خاصة وان بها دعوة للقدوم الى الشام التي يقول معاوية انه أحكم الامر فيها لهما !

(2) تاريخ الطبري

(3) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده.

ووالله ما صنع في أمر عثمان واحدة من ثلاث:

لئن كان ابن عفان ظالماً -كما كان يزعم- لقد كان ينبغي له أن يوازر قاتليه وأن ينابذ ناصريه.

ولئن كان مظلوماً لقد كان ينبغي له أن يكون من المنهنهين عنه والمعذّرين فيه.

ولئن كان في شكّ من الخصلتين لقد كان ينبغي له أن يعتزله ويركد جانباً ويدع الناس معه.

فما فعل واحدة من الثلاث، وجاء بأمرٍ لم يعرف بابه، ولم تسلم معاذيره»[1]

ولا بد من القول أن علياً، كخليفةٍ عادل، لم يكن ليسمح لنفسه بأن يُحاسِبَ الناسَ على نواياهم وما أضمرت قلوبهم. فحتى لو كان متأكداً من نية الغدر لدى طلحة والزبير، فالفِعلُ لم يقعْ بعدُ وبالتالي عليه أن يقبَلَ ما يقوله الرجلان بلسانهما، إلى أن يصدر منهما خلاف ذلك.

وأصبحت مكة وكراً لمعارضي خلافة عليّ

كانت عائشة قد أصبحت قطباً جاذباً لكل هؤلاء الذين يعارضون الخليفة الجديد، وخاصة أفراد الأسرة الأموية من أمثال مروان بن الحكم، وعمال عثمان مثل عبد الله بن عامر بن كريز الذي كان والي عثمان على البصرة، ونائبه عبد الله بن عامر الحضرمي، ووالي اليمن السابق يعلي بن أمية الذي امتاز بولائه الشديد لعثمان. وهؤلاء قاموا بتمويل حركة عائشة.

ولما كان موقف أهل مكة، القرشيون، من بيعة علي بن أبي طالب، هو الرفض وبالإجماع، منذ البداية، فقد كانت مكة هي الحاضنة الطبيعية، والاختيار التلقائي لعائشة .

(1) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده.

وقد كان مجيء طلحة والزبير إلى مكة بعد بضعة أشهر من مقتل عثمان تطورا حاسماً في مسار الاحداث. لأنهما رجلان ويمكنهما قيادة الرجال والقتال. ويمكن لأحدهما أن يطرح نفسه كبديل لعليّ والترشّح للخلافة.

وهذا التحالف الثلاثي بين ام المؤمنين عائشة والصحابيّين الكبيرين طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، كان يطمح أن يوازن هيبة عليّ ونفوذه. ولكن عائشة كانت هي القلب وهي الرمز لحركة التمرد[1] على عليّ وكان لها سلطة ووزن معنوي كبير يجعلها في موقع المرجعيّة وصاحبة الكلمة الأعلى والقرار الفصل لدى التكتل المعادي لعليّ الذي تجمع في مكة.

تجهيز جيش عائشة[2]

وهكذا اكتملت العناصر الأساسية من أجل القيام بتمرّدٍ حقيقيّ وفعال ضد عليّ: فعنصر الشرعية قد وُجد بتحالف زوجةٍ للرسول(ص)، وابنةٍ للخليفة الأول أبي بكر، مع اثنين من كبار الصحابة القرشيين ممن كانا من ضمن قائمة عمر بن الخطاب للمؤهلين للحُكم. وعنصر المال والرجال سيتولاّه رجالات عثمان والقيادات الأموية القوية التي التفّت حول تحالف ام المؤمنين والصحابيّين الكبيرين وصارت تضبط إيقاع تحركاته.

روى ابن سعد أن عبد الله بن عامر بن كريز لمّا بلغه مقتل عثمان «*حَملَ ما في بيت المال، واستخلفَ على البصرة عبد الله بن عامر الحضرمي ثم شخصَ إلى مكة*». ولما قابل هناك عائشة وطلحة والزبير وهم يفكرون بالذهاب الى الشام قال لهم «*لا بل ائتوا البصرة، فإن لي بها صنائع*. وهي

(1) روى الدينوري في الاخبار الطوال ان الزبير وطلحة قالا لعائشة «*وان اهل البصرة لو قد رأوكِ لكانوا جميعا يداً واحدة معك*» في معرض دعوتها للمسير معهما الى البصرة.

(2) مصادر هذا البحث: الطبقات الكبرى لابن سعد (ج 5 ص48)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج29 ص262)، أسد الغابة لابن الأثير (ج3 ص192)و (ج5 ص128)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص 765)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص257)، كتاب الثقات لابن حبان (ج2 ص279)، انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص23)، سير اعلام النبلاء للذهبي (ج3 ص101)

أرض الأموال وبها عدد الرجال والله لو شئتُ ما خرجتُ منها حتى اضرب بعض الناس ببعض»[1]

وروى ابن عبد البر في الاستيعاب عن المدائني *«كان يعلي بن أمية على الجند، فبلغه قتل عثمان رضي الله عنه، فأقبل لينصره، فسقط عن بعيره في الطريق، فانكسرت فخذه. فقدم مكة بعد انقضاء الحج، فخرج الى المسجد، وهو كسير على سرير، واستشرف اليه الناس واجتمعوا فقال: مَنْ خرج يطلب بدم عثمان فعليّ جهازه.*

وذكر عن مسلمة، عن عوف قال: *أعان يعلي بن أمية الزبيرَ بأربع مئة ألف، وحمل سبعين رجلاً من قريش، وحملَ عائشة رضي الله عنها على جمل يقال له عسكر، كان اشتراه بمئتي دينار»*[2]

وذكر ابن كثير أن يعلي بن امية قدم الى مكة من اليمن ومعه 600 بعير و 600 ألف درهم.[3]

وروى ابن حبان في كتاب الثقات *«وقدم يعلي بن امية من اليمن وقد كان عاملا عليها بأربعمائة من الابل فدعاهم الى الحملان . فقال له الزبير: دعنا من إبلك هذه ولكن أقرضنا من هذا المال . فأعطاه ستين الف دينار وأعطى طلحة 40 الف دينار فتجهزوا»*

قال الذهبي في سير اعلام النبلاء في ترجمة يعلي بن أمية *«ولي اليمن لعثمان. وكان ممن خرج مع عائشة وطلحة والزبير نوبة الجمل في الطلب بدم عثمان الشهيد. فأنفق أموالاً جزيلة في العسكر كما ينفق الملوك . فلما هزموا هرب يعلي الى مكة»*

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد . ونفس الرواية نقلها عنه ابن عساكر في تاريخ دمشق. وأيضا ذكر ذلك ابن الأثير في أسد الغابة.

(2) وأخرج ابن الاثير في أسد الغابة نفس هذه الرواية عن المدائني. وروى البلاذري نقلا عن صالح بن كيسان *«وكان يعلي بن منية قد قدم من اليمن فحملهم على اربعمائة بعير، فيها «عسكر» جمل عائشة الذي ركبه»*.

(3) البداية والنهاية لابن كثير . واضافت الرواية ان يعلي بن امية هو الذي اشترى جمل عائشة المسمى عسكر *«بـ200 دينار، وقيل بـ 80 دينارا، وقيل غير ذلك»*

وتظهر كل الروايات التي تتناول تلك الأحداث مدى التأثير الذي كانت القيادات الأموية ورجال عهد عثمان يتمتعون به في تحديد حركة ام المؤمنين والصحابيّين الكبيرين وتوجهاتهم. فكأنّ هؤلاء يقولون لأم المؤمنين وللصحابيين الكبيرين: لا تقلقوا! فنحن سنكفيكم التخطيط والتنظيم والحشد والتحضير، وما عليكم سوى الانقياد لنا لأننا نعرف كيف نواجه الخليفة الجديد الذي تولى المنصب بعد ربع قرنٍ من العزل والتهميش، نحن نحتاجكم ونريد اسماءكم ولكن دعوا لنا العمل والفعل على الارض!

تحالفُ أم المؤمنين والصحابيّين: مبرّرات التمرّد على عليّ

قالت عائشة في معرض إجابتها لمن سألها عن أسباب قدومها إلى البصرة:

«إن الغوغاء من أهل الأمصار، ونزاع القبائل، غزوا حرم رسول الله(ص)، وأحدثوا فيه الأحداث...

مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين، بلا ترة ولا عذر

فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه، وانتهبوا المال الحرام.....

وأقاموا في دار قومٍ كانوا كارهين لمقامهم....

فخرجتُ في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم، وما فيه الناس وراءنا، وما ينبغي لهم ان يأتوا في إصلاح هذا...»

وأكد الزبير بن العوام ما قالته عائشة. وبعد أن عبّر عن ازدراءٍ شديد *«للغوغاء ونزاع القبائل ومَن ظاهرهم من الأعراب والعبيد»* أضاف سبباً جوهرياً للتمرّد:

«نُنهِضُ الناسَ فيُدرَكُ بهذا الدم لئلاً يبطل.

فإن إبطاله توهين سلطان الله بيننا أبداً.

إذا لم يُفطم الناس عن أمثالها لم يبقَ إمامٌ إلاّ قتله هذا الضرب...»[1]

إذن يمكن تلخيص الأسباب المعلنة:

بأن المدينة في أيدي غوغاء الأمصار، وبدو نهّابين وعبيدٍ آبقين. وأن النظام العام والاجتماعي مهدد.

وأن هؤلاء الناس الخارجين على المجتمع هم الذين ارتكبوا جريمة قتل خليفة المسلمين بلا وجه حق ولا مبرر شرعي، وبالتالي فإن عثمان قتل مظلوماً، فلا بد من القصاص من قتلته.

وإنّ التساهل في موضوع قتل الخليفة على يد هؤلاء من شأنه زعزعة مؤسسة الخلافة ذاتها، ويهدد مستقبلها، ويقوّض سلطان الله في الارض، وهذا ما لا يجوز.

تحالفُ أم المؤمنين والصحابيَّيْن يسيرُ إلى البصرة[2]

«فاجتمعوا عند عائشة فأداروا الرأي فقالوا: نسير إلى المدينة فنقاتل علياً.

فقال بعضهم: ليس لكم بأهل المدينة طاقة.

قالوا: فنسير إلى الشام فيه الرجال والأموال، وأهل الشام شيعة لعثمان، فنطلب بدمه ونجد على ذلك أعواناً وأنصارا ومشايعين.

فقال قائل منهم: هناك معاوية. وهو والي الشام والمطاع به. ولن تنالوا ما تريدون. وهو أولى منكم بما تحاولون لأنه ابن عم الرجل.

فقال بعضهم: نسير إلى العراق، فلطلحة بالكوفة شيعة، وللزبير بالبصرة مَن يهواه ويميل إليه.

فاجتمعوا على المسير إلى البصرة وأشار عليهم عبد الله بن عامر

(1) قول عائشة والزبير من تاريخ الطبري (ج3 ص478-479)
(2) مصادر هذا البحث: أنساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص21-22 و ص26)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص258)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج5 ص449)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص181)، مروج الذهب للمسعودي (ج2 ص280).

بلملك، وأعطاهم مالاً كثيراً قواهم به. وأعطاهم يعلي بن منية التميمي مالاً كثيرا وإبلاً.

فخرجوا في تسعمائة رجل من أهل المدينة ومكة ولحقهم الناس حتى كانوا ثلاثة آلاف رجل»[1]

وكان الموتور العجوز، العدو القديم للنبي(ص)، صفوان بن أمية من أشدّ المحرّضين ضد عليّ في مكة. وكان من المتحمسين جداً للخروج مع عائشة وصحبها إلى البصرة، إلاّ أنه توفي.[2]

وفي هذا القرار بالمسير إلى البصرة، تظهر بوضوح بصمات ربيب عثمان وقريبه وواليه على البصرة عبد الله بن عامر بن كريز. فهو الذي أقنعهم بالتوجه إلى هناك اعتماداً منه على نفوذه السابق وشبكة علاقاته في تلك المدينة. أما قصة ان لطلحة في البصرة شيعة وللزبير في الكوفة من يهواه (كما ورد في نص البلاذري اعلاه) فليست الاّ من اضافات الرواة ولا تستند الى أدلة.

ويلاحظ أيضاً أنهم لم يتوجهوا إلى الشام. فعلى الرغم من معرفة الجميع بمتانة القاعدة العثمانية في الشام، إلاّ أنهم أيضاً أدركوا أن الشام قد تحوّلت في السنوات الأخيرة إلى إقطاعيةٍ خالصة لمعاوية بن أبي سفيان. وعلى الرغم من فرحة معاوية الشديدة بأنباء تمرّد أم المؤمنين ومعها طلحة والزبير، إلاّ أنه لم يكن ليسمح بوجود مركز ثقل مهم أو قطبٍ جاذب في عقر داره وقاعدة حكمه. فمعاوية مستعدٌ للتعاون والانخراط في المشروع الانشقاقي، ولكنه لن يسمح أن يكون ذلك على حساب نفوذه أو مركزه كحاكم مطلق في إقليمه.

ورغم الاتحاد والتآلف الظاهر بين طلحة والزبير، إلاّ أنه في الحقيقة كان بينهما تنافس على الزعامة. فأكثر ما يجمعهما كانت كراهية خلافة عليّ. وكان

---

(1) أنساب الأشراف للبلاذري في رواية الزهري. وكذلك ورد في البداية والنهاية لابن كثير أنهم كانوا ثلاثة آلاف، منهم ألف فارس، وعائشة تحمل في هودج على جمل اسمه عسكر.

(2) الطبقات الكبرى لابن سعد.

ذلك يؤجل خلافاتهما الكامنة. ولو قدر لهما الظفر يوم الجمل، لربما كان الصراع بينهما قد تفجّر إلى العلن:

«*فلما حضر وقت الصلاة، تنازع طلحة والزبير، وجذب كل واحد منهما صاحبه، حتى فات وقت الصلاة. وصاح الناس: الصلاة الصلاة يا أصحاب محمد! فقالت عائشة: يصلي محمد بن طلحة يوماً وعبد الله بن الزبير يوماً. فاصطلحوا على ذلك*»[1] وفي رواية البلاذري «فتدافع طلحة والزبير الصلاة، وكانا بويعا أميرين غير خليفتين، وكان الزبير مقدماً. ثم اتفقا على ان يصلي هذا يوماً وهذا يوماً».

البصرة تشعر بما هو آتٍ[2]

وقام طلحة والزبير، بمشورة ونصح من ابن عامر، بمراسلة الزعماء القبائليين في البصرة وهم: كعب بن سور، شيخ اليمانية، والمنذر بن ربيعة زعيم ربيعة، والأحنف بن قيس زعيم مضر. وكانت كتبهم إليهم متشابهة وتتلخص في أن عثمان بن عفان قد قتل مظلوماً وفيها دعوة لهم أن «يغضبوا لعثمان».

فكتب طلحة والزبير الى كعب بن سُور «*اما بعدُ، فإنّك قاضي عمر بن الخطاب، وشيخ اهل البصرة وسيد أهل اليمن، وقد كنت غضبت لعثمان من الاذى، فأغضب له من القتل، والسلام*»

وكتبا الى المنذر بن ربيعة «*اما بعدُ، فإنّ أباك كان رئيساً في الجاهلية، وسيداً في الاسلام وإنّك من أبيك بمنزلة المصلى من السابق، يقال كادَ أو لَحِق، وقد قتل عثمان من انت خيرٌ منه، وغضب له من هو خيرٌ منك، والسلام*»

وكتبا الى الاحنف بن قيس «*اما بعد، فإنّك وافد عمر، وسيد مضر، وحليم اهل العراق، وقد بلغك مصاب عثمان، ونحن قادمون عليك، والعيان أشفى لك من الخبر، والسلام*»[3]

---

(1) تاريخ اليعقوبي، وايضا: مروج الذهب للمسعودي.
(2) مصادر هذا البحث: الامامة والسياسة لابن قتية (ج1 ص 79-80) والبداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص259)، كتاب الفتوح لابن اعثم (ج2 ص458).
(3) هذه النصوص الثلاثة من الامامة والسياسة لابن قتية

وأحدثت كتبهم تلك جدلاً داخلياً في البصرة. وكان هناك شعور بين أبناء القبائل العربية، غير القرشية، في البصرة بأنهم يُستدرجون ليصبحوا وقوداً لخلافات وصراعاتٍ قرشية داخلية، لا ناقة لهم فيها ولا جمل:

«فقالوا: مالنا ولهذا الحي من قريش؟ أيريدون أن يخرجونا من الإسلام بعد أن دخلنا فيه؟ ويدخلونا في الشرك بعدما خرجنا منه؟ قتلوا عثمان، وبايعوا علياً. لهم ما لهم وعليهم ما عليهم»[1]

وروى ابن كثير في البداية والنهاية تفاصيل جدال داخلي بين اهل البصرة حين تلقوا دعوة عائشة للنصرة وخبر قرب وصولها وجمعها لمدينتهم:

«فقام رجلٌ وعثمان (بن حنيف) على المنبر فقال: ايها الناس، إن كان هؤلاء القوم جاؤوا خائفين فقد جاؤوا من بلد يأمن فيه الطير! وإن كانوا جاؤوا يطلبون بدم عثمان فما نحن بقتلته! فأطيعوني وردّوهم من حيث جاؤوا.

فقام الاسود بن سريع السعدي فقال: انما جاؤوا يستعينون بنا على قتلة عثمان، ومنا ومن غيرنا. فحَصَبَهُ الناسُ»

وهذه الجدالات الداخلية والآراء المتعارضة تعكس حال البصرة على خير وجه: حيرةٌ وانقسامٌ وشعورٌ بالخوف مما هو قادم.

وكانت ردود الزعماء القبائليين لطلحة والزبير سلبية إزاء تحرك طلحة والزبير، فلم يعدوهم بشيء، وأظهروا عدم اقتناع بدعواهم:

رد المنذر بن ربيعة عليها *«اما بعدُ، فأنه لم يلحقني بأهل الخير إلا ان اكون خيراً من اهل الشر، وإنما اوجب حقّ عُثمان اليوم حقّهُ امس، وقد كان بين أظهركم فخذلتموه، فمتى استنبطتم هذا العلم، وبدا لكم هذا الرأي»*.

ردّ كعب بن سُور على طلحة والزبير *«اما بعد، فإنا غضبنا لعثمان من الاذى، والغير باللسان، فجاء أمر الغير فيه بالسيف، فإنّ يك عثمان قُتِلَ ظالماً فما لكما وله؟ وإنْ كان قُتِلَ مظلوماً فغيركما أولى به، وإن كان أمره أشكل على من شهده فهو على من غاب عنه أشكل»*

(1) الإمامة والسياسة لابن قتيبة

وكتب الاحنف اليهما «*اما بعدُ، فإنه لم يأتنا من قبلكم أمرٌ لا نشك فيه الا قتل عثمان، وانتم قادمون علينا، فإنّ يكن في العيان فضلٌ نظرنا فيه ونظرتم، وإلا يكن فيه فضل فليس في ايدينا ولا ايديكم ثقة، والسلام*»[1]

ورغم ذلك فقد قرر تحالفُ أم المؤمنين والصحابيّيْن المضيّ قدماً في مسيرهم إلى البصرة. فهم قدّروا أن حضورهم بأشخاصهم في البصرة سيغيّر الموقف لصالحهم، وسيضطرّ الزعماء القبائليون هناك إلى قبولهم، خاصة مع وجود «حَرَم» رسول الله بينهم.

كلابُ الحوأب[2]

وفي سياق الحديث عن مسير عائشة وجمعها الى البصرة لا بد من التطرق الى حادثة مذكورة كثيراً في كتب التاريخ وهي ما تعرف بـ(كلاب الحوأب) والتي يمكن تلخيصها كما يلي: ان النبي (ص) كان يوماً قد حذر نساءه عامة، أو عائشة خاصة، ألاّ تكون هي التي تنبح عليها كلاب الحوأب. وبقي الامر هكذا دون أن يدري أحد أين هي (الحوأب) التي تحدث عنها النبي(ص) الى أن تحققت نبوءته اثناء مسير عائشة الى البصرة: فنبحت عليها كلابٌ عند بئر ماء تبيّن أن اسمه (الحوأب) فاضطربت عائشة وصرخت لأنها عرفت أنها المعنية بتحذير النبي(ص) وصممت على الرجوع! ولكن ابن اختها عبد الله بن الزبير تدخل وأقنعها ان هذا النبع ليس هو (الحوأب) وأحضر 40 أو 50 شاهد زور من الاعراب حلفوا على ذلك، وعندها قنعت عائشة وواصلت المسير. وفيما يلي النص من أحد المصادر القديمة (انساب الاشراف للبلاذري):

---

(1) هذه النصوص الثلاثة من الامامة والسياسة لابن قتيبة . وفي كتاب الفتوح لابن اعثم تظهر لمحات من الملحمية الشيعية في ثنايا جواب الاحنف بن قيس لعائشة «*لا والله لا اقاتل علي بن ابي طالب ابدا وهو اخو رسول الله(ص) وابن عمه وزوج ابنته وابو سبطيه، وقد بايعه المهاجرون والانصار*».

(2) مصادر هذا البحث: انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص24)، صحيح ابن حبان (ج15 ص126)، تاريخ الطبري (ج3 ص475)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص181)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص258)، مسند احمد بن حنبل (ج6 ص52)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (ج3 ص120)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص 921)

«وسمعتْ عائشة في طريقها نباح كلابٍ فقالت: ما يقال لهذا الماء الذي نحن به؟

قالوا: الحوأب.

فقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون. ردّوني ردّوني. فإني سمعتُ رسول الله(ص) يقول -وعنده نساؤه- (أيتكن ينبحها كلاب الحوأب). وعزمتْ على الرجوع.

فأتاها عبد الله بن الزبير فقال: كذب من زعم ان هذا الماء الحوأب. وجاء بخمسين من بني عامر فشهدوا وحلفوا على صدق عبد الله»

وقد وجدتُ هذه القصة بألفاظها وتعبيراتها المختلفة (وفي أغلب الحالات الراوي هو شخص اسمه قيس بن ابي حازم) في المصادر التالية: صحيح ابن حبان، تاريخ الطبري، تاريخ اليعقوبي، البداية والنهاية لابن كثير، مسند احمد بن حنبل، المستدرك على الصحيحين للحاكم، الاستيعاب لابن عبد البر. ومؤكدٌ أنها موجودة لدى غيرهم لأنها مشهورة للغاية.

وانا أسوق قصة الحوأب هذه كمثالٍ على نزعةٍ موجودةٍ لدى الرواة وأصحاب الاخبار لإدخال رسول الله(ص) كطرفٍ في أحداث الفتنة الكبرى والصراع الكبير الذي حصل بين المسلمين. فالبعضُ يريد أن يستدلّ على صحة موقفه بالاستناد الى نبوءات للرسول(ص) أو أقوالٍ له يتم إسقاطها عنوة على مسار الأحداث.

فلا ينبغي النظر بجدية الى كل الأحاديث النبوية التي تتناول تفاصيل الفتنة الكبرى أو يظهر منها دعمٌ وتأييدٌ لهذا الطرف أو تلك الشخصية. فكلها وراؤها ما وراؤها.

وفي حالتنا هذه الهدف من قصة الحوأب إظهار أن عائشة كانت مخطئة في موقفها وأفعالها، والدليل أنها خسرت المعركة، وأن ذلك لأنها خالفت تحذيرات النبي(ص) وتجاهلت نبوءته!

وانا أقول ان كون عائشة مخطئة في موقفها ظاهرٌ وواضحٌ ولا يحتاج لحديث نبويّ يتم تفصيله لإثبات ذلك! ولكن ليس كل الرواة يفكرون هكذا بل ان منهم من يحب الاثارة، والنبوءات، والمعجزات،،،،، فإن لم توجد فلا بد من إيجادها!

وهذا الكلام ينطبق ايضاً على حديث (لن يفلح قومٌ ولوا أمرهم امرأة) الذي رواه -منفرداً- الصحابي أبو بكرة ونسبه الى النبي(ص)، وقد قاله في اعقاب هزيمة جيش عائشة في معركة الجمل، وسوف نأتي له لاحقاً عند الكلام عن ابي بكرة واحاديثه.

الفصل الثالث: بدءُ الصراع داخل البصرة

والي عليّ يتصدّى للقادمين من الحجاز[1]

فوجئ عثمان بن حنيف الانصاري، والي البصرة المعيّن من قِبَل عليّ، بمسير هؤلاء القوم من مكة وقدومهم عليه بهذا العدد الضخم[2]، وقرر أن يستشير رعيته في هذا الخطب الجلل وكيف يتصرفون إزاء قدوم أم المؤمنين وصحابةٍ كبار إلى البصرة في جمعٍ مقاتل. وفيما يلي سردٌ من الإمامة والسياسة لابن قتيبة:

«*قام عثمان بن حنيف عامل البصرة لعلي بن أبي طالب فقال: يا أيها الناس! إنما بايعتم الله (يد الله فوق أيديهم ومَن نكث فإنما ينكث على نفسه ومَن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما). والله لو علم عليّ أن أحداً أحق بهذا الأمر منه ما قبله. ولو بايع الناسُ غيرَه لبايع مَن بايعوا وأطاع مَن ولوا. وما به إلى أحدٍ من صحابة رسول الله حاجة و وما بأحدٍ عنه غنى. ولقد شاركهم في محاسنهم وما شاركوه في محاسنه. ولقد بايعه هذان الرجلان وما يريدان الله، فاستعجلا الفطام قبل الرضاع، والرضاع قبل الولادة، والولادة قبل الحمل، وطلبا ثواب*

---

(1) مصادر هذا البحث: الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص83-84 + 87)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص257)، البيان والتبيين للجاحظ (ج2 ص194)، تاريخ الطبري (ج3 ص 479)، وانساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص25).

(2) يختلف المؤرخون حول عدد الذين ساروا من مكة إلى البصرة وتراوحت تقديراتهم ما بين 600 إلى 3000 رجل. فمثلاً قال ابن كثير في البداية والنهاية «*وسار الناس صحبة عائشة في ألف فارس، وقيل تسعمائة فارس من اهل المدينة ومكة وتلاحق بهم آخرون فصاروا في ثلاثة آلاف*»

الله من العباد. وقد زعما أنهما بايعا مُستكرَهَين. فإن كانا استكرها قبل بيعتهما كانا رجلين من عرض قريش، لهما أن يقولا ولا يأمرا. ألا وإن الهدي ما كانت عليه العامة، والعامة على بيعة عليّ، فما ترون أيها الناس؟

فقام حكم بن جبلة العبدي فقال: نرى إن دخلا علينا قاتلناهما وإن وقفا تلقيناهما . والله ما أبالي ان أقاتلهما وحدي، وإن كنتُ أحب الحياة، وما أخشى في طريق الحق وحشة ولا غيرة ولا غشاً ولا سوء منقلب إلى بعث. وإنها لدعوة قتيلها شهيد وحيّها فائز. والتعجيل على الله قبل الأجر خيرٌ من التأخير في الدنيا. وهذه ربيعة معك»

وتظهر من هذا النص الحماسة الكبيرة التي أظهرها والي عليّ في جهوده الحثيثة لحشد الناس من خلفه لمواجهة الخطر الداهم. وكلماته تشير إلى مدى الولاء الشخصي الذي يكنّه عثمان بن حنيف لعليّ. كما يلاحظ أنه لجأ إلى التأكيد على إلزامية البيعة في عنق الزبير وطلحة سواءً حصلت طوعاً أم كرهاً. فهو يذكّر الناس بأن البيعة عهدٌ وميثاق لا يجوز نقضه.

وليست حماسة حكيم بن جبلة في تأييد والي عليّ وتأكيده الاستعداد للمواجهة أمراً مُستغرباً. فهو كان من العناصر الرئيسية في حركة التمرد على عثمان.

ولما اقترب الجمعُ القادم من الحجاز من البصرة، أرسل عثمان بن حنيف مندوبَيْه: عمران بن الحصين، صاحب رسول الله (ص)، وأبا الأسود الدؤلي إلى أم المؤمنين ليستفسرا منها عن أسباب قدومها :

«يا أم المؤمنين! ما هذا المسير؟ أمعكِ به من رسول الله عهد؟

قالت: قتل عثمان مظلوماً. غضبنا لكم من السوط والعصى، ولا نغضب لعثمان من القتل؟

فقال أبو الأسود: وما أنتِ من عصانا وسيفنا وسوطنا؟

فقالت: يا أبا الأسود بلغني أن عثمان بن حنيف يريد قتالي.

قال: نعم والله»[1]

وفي رواية الجاحظ في البيان والتبيين أن المندوبَين قالا لها «*أنتِ حبيسُ رسول الله(ص)، أمركِ أن تقرّي في بيتكِ، فجئتِ تضربين الناسَ بعضهم ببعض*» وانها ردّت بالإشارة إلى أن مخالفات عثمان لا يستحق عليها أن يستباح دمه وأنه بالتالي قتل مظلوماً. وفي معرض كلامها دَعَت على كل من عمار بن ياسر والاشتر النخعي وأخيها محمد، وذكرتهم بسوء.

وفي رواية سيف بن عمر لدى الطبري تسترسل عائشة في شرح اسباب خروجها فتقول «*ان الغوغاء من اهل الامصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله(ص) واحدثوا فيه الاحداث وآووا فيه المحدثين واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله مع ما نالوا من قتل امام المسلمين بلا ترة ولا عذر فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه وانتهبوا المال الحرام وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام ومزقوا الاعراض والجلود وأقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين غير نافعين ولا متقين لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون. فخرجتُ في المسلمين اعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا وما ينبغي لهم ان يأتوا في اصلاح هذا ...*»

عائشة تفصح عن الهدف النهائي[2]

تجاهلت عائشة موقف والي البصرة وواصلت مسيرها مع أتباعها إليها حتى دخلوها، وسط استغراب واستهجان الناس لذلك. وألقت خطبة جديدة

---

(1) الإمامة والسياسة لابن قتيبة. وفي رواية البلاذري أن ابا الاسود رجع الى عثمان بن حنيف وأنشده شعراً:

يا ابن حنيفٍ قد أُتيتَ فانفرْ ..... وطاعن القومَ وضاربْ واصبرْ

وابرزْ لهم مستلئماً وشمّرْ

فأجابه ابن حنيف: أي ورب الحرمين لأفعلنّ.

(2) مصادر هذا البحث: الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص87)، انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص25)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج7 ص93)، أسد الغابة لابن الأثير (ج1 ص55)، الأخبار الطوال للدينوري (ص144).

عامة كررت فيها ما قالته لأبي الأسود ولكنها أضافت هنا شرطاً افصح عن حقيقة موقفها:

«اصطفّ لها الناس في الطريق. يقولون: يا أم المؤمنين! ما الذي أخرجكِ من بيتك؟ فلما أكثروا عليها، تكلمت بلسان طلق، وكانت من أبلغ الناس، فحمدت الله وأثنت عليه

ثم قالت: أيها الناس: والله ما بلغ من ذنب عثمان أن يُستحل دمه. ولقد قتل مظلوماً. غضبنا لكم من السوط والعصى، ولا نغضب لعثمان من القتل؟ وإن من الرأي أن تنظروا إلى قتلة عثمان، فيقتلوا به. ثم يردّ هذا الأمر شورى، على ما جعله عمر بن الخطاب.»[1]

إذن أعلنت عائشة أن تحركها يهدف في حقيقته ليس فقط إلى «الطلب بدم عثمان» بل يتجاوز ذلك إلى ما هو أبعد: خلعُ عليّ بن أبي طالب من الخلافة، وإعادتها إلى شورى المهاجرين القرشيين يتداولونها.

واستعملت عائشة كل ما لها من وزن معنوي عند عامة المسلمين، كونها حرم رسول الله، من أجل حشد جماهير البصرة إلى جانبها. وقد تمادت في ذلك إلى حد الإلحاح الشخصي على الزعماء العشائريين الذي يصل حدّ الإحراج *«وقَعَدَ أيضاً عنهم كعب بن سور في أهل بيته، حتى أتته عائشة، في منزله، فأجابها. وقال: أكرهُ ألاّ أجيبَ أمي»*[2]

وهنا التفاصيل من رواية ابن سعد في الطبقات الكبرى:

«... ان كعب بن سور لما قدم طلحة والزبير وعائشة البصرة دخل في بيت وطيّن عليه وجعل فيه كوّة يناول منها طعامه اعتزالا للفتنة.

فقيل لعائشة ان كعب بن سور إن خرج معك لم يتخلف من الأزد أحد.

فركبت إليه فنادته وكلمته.

(1) الإمامة والسياسة لابن قتيبة. وفي رواية إبي مخنف لدى البلاذري في انساب الاشراف ان عائشة اختتمت كلامها بالقول «ويُجْعلُ الأمرُ شورى».
(2) الأخبار الطوال للدينوري

فلم يجبها.

فقالت: يا كعب! ألستُ أمك ولي عليك حق؟

فكلمها.

فقالت: انما اريد ان اصلح بين الناس...»

ونجحت في تحييد الزعيم التميمي، الأحنف بن قيس، فاعتزل القتال واتخذ موقف الحياد عندما وقعت المعركة بين عليّ وعائشة.[1]

صراعٌ، فمفاوضات، فهدنة مؤقتة[2]

وكان من الطبيعي أن والي عليّ المخلص لن يبقى ساكناً وهو يرى هؤلاء الخصوم دائبين على استقطاب الناس وإخراجهم من طاعته:

«ونادى عثمانُ بن حنيف في الناس فتسلحوا.

وأقبل طلحة والزبير وعائشة حتى دخلوا المربد مما يلي بني سليم.

وجاء أهل البصرة مع عثمان ركباناً ومشاة.

فخطب طلحة فقال: إن عثمان بن عفان كان من أهل السابقة والفضيلة من المهاجرين الأولين. وأحدث أحداثاً نقمناها عليه فبايناه ونافرناه، ثم اعتب حين استعتبناه. فعدا عليه امرؤ ابتز هذه الأمة أمرّها بغير رضا ولا مشورة فقتله. وساعده على ذلك رجالٌ غيرُ أبرار ولا أتقياء، فقتلوه بريئا تائبا مسلماً. فنحن ندعوكم إلى الطلب بدمه فإنه الخليفة المظلوم.

وتكلم الزبير بنحو من هذا الكلام.

فاختلف الناس. فقال قائلون: نطقا بالحق.

وقال آخرون: كذبا. وهما كانا أشد الناس على عثمان! وارتفعت الأصوات.

(1) أسد الغابة لابن الأثير

(2) مصادر هذا البحث: أنساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص25-26)، تاريخ خليفة بن خياط (ص137)، تاريخ الطبري (ج3 ص484)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص260).

وأتي بعائشة على جملها في هودجها فقالت: صَه صَه . فخطبت بلسان ذلق وصوت جهوري فأسكت لها الناس. فقالت: إن عثمان خليفتكم قتل مظلوماً بعد أن تاب إلى ربه وخرج من ذنبه. والله ما بلغ من فعله ما يستحل به دمه، فينبغي في الحق أن يؤخذ قتلته فيقتلوا به ويجعل الأمر شورى.

فقال قائلون: صدَقَت .

وقال آخرون: كذبَت.

حتى تضاربوا بالنعال. وتمايزوا فصاروا فرقتين: فرقة مع عائشة وأصحابها، وفرقة مع ابن حنيف.

... وتأهبوا إلى القتال فانتهوا إلى الزابوقة... فزحف إليهم عثمانُ بن حنيف فقاتلهم أشد قتال. فكثرت منهم القتلى وفشَت فيهم الجراح.

ثم إن الناس تداعوا إلى الصلح فكتبوا بينهم كتابا بالموادعة إلى قدوم عليّ:

على أن لا يعرض بعضهم لبعض في سوق ولا مشرعة

وإن لعثمان بن حنيف دار الإمارة وبيت المال والمسجد

وإن طلحة والزبير ينزلان ومَن معهما حيث شاؤوا.

ثم انصرف الناس وألقوا السلاح»[1]

وحسب رواية البلاذري هذه، فإن كتاب الصلح قد تم على أساس انتظار قدوم عليّ من المدينة.

ولا بدّ أيضاً من ملاحظة ذلك الاتهام الصريح والمباشر الذي وجهه طلحة إلى عليّ بقتل عثمان. وهذا الاتهام سيكون هو صلب دعاية معاوية بن أبي سفيان في صراعه اللاحق ضد عليّ.

(1) أنساب الأشراف للبلاذري ،في رواية طويلة لأبي مخنف. والجزء الأخير من الرواية المتعلق بكتاب الصلح أخرجه أيضاً خليفة بن خياط في تاريخه.

ولكن الطبري قد أورد نفس الرواية هذه تقريباً، مع اختلافٍ يتعلق بأساس كتاب الصلح، الذي جعله إرسال مندوبٍ من البصرة إلى المدينة ليسأل أهلها ويتأكد فيما إذا كان الزبير وطلحة قد بايعا علياً مكرهين، كما يؤكّدا، ام طائعين. وهذا نص كتاب الصلح :

«بسم الله الرحمن الرحيم.

هذا ما اصطلح عليه طلحة والزبير ومَن معهما من المؤمنين والمسلمين، وعثمان بن حنيف ومَن معه من المؤمنين والمسلمين:

أن عثمان يقيم حيث أدركه الصلح على ما في يده.

وان طلحة والزبير يقيمان حيث أدركهما الصلح على ما في أيديهما .

حتى يرجع أمين الفريقين ورسولهم، كعب بن سور من المدينة.

ولا يضار واحد من الفريقين الآخر في مسجدٍ ولا سوق ولا طريق ولا فرصة. بينهم عيبة مفتوحة حتى يرجع كعب.

فإن رَجَعَ بأن القوم أكرهوا طلحة والزبير فالأمر أمرهما، وإن شاء عثمان خرج حتى يلحق بطيته وإن شاء دخل معهما.

وإن رجع بأنهما لم يُكرها فالأمر أمر عثمان. فإن شاء طلحة والزبير أقاما على طاعة عليّ، وإن شاءا خرجا حتى يلحقا بطيتهما.

والمؤمنون أعوان الفالح منهما»[1]

وسواء كان الصلح قد تم بين الفريقين على أساس انتظار قدوم عليّ، أم على أساس انتظار معرفة الحقيقة حول بيعة الزبير وطلحة[2]، فإن ذلك لا يغيّر من مجرى الأحداث شيئاً. فالحقيقة أن ذلك الصلح كان عبارة عن هدنة مؤقتة بين الطرفين، أملتها ظروف الصدمة والمواجهة. لقد فشل كل من الطرفين في إقناع الآخر بتغيير موقفه وقناعاته سلمياً، وبالتالي كان لا بد من فسحةٍ من

(1) تاريخ الطبري (ج3 ص484)
(2) وابن كثير في البداية والنهاية يقول ان هذا كان اساس كتاب الصلح.

الوقت تتيح لكليهما التقاط الأنفاس وتجميع الصفوف تمهيداً للإنتقال إلى الخطوة التالية، وهي الحسم، لمصلحة أحدهما. فلم يكن ممكناً لذلك الصلح أن يدومَ، أو يكون حقيقياً.

وقد أورد الطبري أن ذلك الخلاف قد انتقل بدوره إلى المدينة المنورة، التي كان عليّ قد غادرها بالفعل. فعندما سأل كعب بن سور أهلها عن كيفية بيعة طلحة والزبير، أجابه بعض الناس، أسامة بن زيد بالتحديد، أنهما قد أكرها على البيعة بالفعل، مما أثار غضب غيره من الصحابة عليه، وخاصة سهل بن حنيف، فحصل اهتياجٌ، مما دفع صهيب بن سنان وأبا أيوب ومحمد بن مسلمة للتدخل وتهدئة الخواطر وحماية أسامة من الأذى.

تحالف أم المؤمنين والصحابيّين يسيطر على البصرة(1)

لم يكن بإمكان تحالف المعارضين لعليّ بن ابي طالب أن يجلسوا بهدوء وادعين في البصرة انتظاراً لقدومه من المدينة. فهم لم يدخلوا كل هذه المغامرة ويقودوا كل هذا التحرك من أجل أن ينتهي بهم المطاف إلى جدال كلاميّ ومحاجَجَة، كانوا يعرفون أنهم سيخسرونها، مع عليّ. فلو كانوا يريدون «النقاش» مع عليّ بن أبي طالب من أجل «إقناعه» برأيهم لكان بإمكانهم أن يفعلوا ذلك في المدينة، دون الحاجة إلى إعلان الانشقاق وحشد القوات.

فقرروا أن يسيروا إلى آخر الشوط، وأن يأخذوا المبادرة بأنفسهم لكسر الجمود القائم:

«فمكث عثمان بن حنيف في دار الإمارة أياماً.

ثم إن طلحة والزبير ومروان بن الحكم أتوه نصف الليل في جماعة معهم، في ليلة مظلمة سوداء مطيرة، وعثمان نائم. فقتلوا أربعين رجلا من الحَرَس.

---

(1) مصادر هذا البحث: الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص 89). البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص260)، تاريخ الطبري (ج3 ص487-488 + 491)، انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص26 -29)، الكامل لابن الاثير(ص409).

فخرج عثمان بن حنيف فشدّ عليه مروان فأسره وقتل أصحابه. فأخذه مروان فنتفَ لحيتهُ ورأسه وحاجبيه»[1]

وقال البلاذري في انساب الاشراف «*وتناظر طلحة والزبير فقال طلحة: والله لئن قدم علي البصرة ليأخذن بأعناقنا! فعزما على تبييت ابن حنيف وهو لا يشعر وواطآ أصحابهما على ذلك. حتى اذا كانت ليلة ريح وظلمة جاؤوا الى ابن حنيف وهو يصلي بالناس العشاء الآخرة فأخذوه وامروا به فوطىء وطئاً شديداً، ونتفوا لحيته وشاربيه.*»

وأثار الغدر بعثمان بن حنيف استياء الكثيرين من أهل البصرة الذين طالبوا بإطلاقه وإرجاعه إلى دار الإمارة. ولكن التحالف المعارض لعلي قال لهؤلاء، على لسان عبد الله بن الزبير «*لا نرزقكم من هذا الطعام ولا نخلي سبيل عثمان بن حنيف حتى يخلع علياً*»[2]

ولكن في النهاية قام طلحة والزبير بالافراج عن ابن حنيف. نتابع رواية البلاذري:

«*فقال لهما: ان سهلاً حيّ بالمدينة، والله لئن شاكني شوكة ليضعنّ السيف في بني ابيكما، يخاطب بذلك طلحة والزبير، فكفا عنه وحبساه*»

اذن فالسبب الذي جعل المهاجمين يوفرون دم عثمان بن حنيف هو أنهم خافوا أن يقوم أخوه، سهل بن حنيف، وهو والي عليّ في المدينة، بالانتقام من أقربائهم هناك إن هم قتلوه، فاكتفوا بتعذيبه وإهانته.

وبالفعل فإن رواية صالح بن كيسان لدى البلاذري (انساب الاشراف) تشير الى ان تهديد أخيه في المدينة كان السبب الذي أدى الى اطلاق سراح عثمان بن حنيف:

---

(1) الإمامة والسياسة لابن قتيبة. واما ابن كثير في البداية والنهاية فقد حرص على تبرئة طلحة والزبير من مسؤولية قتل الـ 40 رجلاً والاساءة الى ابن حنيف. فقد وجه التهمة الى (الرعاع) و(الناس) وقال «*ووقع من رعاع الناس من اهل البصرة كلام وضرب، فقتل منهم نحو اربعين رجلاً. ودخل الناس على عثمان بن حنيف قصره فأخرجوه الى طلحة والزبير ولم يبق في وجهه شعرة إلاّ نتفوها. فاستعظما ذلك وبعثا الى عائشة فأعلماها الخبر فأمرت أن تخلي سبيله*»

(2) تاريخ الطبري

«بلغ سهلَ بن حنيف- وهو والٍ على المدينة من قبل علي- ما كان من طلحة والزبير الى أخيه عثمان وحبسهما اياه فكتب اليهما (أعطي الله عهداً لئن ضررتموه بشيء ولم تخلوا سبيله لأبلغنّ من أقرب الناس منكما مثل الذي صنعتم وتصنعون به).

فخلوا سبيله حتى أتى عليا»

وسواء قام طلحة والزبير بالايقاع بوالي علي وهو نائم، أو وهو يصلي، وسواء أطلقوا سراحه بفعل تهديد أخيه أم لسبب آخر، وسواء نتفوا شعر لحيته وحاجبيه أم اكتفو بضربه، فذلك لا يغير من حقيقة انهما أوقعا به، وباشرا على الفور في تمكين سيطرتهما على البصرة :

«فأصبحَ طلحة والزبير وبيت المال والحرس في أيديهما»

تقول رواية ابي مخنف (انساب الاشراف):

«وبعثا عبد الله بن الزبير في جماعة الى بيت المال وعليه قوم من السبابجة[1] يكونون اربعين، ويقال اربعمائة، فامتنعوا من تسليمه دون قدوم عليّ، فقتلوهم ورئيسهم ابا سلمة الزطي، وكان عبدا صالحا»

وقال ابن كثير في البداية والنهاية انهم عينوا عبد الرحمن بن ابي بكر -شقيق عائشة- مسؤولاً عن بيت المال *«وقسم طلحة والزبير اموال بيت المال في الناس وفضلوا اهل الطاعة، وأكبّ عليهم الناس يأخذون ارزاقهم، وأخذوا الحرس، واستبدوا في الامر في البصرة»*

وأثارت هذه التطورات غضب الكثيرين، ومخاوف آخرين في البصرة. وهذا الكلام الذي قاله رجلٌ من قبيلة عبد القيس لطلحة والزبير يظهر رد فعل قطاع مهم من أهل البصرة:

«يا معشر المهاجرين: أنتم أول مَن أجاب رسول الله(ص)، فكان لكم بذلك فضل.

---

(1) قوم اصلهم من السند عملوا بالبصرة كمرتزقة.

ثم دخل الناس في الإسلام كما دخلتم.

فلما توفي رسول الله(ص) بايعتم رجلاً منكم. والله ما استأمرتمونا في شيء من ذلك، فرضينا واتبعناكم. فجعل الله عز وجل للمسلمين في إمارته بركة. ثم مات رضي الله عنه.

واستخلف عليكم رجلاً منكم. فلم تشاورونا في ذلك. فرضينا وسلمنا.

فلما توفي الأمير جعل الأمر إلى ستة نفر. فاخترتم عثمان وبايعتموه عن غير مشورة منا.

ثم أنكرتم من ذلك الرجل شيئا، فقتلتموه، عن غير مشورة منا.

ثم بايعتم علياً عن غير مشورة منا.

فما الذي نقمتم عليه فنقاتله؟ هل استأثر بفيء؟ أو عمِلَ بغير الحق؟ أو عمل شيئا تنكرونه فنكون معكم عليه؟ وإلاّ فما هذا ؟»

ومن اللافت للنظر، تكرار الرجل عبارات «عن غير مشورة منا» و«ما استأمرتمونا في شيء» التي تشير بكل وضوح إلى شعور قطاع مهم من القبائل العربية أنهم بدأوا يستخدمون وقوداً لصراعاتٍ داخل أجنحة قبيلة قريش، لا ناقة لهم فيها ولا جمل.

وطبعاً لم يُرُق كلام الرجل، وخاصة الجزء الأخير الذي أشار فيه إلى عدم وجود أي سببٍ مقنع لدى تحالف أم المؤمنين والصحابيّين للخروج على الخليفة الشرعي، للزبير وطلحة، الذين لم يريدا لهكذا تساؤلات أن تنتشر بين الناس، فكان لا بد من الحسم تجاه تلك المبادرات:

«فلما كان الغد، وثبوا عليه وعلى مَن كان معه، فقتلوا سبعين رجلاً»[1]

وكان مؤكداً أن تتجه أنظار تحالف معارضي عليّ في البصرة الى حكيم بن جبلة . فهو من المتهمين الرئيسيين بالمشاركة في قتل عثمان وهو كان من

(1) تاريخ الطبري. وطبعاً الضمير الموجود في «وثبوا» لا يعود بالضرورة على طلحة والزبير شخصياً، بل الارجح أن تكون الجموع المحيطة بهما هي التي تبادر الى البطش دون صدور أوامر مباشرة منهما بالضرورة.

أبرز محركي الثورة ضده. وقد كان يُحرّض الناسَ ضدهم في البصرة إلى درجة توجيه الشتائم المباشرة لعائشة.

والواقع ان حكيم بن جبلة لم ينتظر أن يأتوا اليه، بل كانت المبادرة منه هو بعدما علم بما جرى لابن حنيف. تقول رواية ابي مخنف لدى البلاذري (انساب الاشراف):

«*وركب حكيم بن جبلة حتى انتهى الى الزابوقة وهو في ثلاثمائة، منهم من قومه سبعون، وتألف إخوة له وهم: الاشرف والحكيم والزعل. فسار اليهم طلحة والزبير فقالا: يا حكيم ماذا تريد؟*

قال: اريد أن تخلوا عثمان بن حنيف وتقروه في دار الامارة وتسلموا اليه بيت المال، وأن ترجعا الى قدوم عليّ[1].

فأبوا ذلك واقتتلوا»

وكان طلحة قد خاطب أهل البصرة في الزابوقة وأكّد مرة أخرى على صحة وشرعية موقفهم، فقال (انساب الاشراف –رواية أبي مخنف):

«يا اهل البصرة: توبة بحوبة ! انما أردنا أن نستعتب عثمان ولم نردْ قتله، فغلب السفهاءُ الحكماءَ حتى قتلوه.

فقال ناس لطلحة: قد كانت كتبك تأتينا بغير هذا، من ذمّهِ والتحريض على قتله[2]»

---

(1) وفي رواية الكامل لابن الاثير ان حكيم خاطب ابن الزبير بقوله «*أما تخافون الله ؟ بم تستحلون الدوم الحرام؟! قال: بدم عثمان . قال: فالذي قتلتم هم قتلوا عثمان؟! اما تخافون مقت الله*»

(2) وفي رواية اخرى للزهري عند البلاذري «*لما قدم طلحة والزبير البصرة أتاهما عبد الله بن حكيم التميمي بكتب كتبها طلحة اليهم يؤلبهم فيها على عثمان، فقال له حكيم: اتعرف هذه الكتب ؟ قال: نعم. قال: فما حملك على التأليب عليه امس والطلب بدمه اليوم؟ فقال: لم أجد في أمر عثمان شيئاً إلاّ التوبة والطلب بدمه*»
ولا يمكن تصديق مثل هذه الروايات التي تتحدث عن كتب ارسلها طلحة الى الامصار يدعو فيها لقتل عثمان. فهذا غير صحيح. وهو يدخل في باب تلطيخ سمعة طلحة واظهاره كمسؤول عن مقتل عثمان.

وروايـة ابي مخنف لدى البلاذري تورد وصفاً لاستبسال حكيم بن جبلة في القتال الى أن قتل، وفيها تفاصيل ملحمية :

«فجعل حكيم يقول:

*أضربهم باليابس *** ضربَ غلامٍ عابس *** من الحياة آيس*

فضربت رجله فقطعت فحبا وأخذها ورمى بها ضاربه فصرعه وجعل يقول:

*يا نفسُ لا تراعي *** إن قطعوا كراعي *** إن معي ذراعي*

وجعل يقول ايضا:

*ليس عليّ في الممات عارٌ *** والعارُ في الحرب هو الفرارُ *** والمجدُ أن لا يُفضحَ الذمارُ*

فقتل حكيم في سبعين من قومه وقتل اخوته الثلاثة»[1]

وبعد الانتهاء من حكيم بن جبلة ومجموعته واصل تحالف ام المؤمنين والصحابيّيْن عملهم في البصرة، فاتجهوا الى تصفية الجهات التي لا زالت ملتزمة بعهدها لعليّ بن أبي طالب.

وعلى الرغم من معرفتهم بأن قتلة عثمان الحقيقيين كانوا في أغلبيتهم من الثوار الذين قدِموا من مصر، وبدرجة أقل الكوفة، إلاّ أنهم شنّوا حملة عسكرية قاسية في البصرة، بحجة القضاء على «قتلة عثمان». ورغم أنه لا شك أنه كان بينهم بعض مَن شاركوا في التمرد على عثمان، إلاّ أن الغالبية العظمى من الذين استهدفتهم حملة تحالف ام المؤمنين والصحابيّيْن كانوا من أنصار عليّ بن أبي طالب، ومن الرافضين لسلطتهم.

فتعرّض المعادون لتحالف ام المؤمنين والصحابيّيْن لما يشبه المجزرة في البصرة . ولنلاحظ الوصف القاسي (كما يجاء بالكلاب) الذي ورد في رواية تاريخ الطبري:

---

(1) وهذا الشعر الملحمي اورده ايضا ابن كثير (البداية والنهاية) في روايته على لسان حكيم.

«ونادى منادي الزبير وطلحة بالبصرة: ألا مَن كان فيهم من قبائلكم أحدٌ ممن غزا المدينة فليأتنا بهم. فجيء بهم كما يجاء بالكلاب. فقتلوا. فما أفلت منهم من أهل البصرة جميعا إلاّ حرقوص بن زهير، فإن بني سعد منعوه»[1]

وان نجاة حرقوص بن زهير من تلك المذبحة يدلّ على قوة العامل القبلي في تلك المرحلة. فهو نجا فقط لأن قبيلته القوية قررت ان تحميه وتدافع عنه، رغم انه كان من أشدّ أعداء الخليفة عثمان والمؤلبين عليه.

وأسفرت تلك المقتلة عن مصرع المئات (600 شخص حسب الطبري) من أهل البصرة، من قبائل شتى. ولكن وقعها على قبيلتي عبد القيس، وبدرجة أقل بكر بن وائل، كان كبيراً. وأدى ذلك إلى خروج معظم القبيلتين من البصرة، إنتظاراً لوصول عليّ بن أبي طالب للانضمام إليه. وكان ذلك في أواخر ربيع الآخر من سنة 36 للهجرة.

ولما استتبت لهم السيطرة بدأ التحالف بترسيخ سلطانه في البصرة، فنجحوا في استقطاب جزء مهم من القبائل العربية في البصرة. وكان عدم وجود قطب منافس لهم على الساحة البصرية، مما يسهل مهمتهم، خاصة مع وجود «حَرَم» رسول الله معهم.

تحالف ام المؤمنين والصحابيّيْن يوسّع نطاق تحرّكه[2]

ولما شعرت عائشة والزبير وطلحة أنهم نجحوا في هدفهم المرحليّ، السيطرة على البصرة، بدأوا في تحركات كشفت حقيقة مراميهم التي تتجاوز كثيرا ما كانوا يعلنونه من الطلب بدم عثمان.

فهم كتبوا رسالة إلى معاوية بالشام يخبرونه فيها بنجاحاتهم،

وأرسلوا أيضا إلى الكوفة،

وإلى اليمامة،

---

(1) تاريخ الطبري.

(2) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج3 ص488-489)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص261)، الكامل لابن الاثير(ص409).

وإلى المدينة المنورة .

وهذا النص:

«وكتبوا الى اهل الشام بما صنعوا وصاروا اليه :

انا خرجنا لوضع الحرب وإقامة كتاب الله عز وجل بإقامة حدوده في الشريف والوضيع والكثير والقليل حتى يكون الله عز وجل هو الذي يردنا عن ذلك.

فبايعنا خيارُ أهل البصرة ونجباؤهم وخالفنا شرارهم ونزاعهم. فردونا بالسلاح وقالوا فيما قالوا: نأخذ أم المؤمنين رهينة إن أمرتهم بالحق وحثتهم عليه، فأعطاهم الله عز وجل سنة المسلمين مرة بعد مرة حتى اذا لم يبق حجة ولا عذر استبسل قتلة امير المؤمنين فخرجوا الى مضاجعهم فلم يفلت منهم مخبر الا حرقوص بن زهير والله سبحانه مقيده ان شاء الله وكانوا كما وصف الله عز وجل.

وإنا نناشدكم الله في أنفسكم إلاّ نهضتم بمثل ما نهضنا به، فنلقى الله عز وجل وتلقونه وقد أعذرنا وقضينا الذي علينا»[1].

وهنا يظهر أن العمل الفعّال قد بدأ لتقويض خلافة عليّ بن أبي طالب في كل مكان. فالدعوة صريحة لبقية الامصار لكي تحذو حذوهم، فتخلع علي بن ابي طالب. وقد استغلوا انتصارهم المرحلي في البصرة لتشجيع المترددين على التحرك ضد عليّ.

وكان هناك تركيز على الكوفة من قبل عائشة . وقد اورد الطبري في تاريخه نص رسالة طويلة كتبتها عائشة الى أهل الكوفة تشرح فيها ما جرى بالبصرة من أحداث وكيف انها تعرضت للبغي والعدوان من قبل عثمان بن حنيف ومن معه الذين ارادوا قتلها و«*شهدوا علينا بالكفر وقالوا لنا المنكر*» مما اضطرها في النهاية الى القتال «*فجمع الله عز وجل لعثمان رضي الله عنه ثارهم فأقادهم فلم يفلت منهم الاّ رجل*» وتدعوهم في النهاية الى التخلي عن الثائرين على عثمان ونبذهم وعدم مناصرتهم.

---

(1) تاريخ الطبري

ولم تكتفِ عائشة بتلك الرسالة العامة بل ايضاً «*كتبت إلى رجالٍ بأسمائهم*». ومن هؤلاء زيد بن صوحان (وهو من نشطاء قبيلة عبد القيس الكبيرة):

«*كتبت عائشة الى زيد بن صوحان تدعوه الى نصرتها والقيام معها، فإن لم يجئ فليكفّ يده وليلزم منزله، أي لا يكون عليها ولا لها.*

فقال: انا في نصرتك ما دمتِ في منزلك. وأبى أن يطيعها في ذلك.

وقال: رحم الله ام المؤمنين! أمرها الله ان تلزم بيتها وأمرنا أن نقاتل، فخرجت من منزلها وأمرتنا بلزوم بيوتنا التي كانت هي احق بذلك منا»[1]

ويمكن النظر الى رسالة عائشة الى زيد بن صوحان على انها تحذير وتهديد لا دعوة وترغيب، ذلك ان زيداً، وأخاه صعصعة، كانا مشهورين بنشاطهما في صفوف الثائرين على عثمان بن عفان الى حد انهما تعرضا للعقوبة وللنفي قبل فترة ليست بعيدة. فكأن عائشة ارادت ان تقول له، ولكل انصار علي بن ابي طالب: نحن قادمون وعليكم التسليم لنا بالحسنى، وإلاّ ....

ولذلك كان جواب زيد متوقعاً تماماً.

وهكذا بدأ الصراعُ على الكوفة.

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير. وهذا النص الذي اورده ابن كثير مخفف وملطف بالقياس الى غيره من المصادر . فمثلا نجد في نص الكامل لابن الاثير ان عائشة طلبت منه أن «*يخذّل الناس من علي*» إن لم ينضم لها، وفيه ايضا ان زيدا يقول في سياق جوابه «*وإلا فأنا أول من نابذك*». وهاتان العبارتان حذفهما ابن كثير.

وإلى المدينة المنورة .

وهذا النص:

«*وكتبوا الى اهل الشام بما صنعوا وصاروا اليه :*

انا خرجنا لوضع الحرب وإقامة كتاب الله عز وجل بإقامة حدوده في الشريف والوضيع والكثير والقليل حتى يكون الله عز وجل هو الذي يردنا عن ذلك.

فبايعنا خيار أهل البصرة ونجباؤهم وخالفنا شرارهم ونزاعهم. فردونا بالسلاح وقالوا فيما قالوا: نأخذ أم المؤمنين رهينة إن أمرتهم بالحق وحثتهم عليه، فأعطاهم الله عز وجل سنة المسلمين مرة بعد مرة حتى اذا لم يبق حجة ولا عذر استبسل قتلة امير المؤمنين فخرجوا الى مضاجعهم فلم يفلت منهم مخبر الا حرقوص بن زهير والله سبحانه مقيده ان شاء الله وكانوا كما وصف الله عز وجل.

وإنا نناشدكم الله في أنفسكم إلاّ نهضتم بمثل ما نهضنا به، فنلقى الله عز وجل وتلقونه وقد أعذرنا وقضينا الذي علينا»[1].

وهنا يظهر أن العمل الفعّال قد بدأ لتقويض خلافة عليّ بن أبي طالب في كل مكان. فالدعوة صريحة لبقية الامصار لكي تحذو حذوهم، فتخلع علي بن ابي طالب. وقد استغلوا انتصارهم المرحلي في البصرة لتشجيع المترددين على التحرك ضد عليّ.

وكان هناك تركيز على الكوفة من قبل عائشة . وقد اورد الطبري في تاريخه نص رسالة طويلة كتبتها عائشة الى أهل الكوفة تشرح فيها ما جرى بالبصرة من أحداث وكيف انها تعرضت للبغي والعدوان من قبل عثمان بن حنيف ومن معه الذين ارادوا قتلها و«*شهدوا علينا بالكفر وقالوا لنا المنكر*» مما اضطرها في النهاية الى القتال «*فجمع الله عز وجل لعثمان رضي الله عنه ثارهم فأقادهم فلم يفلت منهم الاّ رجل*» وتدعوهم في النهاية الى التخلي عن الثائرين على عثمان ونبذهم وعدم مناصرتهم.

---

(1) تاريخ الطبري

ولم تكتفِ عائشة بتلك الرسالة العامة بل ايضاً «*كتبت إلى رجالٍ بأسمائهم*». ومن هؤلاء زيد بن صوحان (وهو من نشطاء قبيلة عبد القيس الكبيرة):

«*كتبت عائشة الى زيد بن صوحان تدعوه الى نصرتها والقيام معها، فإن لم يجيء فليكفّ يده وليلزم منزله، أي لا يكون عليها ولا لها.*

فقال: انا في نصرتك ما دمتِ في منزلك. وأبى أن يطيعها في ذلك.

وقال: رحم الله ام المؤمنين! أمرها الله ان تلزم بيتها وأمرنا أن نقاتل، فخرجت من منزلها وأمرتنا بلزوم بيوتنا التي كانت هي احق بذلك منا»[1]

ويمكن النظر الى رسالة عائشة الى زيد بن صوحان على انها تحذير وتهديد لا دعوة وترغيب، ذلك ان زيداً، وأخاه صعصعة، كانا مشهورين بنشاطهما في صفوف الثائرين على عثمان بن عفان الى حد انهما تعرضا للعقوبة وللنفي قبل فترة ليست بعيدة. فكأن عائشة ارادت ان تقول له، ولكل انصار علي بن ابي طالب: نحن قادمون وعليكم التسليم لنا بالحسنى، وإلاّ ....

ولذلك كان جواب زيد متوقعاً تماماً.

وهكذا بدأ الصراعُ على الكوفة.

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير. وهذا النص الذي اورده ابن كثير مخفف وملطف بالقياس الى غيره من المصادر . فمثلا نجد في نص الكامل لابن الاثير ان عائشة طلبت منه أن «*يخذّل الناس عن علي*» إن لم ينضم لها، وفيه ايضا ان زيدا يقول في سياق جوابه «*وإلا فأنا أول من نابذك*». وهاتان العبارتان حذفهما ابن كثير.

الفصل الرابع: عليّ يتحرك لمواجهة خصومه. الخلافة تغادر مدينة الرسول

عليّ يتجه إلى العراق[1]

لما وصلته أخبار تحالف عائشة وطلحة والزبير وقرارهم نقض بيعته والتمرد عليه وبدء تحركهم العملي في استنفار الناس ضده، قرر عليّ أن ذلك مما لا يمكن السكوت عنه. فعَزَمَ عليّ أن يسير بنفسه إلى تحالف المتمردين ليواجههم بشخصه في مكة. لم تكن الأمور حتى تلك اللحظة قد اتخذت منحىً حربياً بعد، وعليّ كان لا يزال يتصرف على أساس قدرته على ضبط الأمر سلماً عن طريق إقامة الحجة على خصومه. فهو قدّر أنه بوجوده بشخصه، وجهاً لوجه، أمام طلحة والزبير من شأنه أن يحبط تحركهما في مهده لأنهما، وهما صحابيان كبيران، لن يستطيعا إنكار بيعتهما العلنية لعليّ وسوف لن يتمكنا من الاستمرار في مشروعهما الانشقاقي لأنهما سيؤثران في النهاية مصلحة أمة الإسلام ولو كان ذلك على حساب مشاعرهما الذاتية.

تجهز عليّ وجمعَ أهله وخاصته وسار إلى مكة. وخرج معه بضع مئاتٍ من أنصاره من أهل المدينة.

وكان خروج عليّ من المدينة حدثاً تاريخياً. فهو يمثل انتقال مركز الخلافة الاسلامية منها . فلم تعد المدينة هي العاصمة ولن تعود مرة أخرى.

---

(1) مصادر هذا البحث: الكامل في التاريخ لابن الاثير (ص410-411)، الاخبار الطوال للدينوري (ص143)، تاريخ ابن خلدون (ج2 ص158)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص261)، مروج الذهب للمسعودي (ج2 ص280).

وقد شعر اهل المدينة بجسامة الامر الذي يحصل. ولم يكن هيناً عليهم رؤية خليفة المسلمين وهو يغادرهم. وربما كان لديهم تخوّف على مستقبل مدينتهم بغياب الخليفة. والمدينة المنورة لها رمزية كبيرة في الاسلام، والخلفاء الثلاثة السابقون بقوا متمسكين بها كعاصمةٍ لهم رغم اتساع امبراطورية الاسلام في زمانهم وافتتاح بلادٍ أكبر وأهم من ناحية سياسية واستراتيجية. تمسك الخلفاء الثلاثة بالمدينة ولم يغادروها الاّ في رحلاتٍ قصيرة ومحددة.

وذلك يفسر التثاقل الذي واجهه عليّ حين انتدب اهل المدينة للخروج معه[1].

وحاول بعض الانصار أن يوازنوا بين تأييدهم لعليّ وبين رغبتهم في بقائه بينهم، فحاولوا اقناعه بجميل الكلام. قال الدينوري في الاخبار الطوال «*اجتمع اشراف الانصار فأقبلوا حتى دخلوا على عليّ. فتكلم عقبة بن عامر، وكان بدرياً، فقال: يا امير المؤمنين ان الذي يفوتك من الصلاة في مسجد رسول الله(ص) والسعي بين قبره ومنبره أعظم مما ترجو من العراق . فإن كنت انما تسير لحرب الشام فقد أقام عمرُ فينا وكفاه سعدٌ زحف القادسية، وأبو موسى زحف الاهواز. وليس من هؤلاء رجلٌ إلاّ ومثله معك. والرجال أشباه والايامُ دول.*

فقال عليّ: ان الاموال والرجال بالعراق، ولأهل الشام وثبة أحب أن أكون قريباً منها .

ونادى في الناس بالمسير فخرج وخرج معه الناس»[2]

وتذكر بعض المصادر ان الصحابي عبد الله بن سلام قد حذر علياً من الخروج من المدينة وتنبّأ بما سيحدث ! قال ابن الاثير «*فلقيه عبد الله بن*

(1) الكامل في التاريخ لابن الاثير.
(2) الاخبار الطوال للدينوري. وسياق الرواية يتكلم عن الاستعداد للتوجه الى البصرة، أي بعد أن خرج علي بالفعل من المدينة ووصل الربذة. ولكن الرواية مفيدة في توضيح موقف قسم مهم من الانصار.

سلام فأخذ بعنانه وقال: يا أمير المؤمنين لا تخرج منها فوالله إن خرجت منها لا يعود اليها سلطان المسلمين ابداً.

فسبّوه فقال: دعوا الرجل، من اصحاب محمد(ص)»[1]

ولكن الأنصار سرعان ما تخلوا عن هواجسهم واستجابوا لعليّ على بتأثير من بعض كبارهم. قال ابن الاثير :

«فلما رأى زياد بن حنظلة تثاقل الناس انتدب الى علي وقال له: من تثاقل عنك فإنا نخفّ معك فنقاتل دونك!

وقام رجلان صالحان من أعلام الانصار، أحدهما ابو الهيثم بن التيهان، وهو بدريّ، والثاني خزيمة بن ثابت[2]*،، فأجابه الى نصرته».* بل ان بعض الانصار أظهروا مواقف حماسية في تأييدهم لعلي. يتابع ابن الاثير *«وقال ابو قتادة الانصاري لعليّ: يا أمير المؤمنين ان رسول الله(ص) قلدني هذا السيف، وقد أغمدته زماناً وقد حان تجريده على هؤلاء القوم الظالمين الذي لا يألون الأمة غشا»*

ولكن أخبار التطورات المتلاحقة بلغت علياً لما وصل إلى الربذة. فعائشة والزبير وطلحة غادروا مكة باتجاه البصرة، ومعهم كل رموز عهد عثمان من أقربائه الأمويين وولاته السابقين وزعماء بطون قريش.

تغيرت خطط عليّ عندها، فلم يتابع المسير إلى مكة، وعسكرَ في الربذة وأخذ يدرس الاحتمالات الممكنة. كان قرار ام المؤمنين والصحابيّين بالمسير إلى العراق خطيراً جداً بنظره. فليس هناك من تفسير الآن سوى أن هؤلاء قد قرروا القطيعة النهائية مع الخليفة. وتحركهم ذاك يوضح تماماً سعيهم إلى

(1) الكامل في التاريخ لابن الاثير. وروى مثل هذه الرواية ابن خلدون في تاريخه وابن كثير في البداية والنهاية. ويلاحظ وجود الكثير من الروايات عن عبد الله بن سلام فيها تنبؤات صحيحة جداً عن أحداث مستقبلية، حتى بشأن أحداث مقتل الخليفة عثمان. وربما يكون السبب هو الخلفية التوراتية والتلمودية الكبيرة لعبد الله بن سلام، فهو كان من أحبار اليهود قبل أن يسلم.

(2) يذكر ابن الاثير في الكامل قولين متعارضين عن خزيمة: انه هو ذو الشهادتين، وانه ليس ذا الشهادتين!

امتلاك قوةٍ ماديةٍ حقيقية تمكنهم من تحدي سلطانه عملياً والخروج من دائرة الشرعية، شرعية الصحبة والسبق في الإسلام، إلى دائرة الصراع السياسي المبني على موازين القوى، قوى الجيوش والرجال والأموال.

قرر عليٌ اللحاق بهم إلى البصرة. وبدأ مسيره الطويل إلى العراق.

ولكنه قبل ذلك كان لا بد له أن يوضح حقيقة نواياه لأتباعه ومؤيديه. وقد كان حريصاً جداً على إظهار رغبته في اصلاح الأمور سلماً لا حرباً وتأكيده انه لن يدخر جهداً في تجنب القتال . وهذا ظاهر في رواية الكامل لابن الاثير:

«فلما اراد المسير من الربذة الى البصرة قام اليه ابنٌ لرفاعة بن رافع فقال: يا أمير المؤمنين أي شيء تريد وأين تذهب بنا؟

فقال: أما الذي نريد وننوي فلاصلاح إن قبلوا منا وأجابونا اليه.

قال: فإن لم يجيبونا اليه؟

قال: ندعهم بعذرهم ونعطيهم الحق ونصبر.

قال: فإن لم يرضوا؟

قال: ندعهم ما تركونا.

قال: فإن لم يتركونا؟

قال: امتنعنا منهم.

قال: فنعم اذن

وقام الحجاج بن غزية الانصاري فقال: لأرضينك بالفعل كما أرضيتني بالقول»

سار عليٌ إلى البصرة بشكل بطيء جداً واتخذ مساراً متعرجاً. فمن الربذة إلى الثعلبية فالأساد إلى أن وصل ذي قار. ويبدو أن علياً كان يسير إلى البصرة واضعاً الكوفة نصب عينيه. كان بإمكانه أن يسير إلى البصرة بشكلٍ أسرع ومباشر، ولكنه آثر ذلك البطء ربما من أجل التأكد من كسب الكوفة إلى جانبه. وكان طوال مسيره منخرطاً في مراسلاتٍ مكثفة مع الكوفة وأهلها. وهو

وإن كان لم يتجه إلى الكوفة مباشرة إلاّ أنه اقترب منها كثيراً واستقر بذي قار التي لا تبعد عنها إلاّ قليلاً[1].

وبلغت أخبار ما جرى في البصرة علياً وهو في مسيره إلى العراق. وكانت تلك الأخبار بالغة الخطورة والأهمية بالنسبة له. فسيطرة خصومه على البصرة والإطاحة بعامله عليها، تعني أنه أصبح لهؤلاء قاعدة يمكنهم الارتكاز إليها في أية مواجهة محتملة مع علي. ففي البصرة أعدادٌ كبيرة من الرجال، وكمّ مهمّ من الأموال والعتاد.

وهكذا فإن علياً يرى أن الأمور قد خرجت عن نطاق المقارعة بالحجة والبرهان، والبيان والإقناع، واتخذت منحى تصاعدياً ينذر بشرّ مستطير. فالآن تملك عائشة والزبير وطلحة قوة مادية حقيقية تضعهم في موقع يتيح لهم تحدي سلطان عليّ بالفعل، بالقوة المادية، وليس فقط اعتماداً على ثقلهم في الموازين الشرعية والإسلامية. لا شك أن علياً كان يدرك أنه حتى لو وصل البصرة الآن، وأقام الحجة على خصومه، ووضّح موقفه من مقتل عثمان بكل جلاء، فإن ذلك لن يكون كافياً لإرغام خصومه على العودة إلى سلطانه وبيعته. فماذا سيفعل عليّ إن أصرّ خصومه على موقفهم، ومعهم ما يكفي من القوة لتحدّيه؟ وماذا سيفعل إن وضعوا شروطا تعجيزية؟

كان لا بد لعليّ من امتلاك قوة تسانده وتقوّي موقفه تجاه خصومه. قوة كبيرة مؤثّرة، يمكنه استعمالها إذا لزم الأمر.

كان الذين خرجوا مع عليّ من الحجاز بضع مئات، أغلبهم من الأنصار من أهل المدينة[2]. وهم بالتالي لا يشكلون قوة عسكرية يُعتدّ بها، ولن يكونوا أبداً ندّا للقوات العربية المستوطنة في البصرة، الضخمة، والمتأقلمة تماماً مع أوضاع القتال والغزو من خلال تاريخها الحافل مع الفرس.

---

(1) ذي قار هي مدينة الناصرية الحالية في العراق. وهي تقع في منتصف المسافة تقريبا بين البصرة والكوفة: تبعد حوالي 200 كم شمال غرب البصرة وحوالي 250 كم الى الجنوب الشرقي من الكوفة.

(2) وقد انضم اليه أثناء مسيره الطويل مئات آخرون من القبائل العربية، وخصوصاً طيء التي يقول المسعودي ان 600 من ابنائها لحقوا بركب عليّ حين كان بالربذة.

ولذلك كلّه كان لا بدّ لعليّ أن يكسب تأييد الكوفة. فبما أن البصرة سقطت تحت سيطرة الزبير وطلحة، وبما أن الشام تحت إمرة معاوية، وبما أن مصر واليمن بعيدان عن مسرح الأحداث، وبما أن الحجاز ليس بمقدورها أن تشكّل قوة عسكرية فاعلة، لم تبقَ غير الكوفة أمام عليّ لكي يوجّه أنظاره إليها. كان لزاماً على عليّ أن يكسب الكوفة إلى جانبه. وكانت عواقب الفشل في استمالة الكوفة وخيمة جداً على مستقبل خلافته.

والكوفة هي عاصمة العراق الحقيقية. وفيها كان التجمع العربي الضخم الذي كان صاحب الباع الأكبر في تحطيم امبراطورية فارس. وللدلالة على مدى أهمية الكوفة داخل الإطار الإسلامي آنذاك يكفي الإشارة إلى ما خاطب به عمر بن الخطاب أهل الكوفة مرة «*أنتم رأس العرب وجمجمتها، وسهمي الذي أرمي به إن أتاني شيء من ههنا وههنا...*»

وكان نجاح عليّ في استقطاب الكوفة أمراً منطقياً ومتوقعاً. فقد كانت الكوفة مصدر القلاقل المهمة التي هزّت حكم عثمان بن عفان، ومنبعاً لأفكار ومشاعر الرفض للهيمنة الأموية خاصة، والقرشية عامة. ولم ينجح ولاة عثمان، الوليد وسعيد، في إدارتهم لشؤون الكوفة، ولكنهم نجحوا في زرع بذور التمرّد ضد الحكم الأموي، عن طريق سياسة الاستعلاء القرشي، البارز والبيّن، التي طبّقت، وخاصة على يد سعيد، تجاه عموم أهل الكوفة.

وعلى هذا الأساس نظر الكثيرون إلى عليّ كنقيض لقريش وسياستها. فعلى الرغم من كون عليّ، من حيث النسب، من صميم قبيلة قريش، إلاّ أنّ انتماءه إلى البيت النبويّ وعلاقته القريبة جدا مع النبي(ص) تجعله مؤهلاً، بشكل فريد، لكي ينال إجماعاً من عامة المسلمين، خاصة إذا ما أضيف إلى ذلك جهاده العظيم مع النبي(ص) وخصاله الشخصية وما عرف عنه من العدل والزهد. وكان مما يجعله مرشحاً مفضلا للكوفة هو إجماع قريش على معاداته.

وبالإضافة إلى العامل القبليّ، ونفور غالبية أهل الكوفة من قبيلة قريش وممثليها، كان هناك العامل الديني. فقد كانت الكوفة تضم تجمعات

ذات صبغة دينية صرفة، أفرادها متدينون مخلصون متمسكون بكتاب الله وأحكام الدين، وهم الذين عرفوا بـ«القرّاء» نظراً إلى اشتهارهم بقراءة القرآن وتلاوته وحفظه. وهؤلاء كانوا أصلاً من تلاميذ «المعلمين» البارزين، عبد الله بن مسعود وأبي موسى الأشعري. وكان ابن مسعود بالتحديد مختصًا بالعلوم القرآنية، وكان يفتخر بمدى علمه بأسباب نزول الآيات وتأويلها، وكان له مصحفه المشهور، قبل أن يقوم عثمان بحرقه. وكان يعقد حلقات لتعليم القرآن للراغبين من أهل الكوفة، الذين كان الكثيرون منهم توّاقين إلى تعلّم «كلام الله» على يد صحابيّ من السبّاقين إلى الإيمان، كابن مسعود.

كانت تلك الأوساط هي التي نمَت وكبرت لتصبح ذات ثقل نوعيّ في الكوفة. كانوا أشخاصاً متعلّقين بالروح الدينية التي جاء بها النبي(ص)، وبصفاء العقيدة والضمير الإسلامي. وكان القرآن الذي بين أيديهم هو بنظرهم المقدّس والإلهي، والطريق إلى الله.

وبنظر هؤلاء، كان السلوك غير الأخلاقي، أو بعبارة أخرى غير الملتزم بتعاليم الدين، الذي أظهره ولاة عثمان، وخاصة الوليد بن عقبة، كمثل شرب الخمر والخلاعة، أو الاستهتار بشأن الصلاة، يُعتبر من الجرائم التي لا تغتفر. وهذا النوع من السلوك الشائن أثار لدى أوساط القراء تساؤلات جدّية حول مدى شرعية عثمان نفسه. ولم يكن سلوك عثمان يساعد هؤلاء القراء في إقناع أنفسهم أن هناك فارقاً بين الخليفة وبين ولاته الفاسقين. فعثمان يدعم ولاته بقوة، ولا يلجأ لمحاسبتهم إلاّ مضطراً، وبعد شكاوى عديدة، ومماطلة.

كان شخص علي بن أبي طالب يناسب أوساط القراء تماماً، خاصة مع ما عُرف عنه من زهدٍ حقيقي وورعٍ وتقوى. فهو بنظرهم نقيض عثمان وولاته وعشيرته.

فالكوفة، باختصار، كانت تتوق إلى التغيير وتسعى إليه. وكانت الأرضية في الكوفة مهيّأة لتقبّل عليّ واحتضانه.

وبدأ علي، وهو في طريقه من الحجاز إلى العراق، بإرسال مندوبيه إلى الكوفة، لكي يدرسوا أوضاعها، ولحثّ أهلها على نصرة الخليفة في مواجهته لخصومه الذين تمردوا عليه.

مشكلة غير متوقعة لعليّ: أبو موسى الأشعري[1]

ولكنّ علياً اصطدم، على غير توقع، بعقبة كأداء. مشكلة حقيقية، وهي موقف أبي موسى الأشعري في الكوفة . فقد كان أبو موسى هو الوالي الذي فرضته الكوفة على عثمان كبديل لسعيد بن العاص الذي خلعته.

وكان عليٌّ قد أقرّه على ولاية الكوفة لمّا بويع كما سبق وذكرنا. وقد برّر ذلك القرار فيما بعد بقوله :

«... *والله ما كان عندي بمؤتمن ولا ناصح. ولقد أردتُ عزله فأتاني الأشتر فسألني أن أقرّه، وذكر أن أهل الكوفة به راضون. فأقررته*»[2]

وكان أبو موسى يحظى باحترام واسع في أوساط الكوفيين، ويتمتع بنفوذ معنوي مهم. وبحكم كونه يمانياً، فقد كان مقرباً من القبائل اليمانية القوية والكبيرة في الكوفة، وكان يُنظر له بشكل أو بآخر على أنه يمثل مصالح الجانب القحطاني[3] من أمة العرب. ويمكن تلخيص أسباب وضعية أبي موسى المميزة في الكوفة على النحو التالي: فهو صحابيّ حقيقي وله احتكاك مع النبي(ص)، وهو ليس قرشياً، وله ماضٍ جيد في حركة الفتوحات أثناء ولايته على البصرة ايام عمر، وأخيراً خصاله الشخصية والعلم الذي كان ينشره بين الناس.

---

(1) مصادر هذا البحث: الأخبار الطوال للدينوري (ص 145)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج14 ص10)، تاريخ الطبري (ج3 ص500)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (ج3 ص117)، تاريخ ابن خلدون (ج2 ص159)، انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص29-31) ، نهج البلاغة بشرح محمد عبده (ج3 ص389).

(2) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد

(3) وهناك رواية تقول أن علياً، في أعقاب صفين، حين سمّى عبد الله بن عباس كممثل عنه في مؤتمر التحكيم في مواجهة عمرو بن العاص، احتجّ عليه البعض وأصرّوا على اختيار أبي موسى لأنه «*لا يحكم فينا مُضَريان*».

وفي مواجهة دعوات عليّ لأهل الكوفة بالنصرة والتأييد، كان أبو موسى يقول للناس[1]:

«يا أهل الكوفة: أطيعوني تكونوا جرثومة من جراثيم العرب، يأوي إليكم المظلوم ويأمن فيكم الخائف.

أيها الناس: إن الفتنة إذا أقبلت شبهت وإذا أدبرت تبينت، وإن هذه الفتنة الباقرة لا يدرى من أين تأتي ولا من أين تؤتى.

شيموا سيوفكم وانزعوا أسنة رماحكم، واقطعوا أوتار قِسِيّكم. والزموا قعور البيوت.

أيها الناس: إن النائم في الفتنة خيرٌ من القائم. والقائم خيرٌ من الساعي»

لم يكن هناك شيء أسوأ يمكن أن يحدث في الكوفة، بالنسبة لعليّ، من شيوع هكذا أفكار بين أهلها. فما طرَحَه أبو موسى كان ببساطة دعوة للكوفة وأهلها باتخاذ موقف السلبيّة التامة تجاه ما يجري من أحداث متسارعة في العالم العربي - الإسلاميّ. كان طرح أبي موسى، لو قدّر له أن ينفّذ، نداءً إلى الكوفة بأن تنأى بنفسها وتنعزل عن جسد الأمة. كان طرحه غير واقعيّ ولا سياسيّ على الإطلاق. فمن الناحية الموضوعية البحتة، لم يكن ممكناً لمَصْر مركزيّ في عالم العرب، بحجم وأهمية الكوفة، أن يبقى خارج سياق الأحداث. فما كان يتبلور له تأثيرٌ مباشر على «امبراطورية» العرب كلها، بشتّى أقطارها. وليست الكوفة بلدة صغيرة في ناحية نائية في العراق حتى يمكن أن يتجاهلها عليّ، أو غير عليّ ممن انخرط في الصراع على الحكم والخلافة، ولم تكن الكوفة نفسها لتسمح بأن يتمّ تجاهلها. فما كان ينادي به أبو موسى -اللاموقف- كان هو المستحيل بعينه.

وقد عبّر رجلٌ من أهل الكوفة، اسمه عبد خير الخيواني، عن ذلك خيرَ تعبير في معرض جدالٍ له مع أبي موسى: «*يا أبا موسى: هل كان هذان الرجلان، يعني طلحة والزبير، ممن بايع علياً؟*

(1) النص من الأخبار الطوال للدينوري

قال: نعم.

قال: هل أحدث حَدَثاً يحل به نقض بيعته؟

قال: لا أدري!

قال: لا دريتَ! فإنا تاركوك حتى تدري. يا أبا موسى: هل تعلم أحداً خارجاً من هذه الفتنة التي تزعم إنما هي فتنة؟ إنما بقي أربع قرون: عليّ بظهر الكوفة، وطلحة والزبير بالبصرة، ومعاوية بالشام، وفرقة أخرى بالحجاز لا يُجبى بها فيء ولا يقاتل بها عدو»[1]

واللافت للنظر حقاً، هو الشراسة التي دافع بها أبو موسى عن أفكاره ودعوته. كان أبو موسى يقاتل بالفعل في سبيل ثني الكوفيين عن التجاوب مع طلب النصرة من عليّ. وإذا كان من المفهوم وجود تيار «اعتزال الفتنة» بين قطاعات من الصحابة والمتدينين، فإن أبا موسى كان مختلفاً عن غيره من «المعتزلين». فهؤلاء كانوا سلبيين في كل شيء . لم يشاركوا في الصراع ولم يتدخلوا في مجريات الأحداث، واكتفوا بالجلوس في بيوتهم (سعد بن أبي وقاص، مثلا)، على الحياد. ولكنّ أبا موسى لم يرغب في الجلوس ببيته، بل أظهر إصراراً غريباً على تحدّي طلب الخليفة، وقام بمجهودٍ هائل في أوساط الكوفيين لإقناعهم برفض دعوة عليّ. كان أبو موسى يناظر ويجادل ويتصرف كمن يؤدي مهمة مقدسة. ومهمته هي منع الناس من الانجرار وراء دعوات «الفتنة».

ويذكر المؤرخون أن علياً اضطر الى ارسال عدة بعثات الى الكوفة من أجل الحصول على تأييدها وأن مبعوثي علي توجّب عليهم خوض صراع حقيقي مع ابي موسى الذي كان مصراً على إفشالهم. وتختلف الروايات في ذكر اسماء الذين أرسلهم علي وتفاصيل مواجهاتهم مع ابي موسى.

وقد ذكر العلامة ابن خلدون في تاريخه خلاصة الروايات اعتمادا على كتاب ابن جرير الطبري الذي يثق بمصداقيته *«لسلامته من الاهواء الموجودة*

---

(1) تاريخ الطبري

في *كتب ابن قتيبة وغيره من المؤرخين*»، فقال أن عليا أرسل ثلاثة وفود الى ابي موسى في الكوفة:

أولها يتكون من محمد بن ابي بكر ومحمد بن جعفر[1] «*فبلغا الى الكوفة ودفعا الى ابي موسى كتاب علي، وقاما في الناس بأمره، فلم يجبهما أحد. وشاورا أبا موسى في الخروج الى علي فقال: الخروج سبيل الدنيا والقعود سبيل الآخرة! فقعدوا كلهم.*

فغضب محمد ومحمد واغلظا لأبي موسى.

فقال لهما: والله ان بيعة عثمان لفي عنقي وعنق علي وان كان لا بد من القتال فحتى نفرغ من قتلة عثمان[2]»

اذن وصلت الامور بين ابي موسى وأول وفدٍ ارسله عليّ الى حد تبادل السباب[3] (أغلظا لأبي موسى).

فقرر علي ان يحاول مرة أخرى مع ابي موسى. يتابع ابن خلدون:

«*فرجعا الى عليّ بالخبر وهو بذي قار، فرجع باللائمة على الاشتر وقال: أنت صاحبنا في ابي موسى. فاذهبْ أنت وابن العباس وأصلحْ ما أفسدتَ.*

فقدما على ابي موسى وكلما استعانا عليه بالناس لم يجبْ الى شيء ولم يرَ الا القعود حتى تنجلي الفتنة ويلتئم الناس.

فرجع ابن عباس والاشتر[4] *الى علي*»

---

(1) الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين يقول ان المحمدين كانا: محمد بن الحنفية (ابنه) ومحمد بن ابي بكر.

(2) وانا استبعد ان يكون ابو موسى قد قال «*حتى نفرغ من قتلة عثمان*» وأظنها مزيدة على لسانه.

(3) يقول البلاذري في انساب الاشراف عن طريق ابي مخنف ان أول من بعثه عليّ لأبي موسى كان هاشم بن عتبة بن ابي وقاص وان الاشعري توعده بالحبس.

(4) الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين يقول انهما كانا: الحسن بن علي(ابنه) والاشتر. واما البلاذري في انساب الاشراف فيقول انهما كانا ابن عباس وعمار بن ياسر. وفي رواية أخرى للبلاذري عن ابي مخنف انهما كانا ابن عباس ومحمد بن ابي بكر.

اذن فشل الوفد الثاني المكوّن من مالك الاشتر وعبد الله ابن عباس في مهمته. وهذا يدل فعلاً على شراسة ابي موسى لأن الاشتر كان صاحب نفوذٍ كبير في الكوفة.

وأثار ذلك كله غضب عليّ الشديد، مما دفعه إلى إرسال كتابٍ قاسٍ شديد اللهجة إلى أبي موسى، هدّده فيه، وخيّره بين العزل أو التعاون:

«أما بعد: فقد بلغني عنك قولٌ هو لك وعليك.

فإذا قدِم رسولي عليكَ فارفع ذيلكَ، واشدُد مئزركَ، واخرج من حجركَ، واندبْ مَن معكَ.

فإن حققتَ فانفذ، وإن تفشلتَ فابعد.

وأيم الله لتؤتينّ حيث أنتَ، ولا تترك حتى يخاطَ زبدكَ بخاثركَ، وذائبكَ بجامدكَ، وحتى تعجل عن قِعدتكَ، وتحذر مِن أمامكَ كحذركَ مِن خلفكَ.....

فاعقِل عقلكَ، واملك أمركَ وخذ نصيبكَ وحظكَ .

فإن كرهتَ فتنحّ إلى غير رحبٍ، ولا في نجاةٍ .

فبالحريّ لتكفينّ وأنت نائم حتى لا يقال أين فلان.

والله إنه لحقّ مع مُحِقٍّ، وما نبالي ما صنعَ الملحدون. والسلام»[1]

رواية ملطفة من صحيح البخاري:

روى البخاري في صحيحه[2] عن عبد الله بن زياد الاسدي:

---

(1) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده. وهناك مصادر أخرى تذكر نصوصاً فيها كلمات جارحة استخدمها الامام علي في مخاطبة ابي موسى، ومنها انساب الاشراف للبلاذري وفيها قوله له «*يا ابن الحائك*». بل ان المحمودي، وهو احد محققي كتاب انساب الاشراف، اعتبر ان «يا ابن الحائك» مخففة من طرف البلاذري الذي قصد بها مراعاة سمعة ابي موسى، ومن ثم أخرج نصاً نسبه الى شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد وبه عبارات بالغة الفحش ولا تليق ابداً بمقام الامام علي وأدبه، من قبيل «*يا عاضّ ايْرَ أبيه* ...». وانا أستبعد تماماً صدور عبارات السب هذه من الامام علي -مهما كان غضبه- وأعتبرها من تقولات الرواة.

(2) كتاب الفتن (ج9 ص70)

«لما سار طلحة والزبير وعائشة الى البصرة بعث عليّ عمار بن ياسر وحسنَ بن علي، فقدما علينا الكوفة فصعدا المنبرَ، فكان الحسن بن علي فوق المنبر في أعلاه وقام عمار أسفل من الحسن. فاجتمعنا اليه فسمعتُ عماراً يقول: ان عائشة قد سارت الى البصرة، ووالله انها لزوجة نبيكم (ص) في الدنيا والآخرة، ولكنّ الله تبارك وتعالى ابتلاكم ليعلم إياه تطيعون أم هي»

وأنا أظن ان الرواة قد زادوا على لسان عمار كلمة «والآخرة» في ذكره لحقيقة ان عائشة كانت زوجة النبي(ص). فهذه الزيادة تعني إقرار عمار ان عائشة مضمونة لها الجنة، وذلك بعيد جداً بالنظر الى مواقف عمار وحماسه في محاربة كل خصوم علي. فلو كان عمار مقراً بالفعل أن عائشة هي زوجة النبي (ص) في الجنة لكان من المتوقع أن يكون أصابه نوع من التشكك والتردد في مواقفه. وهذا بالقطع لم يحصل.

ويلاحظ ان البخاري -كدأبه دائماً- يتجنب قدر الامكان الحديث عن الخلافات بين الصحابة ويحاول إظهار حالة من الوئام بينهم. وهنا هو لم يتكلم عن الصراع بين ابي موسى ومندوبي عليّ، ولم يذكر رسائل عليّ له. بل هو أخرج هذه الرواية فقط لأن فيها «زوجة نبيكم في الدنيا والآخرة» على لسان عمار.

أفكار أبي موسى: خلفيات موقفه في الكوفة

من المفيد التساؤل: لماذا جاء أبو موسى بهذه الأفكار، ومن أي مصدرٍ نبعت؟

بالتأمل في تفاصيل الروايات التي أوردها ابن أبي الحديد وغيره حول جدالات أبي موسى مع مندوبي عليّ وأهل الكوفة، يمكن الاستنتاج أن أبا موسى كانت تحركه اربعة أفكار رئيسية :

استنكار مقتل الخليفة عثمان من حيث المبدأ، ورفض التمرد على شرعية مؤسسة الخلافة ذاتها. قال أبو موسى لمحمد بن جعفر ومحمد بن أبي بكر:

«...والله إن بيعة عثمان لفي عنق عليّ وعنقي وأعناقكما. ولو أردنا قتالاً ما كنا لنبدأ بأحدٍ قبل قتلة عثمان»

استنكار مبدأ الاقتتال الداخلي بين المسلمين مهما كانت الأسباب. فهو قال لأهل الكوفة:

«الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد، فجمعنا بعد الفرقة، وجعلنا إخوة متحابين بعد العداوة، وحَرّم علينا دماءنا و أموالنا.... إن علياً إنما يستنفركم لقتال أمكم عائشة وطلحة والزبير حواري رسول الله ومَن معهم من المسلمين»

بالإضافة إلى الأحاديث النبوية الكثيرة التي رواها بشأن تحريم الفتنة.

اعتبار الصراع المندلع على الحُكم بين عليّ من جهة والزبير وطلحة من جهة أخرى، مشكلة داخلية قرشية، ينبغي حلها سلماً بين أطراف الصراع دون جرّ بقية المسلمين إلى مهاوي الردى:

«.... وخلّوا قريشاً ترتق فتقها، وترأب صدعها. فإن فعلت فلأنفسها ما فعلت، وإن أبت فعلى أنفسها ما جَنت، سَمنُها في أديمها»[1]

ضرورة حصول الخليفة الجديد على إجماع الامة، وخصوصا كبار الصحابة، على طريقة عمر بن الخطاب. قال أبو موسى لأهل الكوفة:

«... (ايها الناس انكم قد سلمتم من الفتنة الى يومكم فتخلفوا عنها وأقيموا الى ان يكون الناس جماعة فتدخلوا فيها)[2]*.»*

تطوّرٌ حاسم: عليّ يكسبُ الكوفة[3]

وقرر عليّ أخيراً أن يرمي أبا موسى بأقوى ما عنده: حفيد رسول الله

---

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج14 ص15). وقريبٌ من ذلك ورد في تاريخ ابن خلدون (ج2 ص159)

(2) انساب الأشراف للبلاذري(ج3 ص29).

(3) مصادر هذا البحث: تاريخ ابن خلدون (ج2 ص159)، المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري (ج3 ص117)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج32 ص92)، كتاب الفتوح لابن اعثم (ج2 ص460 -461)، الأخبار الطوال للدينوري (ص 145)، تاريخ الطبري (ج3 ص512 و ص502)، انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص29 - 33)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج14 ص12) و (ج2 ص188).

(ص) وصحابيّ عريق من الطبقة الاولى في الاسلام، بما لهما من ثقل معنويّ كبير. يقول ابن خلدون «*فأرسل عليٌّ ابنه الحسن وعمارَ بن ياسر...*»[1]

وعندها أخيراً نجح في استقطاب الكوفة، بعد أن اقتنع أهلها بتجاهل ابي موسى وموقفه السلبي.

ويذكر ابن خلدون ان ابا موسى عندما بدأ برواية حديثه المشهور عن النبي حول الفتنة التي يكون فيها القاعد خير من القائم والقائم خير من الماشي ...الخ ثار غضب عمار بن ياسر وانفجر بوجهه فسبّه.

ولكن عمار بن ياسر لم يكتفِ بسب ابي موسى بل انه قام بالرد المُفحم على أساس دعوة ابي موسى وما كان يذيعه بين اهل الكوفة: حديث اجتناب الفتنة.

وقد روى ابن عساكر في تاريخ دمشق كيف تصدّى عمار بن ياسر بكل همّة لأبي موسى حين كان ينشر بين الناس حديثه المشهور حول الفتنة. وحسب الرواية فإن أبا موسى قد بُهت وعجز عن الرد على عمار، وهو الصحابيّ الأعرق والأعظم قدراً، الذي أكّد أن كلام النبي(ص) بشأن الفتنة كان موجهاً الى أبي موسى خصوصاً وإخباراً له بأن جلوسه هو في الفتنة التي قد تقع بين المسلمين خيرٌ له ولهم من نشاطه في تلك الفتنة :

فمن طريق ابي يعلي ان عماراً قال له «*يا أبا موسى أنشدك الله! ألم تسمع رسول الله (ص) يقول من كذب عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار. وأنا سائلك عن حديث فإن صدقتَ وإلاّ بعثتُ عليك من أصحاب رسول الله(ص) من يقررك به. أنشدكَ الله! أليسَ إنما عناك رسول الله(ص) أنتَ نفسك فقال: انها ستكون فتنة بين أمتي أنت يا أبا موسى فيها نائماً خيرٌ منك قاعداً وقاعداً خيرٌ منك قائماً وقائماً خير منك ماشياً. فخصّكَ رسول الله(ص) ولم يعمّ الناس.*

(1) وايضاً ذكر ذلك الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين في رواية عن الشعبي.

فخرج أبو موسى ولم يرد عليه شيئاً»

وهكذا فإن عماراً قد نجح في دحر الدعاية الشيطية المغرضة التي كان يبثها أبو موسى في غير صالح عليّ، عن طريق توضيح حقيقة ذلك الحديث النبوي أمام الناس.

وفي رواية ابن اعثم في كتاب الفتوح ان عماراً قال لأبي موسى «*ان عائشة أُمِرتْ بأمر وأُمِرنا بغيره: أُمِرتْ أن تقرّ في بيتها، وأُمِرنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة، فأمّرتنا هي بما أُمِرتْ وركبتْ ما أُمِرنا به*»

روى الدينوري المزيد من التفاصيل عما دار بين الحسن وعمار من جهة وابي موسى من جهة أخرى:

«*فساروا حتى دخلوا الكوفة، وأبو موسى يومئذ بالكوفة، وهو جالسٌ في المسجد، والناس محتوشوه......*

فانتهى الحسن بن علي وعمار رضي الله عنهما إلى المسجد الأعظم وقد اجتمع عالم من الناس على أبي موسى......

فقال له الحسن: أخرجْ عن مسجدنا وامضِ حيث شئتَ!

ثم صعد الحسن المنبر، وعمار صعد معه، فاستنفرا الناس.

فقام حجر بن عدي[1] *الكندي، وكان من أفاضل أهل الكوفة، فقال: انفروا خفافاً وثقالاً رحمكم الله.*

فأجابه الناس من كل وجه: سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين. نحن خارجون على اليسر والعسر والشدة والرخاء. فلما أصبحوا من الغد خرجوا مستعدين.

فأحصاهم الحسن فكانوا تسعة آلاف وستمائة وخمسين رجلا. فوافوا علياً بذي قار»[2]

---

(1) ابن اعثم في كتاب الفتوح يذكر ان الذين كان لهم دور في حث الناس على الاستجابة لدعوة علي كانا زيد بن صوحان العبدي و الهيثم بن مجمع العامري.

(2) الأخبار الطوال للدينوري . وذكر الطبري في تاريخه أن عدد اللذين استجابوا لنداء عليّ وخرجوا إليه من الكوفة حتى وافوه بذي قار بلغ اثني عشر ألفاً مقسمين إلى

وقد أورد ابن أبي الحديد تفاصيل الخطبة المؤثرة التي ألقاها الحسن بن عليّ في جموع أهل الكوفة، والتي أسفرت اخيراً عن إقناعهم بنبذ أبي موسى والاستجابة لنداء عليّ:

«... أيها الناس: إنا جئنا ندعوكم إلى الله وإلى كتابه وسنة رسوله، وإلى أفقه مَن تفقه من المسلمين، وأعدل من تعدلون، وأفضل مَن تفضلون، وأوفى مَن تبايعون. مَن لم يعبه القرآن ولم تجهله السنة ولم تقعد به السابقة. إلى مَن قربه الله تعالى إلى رسوله قرابتين: قرابة الدين وقرابة الرحم. إلى مَن سبق الناسَ إلى كل مأثرة. إلى مَن كفى الله به رسوله والناس متخاذلون. فقرب منه وهم متباعدون. وصلى معه وهم مشركون. وقاتل معه وهم منهزمون. وبارز معه وهم مُحجمون. وصدقه وهم يكذبون. إلى مَن لم ترد له رواية ولا تكفأ له سابقة.

وهو يسألكم النصر ويدعوكم إلى الحق ويأمركم بالمسير إليه، لتوازروه وتنصروه على قوم نكثوا بيعته، وقتلوا أهل الصلاح من أصحابه، ومثلوا بعماله وانتهبوا بيت ماله.

فاشخصوا إليه رحمكم الله»[1]

وفي رواية اخرى ان الحسن قال عن طلحة والزبير ومَن معهم «*ثم نكثَ منهم ناكثون بلا حَدَثٍ أحدثه ولا خلافٍ أتاه، حسَداً له وبغياً عليه*»

وفي رواية ابن أعثم في كتاب الفتوح ان الحسن قال «*أجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما قد بلينا به. فوالله اني لأعلم ان من سمع بهذا الامر ولم يكن إلاّ مع الحق انه لسعيد*»

وتتفق جميع المصادر أن الذي عينه عليّ والياً على الكوفة بديلاً لأبي موسى كان قرظة بن كعب الانصاريّ[2].

أسباع. وروى البلاذري في انساب الاشراف من طريق صالح بن كيسان ان عددهم كان «عشرة آلاف أو نحوهم». والبلاذري في رواية ابي مخنف يورد تفاصيل «الاسباع» أي التقسيمات العسكرية للقوات والمبنية على أساس القبائل ويذكر اسماء القيادات. ويقول ابن اعثم في كتاب الفتوح ان عددهم كان 9200 رجلاً.

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.

(2) منها مثلاً: الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين وانساب الاشراف للبلاذري وتاريخ الطبري. وقال الطبري ان علياً أرسل كتاباً إلى أبي موسى يهدده فيه بالعواقب الوخيمة إن هو تحدى أمرَ العزل واستمرّ في تثبيط الناس عن الإمام

واستقبل عليّ وهو بذي قار القوات القادمة من الكوفة بسرورٍ بالغ. وألقى فيهم خطبة امتدحهم فيها لتاريخهم الجهادي المشرف، ثم حرص على توضيح هدفه وأسباب تحركه لهم، وأكد أن الحرب ضد إخوانهم البصريين ليست هدفه، وأنه سيحرص على دخول المتمردين في طاعته سلماً:

«يا أهل الكوفة! أنتم وليتم شوكة العجم وملوكهم، وفَضَضتم جموعَهم حتى صارت إليكم مواريثهم، فأغنيتم حوزتكم، وأعنتم الناس على عدوهم.

وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة. فإن يرجعوا فذاك ما نريد. وإن يلجّوا داويناهم بالرفق وباينّاهم حتى يبدأونا بظلم. ولن ندعَ أمراً فيه صلاحٌ إلاّ آثرناه على ما فيه الفساد»[1]

وحسب رواية ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة نقلاً عن ابي مخنف ان علياً قال *«مرحباً بأهل الكوفة، بيوتات العرب ووجوهها، وأهل الفضل وفرسانها، وأشد العرب مودّة لرسول الله صلى الله عليه ولأهل بيته، ولذلك بعثت اليكم واستصرختكم عند نقض طلحة والزبير بيعتي عن غير جور مني ولا حدث ...»*

ويقول ابن اعثم في كتاب الفتوح ان عدد القوات التي اجتمعت بإمرة عليّ في ذي قار وسارت باتجاه البصرة وصل الى تسعة عشر الفاً، بمن فيهم الذين جاؤوا من الكوفة بالاضافة الى من كان مع علي من اهل الحجاز ومصر «ثم صار الناس يتلاحقون به من كل أوب».

(1) تاريخ الطبري . وروى ابن اعثم في كتاب الفتوح هذه الخطبة بنفس هذه الكلمات تقريباً.

الفصل الخامس: معركة الجمل في البصرة

قبل القتال: حيرة البصرة المأساوية[1]

وصل علي بقواته إلى طرف البصرة في منطقة الزاوية، وكان أعداؤه قد تمركزوا في منطقة الفرضة.

وقد وجد عليّ لدى وصوله قبيلتين كبيرتين من أهل البصرة في انتظاره بلهفةٍ وشوق: عبد القيس وبكر بن وائل، وهما اللتان كانتا قد عارضتا سيطرة خصومه على البصرة وخسرتا جزءً من أبنائهما في المقتلة التي نفذها اعداء عليّ ضد «*قتلة عثمان*».

وأحدث وصول الخليفة بقواته اضطراباً إضافياً لأهل البصرة، المضطربين أصلاً من جراء كل هؤلاء القادمين الجُدد الذين نقلوا إلى مدينتهم كل عواقب الأحداث الجسام التي حدثت في المدينة قبل بضعة أشهرٍ. كان البصريون يرون أن الأمور قد سارت نحو الهاوية وأن الوضع قد غدا الآن على شفير الانهيار التام.

وعليّ قد أتاهم على رأس جيشٍ من إخوانهم من أهل الكوفة. وفي مدينتهم توجد بالفعل زوجة الرسول(ص) واثنان من كبار صحابته. وأسقط في يد أهل البصرة، فغدوا عاجزين عن اتخاذ موقف موحّدٍ مما يجري.

(1) مصادر هذا البحث: انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص33-34). تاريخ الطبري (ج3 ص 513-516).

وانقسمت قبائل البصرة.

فقسمٌ منها، وبالأخص قبيلة ربيعة الكبيرة بفرعيها عبد القيس وبكر بن وائل، انحازت بالكامل إلى جبهة عليّ وانضمت لجيشه. يقول البلاذري من طريق ابي مخنف انه لما وصل عليّ بقواته قادما من الكوفة «خرج اليه شيعته من اهل البصرة من ربيعة، وهم ثلاثة آلاف. على بكر بن وائل شقيق بن ثور السدوسي وعلى عبد القيس عمرو بن مرحوم العبدي»

وقسمٌ آخر، وبالأخص الأزد، انحازت بالكامل إلى معسكر ام المؤمنين والصحابيّيْن وأصرّت على حماية «حَرَم رسول الله» مهما كلّف الأمر. قال البلاذري من طريق ابي مخنف ايضا «وبايعهم الأزد ورئيسها صبرة بن شيمان الحداني. فقال له كعب بن سور بن بكر: أطعني واعتزل بقومك وراء هذه النطفة ودعْ هذين الغارين من مضر وربيعة يقتتلان. فأبى وقال: أتأمرني أن اعتزل أم المؤمنين وأدعُ الطلب بدم عثمان؟! لا أفعل»

وقسمٌ ثالثٌ من القبائل، وخاصة تميم، انقسمت صفوفها ما بين مؤيدٍ لعليّ ومؤيدٍ لعائشة وما بين داعٍ لاعتزال الفريقين.

ويروي الطبري تفاصيل نقاش بين عليّ بن أبي طالب والزعيم التميمي الأحنف بن قيس أخبره فيه الأحنف أنه، هو شخصياً مع أبنائه وعائلته، مستعدٌّ للانضمام إليه فوراً ولكنه غير قادرٍ على إقناع كل قبيلته على الانضمام معه، ولذلك هو يطلب السماح من عليّ عن عدم القتال معه في مقابل وعدٍ منه بأن يقوم بإقناع قومه بالابتعاد عن معسكر ام المؤمنين والصحابيّيْن، أو حسب تعبيره «*إن شئتَ أتيتكَ وإن شئتَ كففتُ عنك أربعة آلاف سيف*»[1]. ولما وافق عليّ على طلبه، قام الأحنف بالفعل بالطلب من قبيلته الاعتزال وعدم القتال مع عائشة. وأورد الطبري أيضا تفاصيل حوارٍ بين الأحنف وبين زعيمٍ آخر من تميم، هلال بن وكيع، أصرّ خلاله الأخير على القتال مع «أم المؤمنين». وفي نهاية المطاف فإن قبيلة تميم الكبيرة انحاز جزءٌ كبير منها، بنو سعد بالأخص، إلى رأي الأحنف واعتزلوا الفريقين وخرجوا إلى منطقة وادي السباع، وانحاز

(1) وفي راوية البلاذري عن ابي مخنف: «*ستة آلاف سيف - أو قال أربعة آلاف سيف*»

جزءٌ آخر منها، وبالأخص بنو حنظلة، إلى رأي هلال بن وكيع فقاتلوا مع عائشة.

كان الوضع معقداً، والقرار صعباً. فوجود زوجة النبي(ص) بينهم ودعوتها لهم له رمزيةٌ كبيرة. فكيف يستطيع الرجلُ العربي، المسلمُ، أن يتخلى عن «شرَف» رسول الله، الذي تمثله حَرَمُه التي أتت من بلادٍ بعيدةٍ لتستجير بهم وتستنهضهم؟ وقد أورد الطبري جوابَ زعماء بني عدي على دعوة عمران بن الحصين لهم بالاعتزال وترك معسكر عائشة *«فرفعَ شيوخُ الحيّ رؤوسَهم إليه فقالوا: إنا لا ندَع ثِقَلَ رسول الله(ص) لشيءٍ أبداً»*[1]

محاولات اللحظات الأخيرة[2]

وقبيل بدء القتال، بذل عليّ محاولة أخيرة مع طلحة والزبير، على أمل أن يصحو ضميرهما، فيتراجعان في اللحظة الأخيرة. فأرسل عبد الله بن عباس وأوصاه أن يركّز جهده على التفاهم مع الزبير، لأنه كان يرى أن معدن الزبير أفضل من غيره من أهل التجمّع المعارض، لصلة القرابة، وكان يأمل أن يردّه ضميره الى الحق . ولأنه كان يعتبر طلحة متغطرساً متكبراً، وذلك جليّ في قوله لابن عباس:

«لا تلقينّ طلحة! فإنك إن تلقه تجده كالثور عاقصاً قرنه، يركب الصعبَ ويقول هو الذلول! ولكن الْقَ الزبيرَ فإنه ألينَ عريكة، فقل له يقول لك ابن خالك: عرفتني بالحجاز وأنكرتني بالعراق! فما عدا مما بدا»[3]

وكتب عليّ محاولاً اقناع طلحة والزبير بالرجوع إلى الطاعة:

---

(1) تاريخ الطبري.وفي راوية البلاذري عن ابي مخنف: *«أتأمرنا أن نقعد عن ثقل رسول الله(ص) وحرمته؟! لا نفعل»*

(2) مصادر هذا البحث: نهج البلاغة، بشرح محمد عبده، (ج1 ص62) و (ج3 ص383) و(ج2 ص183و ص293 و ص222)، انساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص35-36 و ص49)، تاريخ الطبري (ج3 ص514)، الامامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص90 و ص91-95)، كتاب الفتوح لابن اعثم (ج2 ص465-468)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص 260)و اسد الغابة لابن الاثير (ج3 ص61).

(3) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده.

«فارجعا أيها الشيخان عن رأيكما، فانّ الآن أعظم أمركما العار، من قبل أن يجتمع العار والنار. والسلام»[1]

«ويقول لطلحة والزبير: خبأتما نساءكما وأبرزتما زوجة رسول الله(ص) واستفززتماها ؟!»[2]

وأيضاً:

«.... لقد أعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالاً!

إن كنتما أعددتما عند الله عذراً فاتقيا الله سبحانه، ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوةٍ أنكاثا...»[3]

وكتب إلى عائشة:

«أما بعد: فإنكِ خرجتِ غاضبة لله ولرسوله، تطلبين أمراً كان عنكِ موضوعاً. ما بالُ النساء والحرب والإصلاح بين الناس؟

تطالبين بدم عثمان؟ ولعمري لمَن عرَّضكِ للبلاء، وحملكِ على المعصية، أعظم إليكِ ذنباً من قتلة عثمان.

وما غضبتِ حتى أغضبتِ، وما هِجتِ حتى هيّجتِ.

فاتقِ الله وارجعي إلى بيتكِ»[4]

وفي رواية اخرى[5] انه كتب لها *«فاتقي الله الذي اليه مرجعك ومعادك وتوبي اليه فإنه يقبل التوبة عن عباده. ولا يحملنك قرابة طلحة وحب عبد الله بن الزبير على الاعمال التي تسعى بك الى النار»*

وهذه المراسلات والمحاولات من قبل عليّ تنسجم تماماً مع عادة عليّ

---

(1) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده.

(2) في راوية البلاذري عن ابي مخنف . وفي رواية أخرى للبلاذري يقول علي لطلحة *«خبّأتَ عرسك في خدرها وجئت بعرس رسول الله(ص) تقاتل بها»*

(3) تاريخ الطبري .

(4) الامامة والسياسة لابن قتيبة. وفي راوية البلاذري عن ابي مخنف: *«ان الله أمرك أن تقري في بيتك، فاتقِ الله وارجعي»*

(5) كتاب الفتوح لابن اعثم.

ودأبه في كل حروبه. فهو كان دائماً حريصاً على إعطاء خصومه فرصة للتراجع السلمي، أو بحسب التعبير القديم «الإعذار إليهم».

وفي الحقيقة فإن علياً لم يكن يعرض شيئاً على خصومه سوى الدخول في الطاعة. وهذا المنهج الثابت سيبقى أهم ما يميز علياً في صراعه الأكبر ضد معاوية. فعليّ لم يكن رجل مساومات. فهو كان يرى أن الحق معه، وبالتالي لا يجوز له أن يداهن في الحق عن طريق تقديم تنازلات لمن هم على ضلالة.

وجاءه الجواب النهائي من طلحة والزبير :

«.... أما أنتَ فلستَ راضياً دون دخولنا في طاعتك. ولسنا بداخلين فيها أبدا. فاقضِ ما أنتَ قاضٍ»

وقال له طلحة:

«.... فاعتزل هذا الأمرَ، ونجعله شورى بين المسلمين....»

وكتبت له عائشة :

«جلّ الأمرُ عن العتاب. والسلام»[1]

فلما يئس عليّ تماماً من إمكانية إقناع طلحة والزبير بالتراجع، دعا عليهما:

«... اللهم انهما قطعاني وظلماني، فاحللْ ما عقدا ولا تحكم لهما ما أبرما وأرهما المساءة فيما أمّلا وعمِلا..»[2]

«ثم رفع يده الى السماء وهو يقول: اللهم! ان طلحة بن عبيد الله أعطاني صفقة بيمينه طائعاً ثم نكث بيعه. اللهم فعاجله ولا تميطه.

اللهم! ان الزبير بن العوام قطع قرابتي ونكث عهدي وظاهر عدوّي ونصب الحرب لي وهو يعلم انه ظالم، فاكفنيه كيف شئتَ وأنّى شئتَ»[3]

---

(1) الامامة والسياسة لابن قتيبة . وكذلك: كتاب الفتوح لابن اعثم .
(2) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده.
(3) كتاب الفتوح لابن اعثم.

ويبدأ عليّ بالشحن النفسي لقواته وأنصاره :

فهو أولاً وصف الفسادَ الذي أحدثه أصحاب الجمل في الأرض:

«فقدموا على عمالي وخزّان بيت مال المسلمين الذي في يدي، وعلى أهل مَصرٍ كلهم في طاعتي وعلى بيعتي، فشتّتوا كلمتهم، وأفسدوا عليّ جماعتهم . ووثبوا على شيعتي فقتلوا طائفة منهم غدراً، وطائفة عضّوا على أسيافهم فضاربوا بها حتى لقوا الله صادقين»[1]

ومن ثم استنكر عليّ بشدّة قيام طلحة والزبير باستغلال زوجة الرسول(ص) لأغراضهما السياسية ولتفريق المسلين وإحداث الفتنة:

«.. فخرجوا يجرّون حُرمة رسول الله(ص) كما تجرّ الأمة عند شرائها، متوجّهين بها الى البصرة. فحَبَسا نساءهما في بيوتهما، وأبرزا حبيسَ رسول الله(ص) لهما ولغيرهما في جيش ما منهم رجلٌ الاّ وقد أعطاني الطّاعة وسمح لي بالبيعة طائعاً غير مكرَه.

فقدموا على عاملي بها وخزّان بيت مال المسلمين وغيرهم من أهلها. فقتلوا طائفة صبراً، وطائفة غدرا...»[2]

وأعاد التأكيد لقواته على شرعية وأخلاقية موقفه فخطب قائلاً:

«... والله ما أنكروا عليّ شيئاً منكراً، ولا استأثرتُ بمالٍ، ولا مِلتُ بهوىً.

وإنهم ليطلبون حقاً تركوه، ودماً سفكوه، ولقد ولوه دوني، وإن كنتُ شريكهم في الإنكار لما أنكروه، وما تبعة عثمان إلاّ عندهم.

وانهم لهم الفئة الباغية: بايعوني ونكثوا بيعتي وما استأنوا بي حتى يعرفوا جوري من عدلي.

وإني لراضٍ بحجة الله عليهم، وعلمه فيهم.

(1) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده.
(2) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده.

وإني مع هذا لداعيهم ومعذرٌ إليهم فإن قبلوا فالتوبة مقبولة والحق أولى ما انصرف إليه.

وإن أبوا أعطيتهم حد السيف وكفى به شافياً من باطلٍ وناصراً

والله ان طلحة والزبير وعائشة ليعلمون اني على الحق وأنهم مبطلون»[1]

وأعطى علي توصياته لقواته وطلب منهم الالتزام بأخلاقيات القتال . قال البلاذري نقلاً عن ابي مخنف :

« وأمر عليّ أصحابه ألاّ يقاتلوا حتى يُبدأوا، وأن لا يُجهزوا على جريح، ولا يمثلوا، ولا يدخلوا داراً بغير اذن، ولا يشتموا أحداً، ولا يهيّجوا امرأة، ولا يأخذوا الاّ ما في عسكرهم»

التشكيل العسكري والتوزيع القبائلي[2]:

قال البلاذري في انساب الاشراف ان قيادة قوات علي كانت على النحو التالي:

على الميمنة: مالك الاشتر

على الميسرة: عمار بن ياسر[3]

على الرجال: ابو قتادة النعمان بن ربعي الانصاري[4]

وأعطى رايته لابنه محمد (بن الخنفية)

---

(1) رواية ابن عبد البر في الاستيعاب نقلًا عن صالح بن كيسان، وعبد الملك بن نوفل، والشعبي، وابن ابي ليلى ،بمعنى واحد. وروى ابن الاثير في أسد الغابة مثلها ولكن مع حذف كلمتي «انهم الفئة الباغية» و«*والله ان طلحة والزبير وعائشة ليعلمون اني على الحق وانهم مبطلون*».

(2) مصادر هذا البحث: انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص32-35)، الاخبار الطوال للدينوري (ص146-147) و مروج الذهب للمسعودي (ج2 ص288).

(3) وانا أظن ان الامام علي أراد الاستفادة من القيمة المعنوية للصحابي العريق عمار بن ياسر، أكثر من رغبته في الاستفادة من كفاءته العسكرية. فعمار كان كبير السن الى حد أنه لا يمكن ان يكون مفيداً في قيادة قواتٍ في ميدان معركة.

(4) في رواية الدينوري ان الذي كان على الرجالة هو جندب بن زهير الازدي.

كان هذا الاطار العام للقوات، أما فعلياً فإن التشكيل العسكري كان يعتمد على التوزيع القبلي للقوات. فكل قبيلة كبيرة، أو عدة قبائل بينها قرابة أو تجمعها رابطة الاصل المشترك، كانت تشكل ما يمكن تسميته بالكتيبة او الفرقة العسكرية، ويكون لها قائد ميداني من ابنائها. ولذلك كان جيش علي يتشكل من سبع فرق[1]:

همدان وحمير، بقيادة سعيد بن قيس الهمداني

مُذحج والأشعريون، بقيادة زياد بن النضر الحارثي

قيس عيلان وعبس وذبيان، بقيادة سعد بن مسعود الثقفي

كندة وحضرموت وقضاعة ومهرة، بقيادة حجر بن عدي الكندي

الأزد وبجيلة وخثعم وخزاعة، بقيادة مخنف بن سليم الازدي

بكر بن وائل وتغلب وسائر ربيعة، بقيادة محذوج الذهلي

طيء، بقيادة عدي بن حاتم

ويضاف الى هؤلاء المقاتلون من قريش والانصار واهل الحجاز وكان عليهم عبد الله بن عباس.

واما بشأن قيادة الفريق الآخر فقال البلاذري:

ان ميمنتهم كانت تتكون من قبيلة الأزد، بقيادة صبرة بن شيمان

وميسرتهم كانت تتكون من قبائل تميم وضبة والرباب، بقيادة هلال بن وكيع.

وتقول الروايات ان عبد الله بن الزبير كان له دور مهم في القتال، ويبدو انه كان يتولى القيادة العامة للقوات بالنيابة عن ابيه. وحسب التعبير القديم «لاث به اهل البصرة» أي لجأوا اليه لقيادتهم عند اشتداد المعركة.

وأعطى الدينوري في الاخبار الطوال المزيد من التفاصيل بشأن التشكيلة القبائلية لجيش عائشة :

---

(1) هذه التقسيمات هي خلاصة ما رواه الدينوري في الاخبار الطوال والبلاذري في انساب الاشراف.

قريش وكنانة، بقيادة عبد الرحمن بن عتاب بن اسيد

خزاعة، بقيادة عبد الله بن خلف الخزاعي

قضاعة، بقيادة عبد الرحمن بن جابر الراسبي

قيس، بقيادة مجاشع بن مسعود

مذحج، بقيادة الربيع بن زياد الحارثي

ربيعة، بقيادة عبد الله بن مالك

واضاف ان الزبير وطلحة جعلا القيادة العامة للقوات على النحو التالي :

على الخيل: محمد بن طلحة، على الرجالة: عبد الله بن الزبير، واللواء الأعظم لعبد الله بن حرام بن خويلد

ورغم التداخل الواضح والتشابك القبلي بين الفريقين المتحاربين، ووجود ابناء من نفس القبيلة في الجهتين، إلاّ انه يمكن ملاحظة ان القبائل العربية توزعت بالشكل العريض التالي:

القبائل المُضرية (عرب الحجاز ونجد) باجمالها انحازت الى صف عائشة

قبيلة ربيعة الكبرى (عرب شمال الجزيرة العربية) بعمومها انحازت الى عليّ وكانت العمود الفقري لقواته[1]

القبائل اليمانية انقسمت بين الفريقين.

الالتحام[2]

وتواجه الجيشان الشقيقان، في مكانٍ يدعى «الجلجاء» قرب البصرة[3].

---

(1) وذكر المسعودي في مروج الذهب بيت شعر منسوب للامام علي يتحسر فيه على القتلى من قبيلة ربيعة :

*يا لهف نفسي على ربيعة *** ربيعة السامعة المطيعة*

(2) مصادر هذا البحث: كتاب الثقات لابن حبان (ج2 ص283)، تاريخ خليفة بن خياط (ص135)، الاخبار الطوال للدينوري (ص146)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج3 ص 36-37 و ص39-41)، مروج الذهب للمسعودي (ج2 ص282)،الكامل في التاريخ لابن الاثير (ص422 و ص418)

(3) ذكر ذلك ابن حبان في كتاب الثقات، وهو على بعد «فرسخين» من البصرة. واما خليفة بن خياط في تاريخه فيقول ان المعركة حصلت في «الزاوية، ناحية طف البصرة». واما الدينوري في الاخبار الطوال فيقول ان مكان المعركة اسمه «الخريبة» قرب البصرة.

ومارست عائشة دور القائد الاعلى للقوات المتمردة على عليّ.

وعندما دعاها عليّ «إن الله قد أمركِ أن تقري في بيتك فاتقي الله وارجعي. ويقول لطلحة والزبير: خبأتما نساءكما وأبرزتما زوجة رسول الله واستفززتماها»[1] ردّت عليه عائشة بخطبة حماسية ألقتها في قواتها قبل المعركة:

«وأتي بالجمل فأبرز وعليه عائشة في هودجها وقد ألبِسَت درعاً، وضُرِبَت على هودجها صفائح الحديد... فخطبت عائشة الناس فقالت: إنا كنا نقمنا على عثمان رحمه الله ضرب السيوط وإمرة بني أمية وموقع السحابة المحماة. وإنكم استعتبتموه فأعتبكم من ذلك كله. فلما مُصتموه كما يُماص الثوب الرحيض، عدوتم عليه فركبتم منه الفقر الثلاث: سفك الدم الحرام في البلد الحرام في الشهر الحرام. وأيم الله لقد كان من أحصنكم فرجاً وأتقاكم لله»[2]

وعمار بن ياسر كان له دور في التعبئة لصالح علي. يقول المسعودي في مروج الذهب:

«ثم قام عمار بن ياسر بين الصفين فقال: ايها الناس ما انصفتم نبيكم حين كففتم عقائلكم في الخدور وابرزتم عقيلته للسيوف !

وعائشة على جمل في هودج من دفوف الخشب قد ألبسوه المسوح وجلود البقر وجعلوا دونه اللبود، وقد غشي على ذلك بالدروع.

فدنا عمار من موضعها فنادى: الى ماذا تدعين؟

قالت: الى الطلب بدم عثمان

قال: قاتل الله في هذا اليوم الباغي والطالب بغير الحق ،،،»

بقي الجيشان متواجهين لثلاثة ايام دون قتال. كانت خلالها المراسلات والمجادلات دائرة بين الطرفين، ولكن لما لم تسفر عن اي حل كان لا بد من

---
(1) أنساب الأشراف للبلاذري
(2) أنساب الأشراف للبلاذري

نهاية للموقف: القتال. وكانت بداية ذلك عندما تعرض رجل من أتباع علي للرمي بسهم وقتل بينما كان بين الصفين رافعاً المصحف. [1] فأذن علي عندها لأتباعه بالقتال وقال «*الآن طاب الضراب*». وكان ذلك يوم العاشر من جمادي الآخر سنة 36 للهجرة[2].

وبدأ القتل، وسالت الدماء.

«*ثم إن علياً أمَّر ابنه، محمد بن الحنفية. فقال: تقدم برايتك. وكان معه الراية العظمى، فتقدَمَ بها وقد لاث أهل البصرة بعبد الله بن الزبير وقلدوه الأمر.*

فتقدمَ محمدٌ بالراية فاستقبله أهل البصرة بالقنا والسيوف. فوقف بالراية فتناولها منه عليّ رضي الله عنه، وحَمَلَ وحَمَلَ معه الناسُ. ثم ناولها ابنه محمداً.

واشتد القتال وحميت الحرب»

ويذكر المؤرخون قصصاً ملحمية عن القتال بين بني العمومة من جيشي الكوفة والبصرة. فالقبائل العربية بشكل عام كان ابناؤها موزعين على الطرفين كما ذكرنا، ولذلك كان يمنُ الكوفة يقاتلون يمن البصرة ا وربيعة البصرة تواجه ربيعة الكوفة، وكذلك مضر ،،، وهكذا.

وفي الروايات التاريخية الكثير من الشعر الملحمي الذي يظهر بطولات المحاربين وتضحياتهم، والاهازيج والأراجيز التي كانوا يرددونها لتشجيع انفسهم على القتال، ومنها مثلاً :

«*نحن بنو ضَبّة لا نفرُّ ### حتى نرى جماجماً تخرُّ ### صبراً فما يصبر الاّ الحرُّ*[3]»

---

(1) أنساب الأشراف للبلاذري .

(2) تاريخ خليفة بن خياط . واما ابن حبان في كتاب الثقات فيذكر الخامس من جمادي الآخر.

(3) نساب الأشراف للبلاذري .

واستمر القتال الضاري من الظهر الى غروب الشمس.

قال ابن الاثير في الكامل ان احد المشاركين في المعركة وصف ضراوة القتال كما يلي «*لما كان يوم الجمل ترامينا بالنبل حتى فنيت، وتطاعنا بالرماح حتى تكسرت وتشبكت في صدورنا وصدورهم حتى لو سُيّرت عليها الخيلُ لسارت*»

واستعر القتل في صفوف الطرفين الى درجة ان بعض العقلاء من الطرفين اخذوا يصيحون في المقاتلين «*طرّفوا، طرّفوا*» أي لا تضربوا بسيوفكم الرؤوس والأعناق بل اضربوا الايدي والارجل، حفاظاً على الأرواح. يقول ابن الاثير في الكامل «*فما رؤي وقعة كانت أعظم منها قبلها ولا بعدها ولا أكثر ذراعاً مقطوعة ولا رجلاً مقطوعة*».

وبالاضافة الى المقاتلين العاديين بدأ تساقط قيادات الجيشين قتلى في المواجهة. فقتل صبرة بن شيمان وهلال بن وكيع قائدا جيش عائشة، وقتل قبلهما كعب بن سور وهو من اهم زعماء الأزد وحامل رايتهم. كما قتل محمد بن طلحة بن عبيد الله .

ومن جيش علي قتل زيد بن صوحان (من عبد القيس) وعلباء بن الهيثم السدوسي(من ربيعة) وثمامة بن المثنى بن حارثة الشيباني ومحنف بن سليم الازدي[1] و هند بن عمرو بن جدارة (من مراد اليمن). وهذا الاخير كان يرتجز حين قتل :

«*أضربهم جهدي بحد المنصل *** والموت دون الجمل المجلل *** إن تحملوا قدما عليّ أحمل*»

واما زيد بن صوحان فقال وهو يلفظ انفاسه الاخيرة «*لا تغسلوا عني دماً ولا تنزعوا عني ثوباً، وانزعوا الخفين وارمسوني في الارض رمساً فإني محاجّ أحاجّ*»[2]

---

(1) وهو جد الراوي المشهور ابو مخنف الذي يعتبر من أهم المصادر لأحداث الفتنة الكبرى، والذي روى عنه كبار المؤرخين الموسوعيين كالطبري والبلاذري.
(2) أنساب الأشراف للبلاذري

ووصل الامر الى حد الالتحام الجسدي المباشر بين اثنين من اهم قيادات الجيشين . قال البلاذري عن ابي مخنف «*واقتتل مالك الاشتر وعبد الله بن الزبير . فاختلفا ضربتين ثم تعانقا حتى خرّا الى الارض يعتركان. فحجز بينهما أصحابهما. وكان عبد الله بن الزبير يقول حين اعتنقا: اقتلوني ومالكا. وكان الاشتر يقول: اقتلوني وعبد الله.*

فيقال: ان ابن الزبير لو قال: اقتلوني والاشتر، وان الاشتر لو قال: اقتلوني وابن الزبير، لقتلا جميعا.»»

وقيل لعائشة: هذا الاشتر يعارك عبد الله فقالت: واثكل اسماءا ووهبت لمن بشرها بسلامته مالاً»

وشيئا فشيئا بدأت الكفة تميل لمصلحة جيش عليّ. وبدأت قوات عائشة تتضعضع وتنهار

«*وانكشف الناس عن الجمل*»»، *وثبتت الأزد وضبة. فقاتلوا قتالاً شديدا......*»

سقوطُ الجَمَلِ الرّمز[1]

مع استعار حمّى القتال تحوّل جمل عائشة إلى رمزٍ لقوات أهل البصرة. فمهما سقط من قتلى في صفوفهم، كان البقية يرون الجمل الأحمر منتصباً، ويداخل هَودَجِهِ أم المؤمنين تستثيرهم وتناشدهم الصمودَ، فيثوبون إليه ويأبون الاستسلام. كانوا يتحلقون حول الجمل ويدافعون عنه بكل حميّةٍ وحماس. كان الفوج تلو الفوج من أهل البصرة يسقطون صرعى وهم يمسكون بخطام الجمل مستبسلين في حمايته «*فقتل يومئذٍ سبعون رجلاً، كلهم يأخذ بخطام الجمل*».

(1) مصادر هذا البحث: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج1 ص253)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج2 ص46) و(ج3 ص46-45)، الأخبار الطوال للدينوري (ص150)، الكامل في التاريخ لابن الاثير (ص420)، مروج الذهب للمسعودي (ج2 ص286).

وقدّمَ ابن أبي الحديد وصفاً ملحمياً لأبناء قبيلتي الأزد وضبة، وهم ملتفون حول الجمل ويردّدون رِجزاً جماعياً «وكانوا حول الجمل يحامون عنه، ولقد كانت الرؤوس تنْدُرُ عن الكواهل، والأيدي تطيحُ عن المعاصم، وأقتابُ البطن تندلقُ من الأجواف، وهم حول الجمل كالجراد الثابتة لا تتحلحل ولا تتزلزل...»[1]

ورغم أن المعركة أخذت تميل بشدة لمصلحة عليّ وقواته، ورغم الانهيار الذي حصل في صفوف قوات طلحة والزبير، إلاّ أن علياً استنتج أنه ما دام ذلك الجمل قائماً فلن يتوقف المدافعون عن القتال حتى يُبادوا عن آخرهم. فأمَرَ عليّ قواته بالتركيز على إسقاط ذلك الجمل بأي وسيلة. وبالفعل انهمرت السهام على جمل عائشة وهودجها[2]:

«وكثرت النبل في الهودج حتى صار كالقنفذ. وكان الجمل مجففاً والهودج مطبق بصفائح الحديد

وصَبَرَ الفريقان بعضُهم لبعض، حتى كثرت القتلى وثار القتام، وطلت الألوية والرايات.

وحَمَلَ عليّ بنفسه وقاتَلَ حتى انثنى سيفه.

وخرج فارس أهل البصرة عمرو بن الأشرف، لا يخرج إليه أحَدٌ من أصحاب عليّ إلاّ قتله، وهو يرتجز ويقول:

يا أمنا يا خيرَ أمٍ نعلمُ	والأمّ تغذو ولدها وترحمُ
ألا ترينَ كم جوادٍ يُكلَمُ	وتختلي هامته والمعصمُ

.... ولما رأى عليّ لوثَ أهل البصرة بالجمل، وأنهم كلما كشفوا عنه عادوا فلاثوا به، قال لعمار وسعيد بن قيس وقيس بن سعد بن عبادة والأشتر وابن بديل ومحمد بن أبي بكر وأشباههم من حماة أصحابه: إن

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد. وتندر: تقطع. والأقتاب: الأمعاء.
(2) وفي رواية للبلاذري وصف لشدة تساقط السهام على الهودج حتى صار كأنه «جناحُ نسر»!

هؤلاء لا يزالون يقاتلون ما دام هذا الجمل نصب أعينهم، ولو قد عُقِر فسقط لم تثبت لهم ثابتة.

فقصدوا بذوي الجد من أصحابه قصد الجمل حتى كشفوا أهل البصرة عنه. وأفضى إليه رجلٌ من مُراد الكوفة يقال له: أعين بن ضبيعة، فكشف عرقوبه بالسيف، فسقط وله رغاءٌ فغرقَ في القتلى. ومالَ الهودجُ بعائشة»[1]

وقال راوي ابن الاثير «*ونادى عليّ: اعقروا الجمل، فإنه إن عُقر تفرقوا. فضربه رجلٌ فسقط، فما سمعت صوتاً قط أشد من عجيج الجمل*»[2]

وفعلاً فإن سقوط الجمل كان إيذاناً بانتهاء المعركة، واستسلام قوات عائشة. وسرعان ما تفرق المدافعون عنها يمينا وشمالاً بعدما تيقنوا من الهزيمة.

وذهب عليّ بنفسه الى الهودج المنهار ليرى ماذا حل بأم المؤمنين «*فقال علي لمحمد بن ابي بكر: أدخل رأسك وانظر أحيّة هي؟ وهل أصابها شيء؟ ففعل، ثم أخرج رأسه وقال: خموش في عضدها، أو قال في جسدها*»[3]

فخاطبها عليّ «*يا حُميراء، رسول الله أمرك بهذا؟! ألم يأمرك أن تقرّي في بيتك؟ والله ما انصفك الذين اخرجوك إذ صانوا عقائلهم وأبرزوك*»[4]

وفي رواية أخرى ان عليا قال لها «*استفززتِ الناسَ وقد فزوا حتى قتل بعضهم بعضاً بتأليبك. فقالت: يا ابن ابي طالب: ملكتَ فاسجح*»[5]

---

(1) الأخبار الطوال للدينوري . وكذلك: انساب الاشراف للبلاذري .
(2) الكامل في التاريخ لابن الاثير .
(3) انساب الأشراف للبلاذري . وفي راوية مروج الذهب للمسعودي «فأدخل يده فقالت: *من أنت ؟ قال: أقرب الناس منك قرابة وأبغضهم اليك! انا محمد اخوك. يقول لك امير المؤمنين هل اصابك شيء؟ قالت: ما أصابني الاّ سهم لم يضرني*»
(4) مروج الذهب للمسعودي .
(5) انساب الاشراف للبلاذري، عن الزهري.

نتائج القتال[1]

وأسفرت المعركة عن مقتل الصحابيين الكبيرين طلحة بن عبيد الله، ومعه ابنه محمد، والزبير بن العوام. وسوف نأتي بالتفصيل في الفصول التالية لما ذكرته المصادر التاريخية من روايات حول كيفية مقتل الرجلين[2].

ولكن بشأن العدد الاجمالي للقتلى يوم الجمل، ذكر خليفة أنه سقط في المعركة عشرون ألفاً حسب رواية، وسبعة آلاف حسب أخرى! وورد في تاريخ الطبري أن عدد قتلى المعركة كان عشرة آلاف: نصفهم من أصحاب علي ونصفهم من أصحاب عائشة. ووردت تقديرات أخرى للحصيلة الإجمالية لقتلى حرب الجمل[3] : حسب تاريخ اليعقوبي نيفاً و ثلاثون ألفا. وحسب الطبقات الكبرى لابن سعد كان عدد القتلى ثلاثة عشر ألفاً. والبلاذري يروي عن ابي مخنف ان قتلى اهل البصرة كانوا 20 ألفاً. وقال السيوطي في تاريخ الخلفاء «*وبلغت القتلى ثلاث عشر الفا*». وذكر المسعودي أن عدد القتلى الإجمالي كان أربعة عشر ألفاً، منهم ألفٌ من أصحاب عليٍّ! وفي المصدر الشيعي «كشف الغمة» يذكر ابن ابي الفتح الاربلي ان جيش عائشة وأهل البصرة كان ثلاثين ألفا، قتل منهم 16،790 رجلا، وان جيش علي كان عشرين ألفاً، قتل منهم 1،070 رجلا!

وطبعاً لا يمكن الوثوق بدقة هذه الارقام، وخاصة تلك التي تتحدث عن 20 أو 30 ألف قتيل[4]. إلّا انه من المؤكد ان الرقم كان كبيراً ، ربما سبعة أو عشرة آلاف ضحية.

---

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج3 ص543). والطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص32). وتاريخ اليعقوبي (ج2 ص183)، تاريخ خليفة بن خياط (ص140)، انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص58)، تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص210)، كشف الغمة لابن ابي الفتح الاربلي (ج1 ص243)، التنبيه والاشراف للمسعودي (ص256).

(2) يمكن على سبيل المثال مراجعة تاريخ اليعقوبي (ج1 ص183). وكذلك تاريخ خليفة بن خياط (ص138–139). وأيضا الامامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص90–97) وكذلك المستدرك على الصحيحين للحاكم (ج3 ص370).

(3) تاريخ الطبري والطبقات الكبرى لابن سعد وتاريخ اليعقوبي.

(4) هناك رواية لدى البلاذري في انساب الاشراف عن محمد بن ابي يعقوب تنزل بعدد قتلى اهل البصرة الى 2500 رجلاً.

ورغم أن النسبة الكبرى من قتلى يوم الجمل كانت من ابناء القبائل العربية المستوطنة في البصرة، إلاّ أنّ قبيلة قريش خسرت عدداً من أبنائها الذين خاضوا المعركة، موحّدين ضد عليّ بن أبي طالب. وقد عدد خليفة[1] أسماء 30 قتيلا من كل بطون قريش الذين سقطوا صرعى.

عليّ يتسامح مع المهزومين[2]

وطبّق عليّ سياسة التسامح تجاه أعدائه المهزومين: *«ثم نادى منادي عليّ: ألا لا يُجهز على جريح، ولا يتبع مُوَلٍ، ولا يُطعن في وجه مُدبر. ومَن ألقى السلاح فهو آمن. ومَن أغلق بابه فهو آمن. ثم آمَنَ الأسودَ والأحمرَ»*[3]

واكتفى علي بمصادرة السلاح الذي قاتل به اعداؤه وتوزيعه على قواته.[4]

ويمكن ملاحظة معالم المدرسة النبوية في سياسة التسامح التي اتبعها عليّ تجاه أعدائه المهزومين. فهو قد طبّق نفسَ سياسة رسول الله(ص) يوم فتح مكة تجاه ألدّ أعدائه، فأعرضَ عنهم ولم ينتقم منهم. فرغم كُرهِهِ الشديد لمروان بن الحكم، إلى درجة أنه رفض قبول بيعته حين أحضروه مستسلماً: *«.. لا حاجة لي في بيعته. إنها كفّ يهودية. لو بايعني بكفّه لغَدَر بسبّته ...»*[5] إلاّ أنه أطلقه ولم يحبسه.

وعفا عن ألدّ خصومه وأعدائه الذين قادوا التحرك ضده. يقول المؤرخون ان كلاً من عبدالله بن الزبير ومروان بن الحكم وعبد الله بن عامر كانوا قد اختبؤوا في بيت لأحد أزد البصرة بعد الهزيمة، فعلم عليّ مكانهم ولكنه لم

(1) تاريخ خليفة بن خياط.

(2) مصادر هذا البحث: تاريخ اليعقوبي (ج2 ص183). انساب الاشراف للبلاذري (ج3ص57)، نهج البلاغة، بشرح محمد عبده (ج1 ص93 و ج2 ص293)، مروج الذهب للمسعودي (ج2 ص284 و ص287)، الكامل في التاريخ لابن الاثير (ص421)، كتاب الفتوح لابن اعثم (ج2 ص486).

(3) تاريخ اليعقوبي . وقريب من ذلك روى البلاذري في انساب الاشراف .

(4) انساب الاشراف للبلاذري

(5) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده . وفي رواية البلاذري (انساب الاشراف) من طريق ابن سعد ان مروان أصر أن يبايع علياً الذي قبل ذلك ثم قال له «*اذهب حيث شئت*»

يفعل شيئاً ضدهم بل أعطاهم الامان وتركهم. وكذلك أمّن الوليد بن عقبة بن ابي معيط وابناء عثمان بن عفان وبقية بني امية.[1]

ولذلك انا استبعد تماماً أن يكون عليّ قد خاطب اهل البصرة بعد المعركة بكلامٍ مليء بالاهانات والتشفي كالذي يرويه المسعودي في مروج الذهب:

«يا اهل السبخة، يا اهل المؤتفكة ،،،، يا جُند المرأة، يا أتباع البهيمة، رغا فأجبتم وعُقر فانهزمتم! أخلاقكم رقاق، وأعمالكم نفاق، ودينكم زيغٌ وشقاق و وماؤكم أجاجٌ وزعاق»[2]

وجهز عليٌ موكباً كبيراً وحملَ عليه عائشة وأرسلها إلى المدينة المنورة، يقودها أخوها محمد بن أبي بكر:

«ثم جهّز علي عائشة بكل ما ينبغي لها من مركب وزاد ومتاع وغير ذلك، وبعث معها كل من نجا ممن خرج معها الّا من أحب المقام، واختار لها اربعين امرأة من نساء البصرة المعروفات، وسيّر معها أخاها محمد بن ابي بكر ،،،،»[3]

ورغم كل ما أحدثوه من إفساد، فانّ علياً ما كان راغباً بأن يرى خصومَه قتلى. وشعر بالأسى والحزن على المصير الذي آلّ إليه رفاقه القدامى من أصحاب محمد(ص). فقال حينما رأى طلحة صريعاً على أرض المعركة:

«لقد أصبح أبو محمد بهذا المكان غريباً. أماً والله لقد كنتُ أكره أن تكون قريشٌ قتلى تحت بطون الكواكب..»[4]

---

(1) مروج الذهب للمسعودي.

(2) ويلاحظ تشابه في الاسلوب، وحتى الكلمات، مع خطب زياد بن ابيه والحجاج بن يوسف!

(3) الكامل في التاريخ لابن الاثير. والمؤرخون ذوو الميول الشيعية يذكرون المزيد عن المشاعر السلبية والكلمات الحادة المتبادلة بين عليّ وعائشة في اعقاب المعركة، ومن ذلك ما رواه ابن اعثم الكوفي ان عليا ارسل عبد الله بن عباس الى عائشة فلامها بشدة على ما قامت به ثم قال لها *«وبعد فهذا امير المؤمنين يأمرك بالارتحال الى المدينة فارتحلي ولا تعصي. فقالت عائشة: رحم الله أمير المؤمنين، ذاك عمر بن الخطاب! فقال ابن عباس: وهذا والله امير المؤمنين وإن رغمت له الأنوف واربدّت له الوجوه! فقالت عائشة: أبيتُ ذلك عليكم يا ابن عباس»*

(4) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده. وفي رواية المسعودي في مروج الذهب انه قال لما رأى طلحة قتيلا *«انا لله وانا اليه راجعون. والله لقد كنت كارهاً لهذا»*

الفصل السادس: نقاش مع الروايات

هل رجع الزبير عن القتال؟؟[5]

تذكر الروايات أن الزبير بن العوام قد انسحب من المعركة في اللحظات الأخيرة، وذلك عندما اجتمع معه عليّ بن أبي طالب، وهما بين الصفين، وذكّره بأن رسول لله (ص) قد قال له يوماً: لتقاتلنّه وأنتَ له ظالم!

وبعضها يقول أنه أرادَ الرجوعَ لما عرف أن عمار بن ياسر موجودٌ في جيش عليّ[6]، لأن الرسول (ص) قال عنه: تقتله الفئة الباغية!

وهذه رواية ابن عبد البر في الاستيعاب التي تلخص الواقعة :

« *ثم شهد الزبير الجمل، فقاتل فيه ساعة، فناداه علي وانفرد به، فذكّره ان النبي(ص) قال له -وقد وجدهما يضحكان بعضهما الى بعض- (أما انك ستقاتلُ علياً وأنت له ظالم). فذكر الزبير ذلك فانصرف عن القتال* »

---

(5) مصادر هذا البحث: الاستيعاب لابن عبد البر(ص 263)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص182)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج 18 ص410-411)، الامامة والسياسة لابن قتية (ج1 ص92)، الاخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري (ص148)، انساب الاشراف للبلاذري (ج3: ص49 وص51-53)، وكتاب الفتوح لابن اعثم (ج2 ص470)، وتاريخ الطبري (ج3 ص519 و ص521)، سير اعلام النبلاء للذهبي(ج1 ص58-59)، الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين (ج3 ص365-366)، وابن ابي الفتح الاربلي في كشف الغمة (ج1 ص242)، والطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص110-112).

(6) روى ابن عساكر في تاريخ دمشق ان الزبير أرسل رجلًا الى معسكر عليّ ليعرف ان كان عمار موجودا معهم أم لا، وأن هذا الرجل تأكد من وجود عمار عن طريق علامة في أذنه كان الزبير اخبره عنها . فلما رجع للزبير بالخبر ولّى منسحباً الى وادي السباع.

وفي رواية اليعقوبي ان الزبير قد فوجئ بكلام علي وأجاب «*اللهم اني ما ذكرتُ هذا الاّ هذه الساعة*»

وفي رواية لابن عساكر ان الزبير أجاب علياً لما ذكره بالحديث «*ذكّرتني ما قد نسيتُ ،،، فولّى راجعاً*»

بل ان رواية ابن قتيبة تضيف بُعداً دراماياً على لقاء عليّ والزبير ،،، عناق وأحضان وبكاء !

«*خرج عليّ على بغلة رسول الله الشهباء بين الصفين، وهو حاسر. فقال: اين الزبير؟ فخرج اليه، حتى اذا كانا بين الصفين اعتنق كل واحد منهما صاحبه وبكيا. ثم قال علي: يا (ابا) عبد الله ما جاء بك ها هنا؟*

قال: جئت اطلب دم عثمان.

قال علي: تطلب دم عثمان، قتل الله من قتل عثمان! أنشدك الله يا زبير: هل تعلم أنك مررتَ بي وأنت مع رسول الله(ص) وهو متكئ على يدك، فسلم عليّ رسول الله(ص) وضحك إليّ، ثم التفتَ إليك فقال لك: يا زبير إنك تقاتل عليا وأنت له ظالم؟

قال: اللهم نعم!

قال علي: فعلام تقاتلني؟

قال الزبير: نسيتها والله. ولو ذكرتها ما خرجت اليك ولا قاتلتك»

وتضيف الروايات ان الزبير لما رجع وأراد الانصراف اتهمه ابنه عبد الله بالجُبن وطالبه بالاستمرار.

روى ابو حنيفة الدينوري في الاخبار الطوال «*واقبل الزبير حتى دنا من ابنه عبد الله وبيده الراية العظمى فقال (يا بني، انا منصرف!) قال (وكيفَ يا أبتِ؟) قال (ما لي في هذا الأمر من بصيرة. وقد أذكرني عليٌّ أمراً قد كنتُ غفلتُ عنه، فانصرف يا بني معي) فقال عبد الله (والله لا ارجع أو يحكم الله بيننا).*

فتركه ومضى نحو البصرة ليتحمل منها ويمضي نحو الحجاز»

وقال اليعقوبي في تاريخه «...، *وثنى عنان فرسه لينصرف .*

فقال له عبد الله: الى أين؟

قال: ذكرني علي كلاماً قاله رسول الله.

قال: كلا! ولكنك رأيتَ سيوف بني هاشم حداداً تحملها شداد.

قال: ويلك! ومثلي يعيّر بالجبن؟ هلم اليّ الرمح. وأخذ الرمح وحمل على أصحاب علي.

فقال علي: أفرجوا للشيخ، انه محرج!

فشق الميمنة والميسرة والقلب ثم رجع فقال لابنه: لا أم لك! أيفعل هذا جبان ؟ وانصرف»[1]

وبالاضافة الى من ذكرناهم فإن رواية رجوع الزبير عن القتال لما ذكّره علي بكلام النبي (ص) موجودة لدى البلاذري[2] و الذهبي[3] وتاريخ الطبري[4] وكتاب الفتوح لابن اعثم.

---

(1) ولم توضح هذه الرواية ماهية كلام الرسول الذي أشار له الزبير.
وفي رواية ابن قتيبة (الامامة والسياسة) ان عائشة ايضاً اتهمت الزبير بالجبن *«يا ابا عبد الله خفتَ سيوف بني عبد المطلب؟» فيأتيها ردّه الغريب «فقال: أما والله ان سيوف بني عبد المطلب طوال حداد يحملها فتية أنجاد»!*
وذات الرواية فيها قول الزبير لابنه عبد الله: «عليك بحزبك. أما أنا فراجع الى بيتي. فقال له ابنه عبد الله: الان حين التقت حلقتا البطان، واجتمعت الفئتان؟ والله لا نغسل رؤوسنا منها! فقال الزبير لابنه: لا تعد هذا مني جبنا، فوالله ما فارقت أحدا في جاهلية ولا اسلام! قال: فما يردّك؟ قال: يردني ما إن علمته كسرك!
فقام بأمر الناس عبد الله بن الزبير»
وظاهرٌ تماماً مدى تهافت هذه الرواية، خاصة من نوعية جواب الزبير على اتهام عائشة له بالجبن، وكذلك من قول الزبير لابنه «ما إن علمته كسرك»! لماذا لم يقل له هذا الشيء الذي لو علمه لخمد وانكسر ؟!

(2) رواية معمر عن قتادة لدى البلاذري يرد فيها الحديث النبوي كما يلي *«أما ان ابن عمتك هذا سيبغي عليك ويريد قتالك ظالماً»*. واما رواية الزهري عنده ففيها ان الزبير قال لابنه انه حلف ألا يقاتل علياً بعد ان ذكره بحديث النبي(ص) ولكن عبد الله أقنعه أن يكفر عن يمينه بعتق غلام، ففعل الزبير ذلك وعاد الى صفوفهم!

(3) سير اعلام النبلاء . والرواية فيه عن طريقين: الاسود بن قيس، و ابي جرو المازني. وفيها ان الزبير قال عن حديث النبي (ص) *«ولم أذكره إلا في موقفي هذا»*.

(4) (ج3 ص519) من رواية الزهري.

ومن أهل الحديث توجد هذه الرواية لدى الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين في روايتين عن قيس بن ابي حازم وعن ابي حرب بن ابي الاسود الديلي [1].

والمصادر الشيعية تتفق مع هذه الرواية بشأن الزبير بن العوام . فمثلا روى ابن ابي الفتح الاربلي في كشف الغمة أن عليا قال للزبير وهما على فرسيهما بين الصفين «*أنشدك الله الذي لا إله إلاّ هو الذي أنزل الفرقان على نبيه محمد(ص) اما تذكر يوما قال لك رسول الله(ص): يا زبير أتحبّ عليا؟ فقلتَ: وما يمنعني من حبه وهو ابن خالي. فقال لك: أما انك ستخرج عليه يوما وأنت له ظالم!*»

والحقيقة انه لا يمكن تصديق هذه الروايات – رغم كثرتها. بل هي على الأرجح غير صحيحة او محرفة، لأنها ببساطة خارجة عن سياق الأحداث. فهي أقرب ما تكون مفتلعة ومقحمة على مجريات الأمور. والأكيد أن سبب تكرارها في عدة مصادر هو أن لكل صاحب هوى هدف منها:

فبعض الرواة كان يهدف إلى تبييض صفحة طلحة والزبير ومحاولة تبرئتهما من مسؤولية المعركة والقتلى، عن طريق القول بأنهما قد عرفا الحق وأرادا أن يتراجعا عن موقفهما، ولكن الأمور خرجت من أيديهما . وبالتالي يكون المسؤول عن الكارثة هم غيرهم من الذين أصروا على القتال من عامة الناس! أو حتى «السبئيون» كما تذهب روايات سيف بن عمر!

وأما البعض الآخر من الرواة، فهدفهم كان إبراز صحّة موقف الإمام عليّ، وأن الشيخين قد اعترفا بذلك وأرادا التراجعَ، وبالأخص الزبير [2].

---

(1) ولكن الحاكم النيسابوري نفسه أخرج في المستدرك ايضا رواية أخرى عن ابن شهاب دون اشارة للحديث النبوي «*ولى الزبير يوم الجمل منهزما، فأدركه ابن جرموز، رجل من بني تميم فقتله*»

(2) بل ان هناك رواية لدى الحاكم النيسابوري في المستدرك تجعل الذي أراد التراجع عن القتال بسبب كلام علي هو طلحة بدلا من الزبير!

«*... كنا مع علي يوم الجمل. فبعث الى طلحة بن عبيد الله أن القني. فأتاه طلحة. فقال: نشدتك الله: هل سمعتَ رسول الله(ص) يقول: مَن كنتُ مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ؟ قال: نعم! قال: فلم تقاتلني؟ قال: لم أذكر! قال: فانصرف طلحة*»

وهذه آراءٌ سقيمة، وتحليلٌ هزيل لمجرى سير الأحداث. لأن الزبير كان يعرف منذ البدء أن عماراً هو مع عليّ، فذلك أمرٌ مشهور، يعرفه الناس حتى في الأقاليم البعيدة، فلا يصحّ أنه يتفاجىء بذلك. ولا يمكن للزبير أن يكون «ناسياً» لحديث رسول الله (ص) له بشأن عليّ، وهو الذي كان منخرطاً في التجهيز لحربه على مدى شهور طويلة. لو كان حديث الرسول (ص) للزبير يتعلّق بمسألة فقهية بسيطة أو بشخص لا علاقة له بأحداث الصراع الدامي ضد عليّ بالذات، لكان يمكن أن يكون غائباً عن ذهن الزبير إلى أن ذكّره به عليّ وهما بين الصفّين. ولكن أن يكون الزبير ناسياً لحديث بهذه الدرجة من المباشرة والصراحة، فذاك المستحيل.

وتبدو الروايات التي تقول ان سبب رجوع الزبير عن القتال هو «اكتشافه» ان عمار بن ياسر موجود في صفوف علي أكثر ركاكة وضعفاً . وهذه إحداها: يقول البلاذري[1] والطبري ان الزبير لما تأكد من وجود عمار مع عليّ أخذ يقول كالمتنحب «*يا جدع أنفاه، يا قطع ظهراه*» ثم بدأ يرتعد حتى سقط منه سلاحه!

بل ان ابن سعد في الطبقات الكبرى أضاف سبباً جديداً أدى لانسحاب الزبير: تذكيره بصلة القربى مع عليّ ! فقد روى عن عكرمة أن ابن عباس «*أتى الزبيرَ فقال: أين صفية بنت عبد المطلب حيث تقاتل بسيفك علي بن أبي طالب بن عبد المطلب؟! فرجع الزبير ...*». فالسبب إذن هو تذكير ابن عباس له بأمه صفيه (عمة علي).

وبعد هذا التحليل كله، يبقى السؤال: هل انسحب الزبير من الميدان ؟

لا يمكن الجزم بشان ذلك . ولكن الارجح أنه بالفعل قرر الانسحاب من ميدان المعركة، ولكن ذلك حصل بعد أن استعرت الحرب، ولا علاقة له باقتناعه بكلام قاله له عليّ أو بعمار بن ياسر. فربما رأى الزبير العدد الكبير

(1) انساب الاشراف من رواية قرة بن الحارث. وتاريخ الطبري. وروى ابو حنيفة الدينوري في الاخبار الطوال *فقالوا: وان الزبير لما علم ان عمارا مع علي رضي الله عنه ارتابَ بما كان فيه، لقول رسول الله(ص) (الحق مع عمار، وتقتلك الفئة الباغية)»*

من الضحايا المسلمين الذين يسقطون من الجانبين فقرر التوقف لعله يهدّئ الوضع، أو لعله انسحب بفعل ظروف القتال وخاصة أن جماعته قد هُزموا، فقتل أثناء ذلك كما سيأتي.

روايات مقتل الزبير[1]

وتقول الروايات أن الزبير عندما انسحب، لحق به عمرو بن جرموز التميمي حتى قتله وهو يصلّي! وذلك لأنه «*أتى بحرمة رسول الله يسوقها، فهتكَ عنها حجابَ رسول الله، وسترَ حرمته. ثم أسلمها وانصرف*».

ولا بد طبعاً من الاثارة في الروايات، فلا يجوز ان يمضي قتل الزبير هكذا، وكأنه احد ضحايا المعركة (الكثر) بل يفضل الحديث عن تآمرٍ لقتله، ويكون من المثير لو تم الزج باسم شخص مشهور في الأمر.

وهذا ما كان.

فروايات ابن سعد في الطبقات الكبرى حول مقتل الزبير فيها شبه اجماع ان الذي قام مباشرة بقتل الزبير بن العوام هو عمرو بن جرموز التميمي. ومعظم الروايات تنسب للأحنف بن قيس، زعيم قبيلة تميم، دورا في التحريض على قتل الزبير لأنه اعتبره مسؤولا عن الدماء التي سالت في حرب الجمل وبالتالي ليس من العدل بعد ذلك كله أن ينصرف إلى أهله بكل سلام ،

ففي رواية أبي خالد الوالبي ان الأحنف قال لما رأى الزبير على فرسه (*هذا الذي كان يفسد بين الناس*) فلحقه (*رجلان ممن كان معه*) وقتلاه.

وفي رواية جون بن قتادة أن الاحنف أمر عمرو بن جرموز ورجلا آخر أن يلحقا بالزبير (*فأتياه فأكبا عليه ... ثم جاء عمرو بن جرموز بعد ذلك الى الاحنف فقال: ادركته في وادي السباع فقتلته*).

---

(1) مصادر هذا البحث: الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص110-112 و ج7 ص96)، الاستيعاب لابن عبد البر(ص 263)، الاخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري (ص148)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص183)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج 18 ص417)، و ص415 و ص420)، انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص54)،و الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين (ج3 ص365).

وفي رواية أخرى (قالوا) أن الأحنف قال لقومه «*ما أصنع؟ وما تأمروني؟ إن كان الزبير لف بين غارين من المسلمين فقتل أحدهما الآخر ثم هو يريد اللحاق بأهله*»[1]. فلحق الزبيرَ ثلاثة رجال من بني تميم وهم: عمير بن جرموز وفضالة بن حابس و نفيع (أو نفيل) بن حابس . فوصله عمير بن جرموز أولا واشتبك معه فتغلب الزبير عليه فرجاه أن يعفو عنه ففعل. ولكنه عاود الهجوم لما وصل رفيقاه فقتلوه.

وفي رواية الدينوري في الاخبار الطوال «*ان الزبير لما انصرف من المعركة مر بالاحنف بن قيس –وهو معتزل الامر– فسأل الأخير قومه (هل فيكم من يأتينا بخبره ؟) فانتدب عمرو بن جرموز نفسه للملك*»

وروى اليعقوبي في تاريخه ان الزبير لما انصرف من المعركة *فاجتاز بالاحنف بن قيس. فقال: ما رأيتُ مثل هذا، أتى بحرمة رسول الله يسوقها، فهتك عنها حجاب رسول الله، وستر حرمته في بيته، ثم أسلمها وانصرف! ألا رجلٌ يأخذ لله منه؟!*

فاتبعه عمرو بن جرموز التميمي، فقتله بموضع يقال له وادي السباع»

ويروي ابن عساكر في تاريخ دمشق نقلا عن ابن سعد ان الاحنف بن قيس نادى عمرو بن جرموز ومعه فارسان آخرين «فناجاهما ساعة» ثم انصرفوا فلحقوا بالزبير حتى عاد ابن جرموز برأسه للأحنف «*فكان قرة بن الحارث يقول: والذي نفسي بيده ان صاحب الزبير الأحنف*»

ولكن هذا الكلام الكثير في روايات ابن سعد والدينوري واليعقوبي وابن عساكر حول دور الأحنف بن قيس في التشجيع على قتل الزبير يتناقض حتى مع ما رواه ابن سعد ذاته في موضع آخر من الطبقات الكبرى من أن الاحنف كان صديقا مقربا لمصعب بن الزبير وأنه توفي أثناء ولايته على الكوفة من قبل أخيه، فشوهد مصعب يسير في جنازته «*بغير رداء*»! فكيف يكون الاحنف

---

(1) س وفي رواية ابن عبد البر في الاستيعاب ان الاحنف قال «*ما شاء الله! كان قد جمع بين المسلمين حتى ضرب بعضهم حواجب بعض بالسيوف، ثم يلحق بنيه وأهله! فسمعه عميرة بن جرموز، وفضالة بن حابس ونفيع، في غواة من غواة بني تميم*»

حبيبا إلى قلب مصعب وهو المتهم بالتحريض على قتل أبيه؟! إلاّ إذا كان مصعب غافلاً عن أمر كهذا!

كما أن الأحنف كان ممن اعتزلوا القتال يوم الجمل هو ومعظم قومه، وبالتالي لم يكن خصماً مباشراً لأي من الطرفين المتصارعين ولم تكن بينه وبين الزبير أية خصومة مباشرة أو ثارات حتى يأمر بقتله.

ولم يكتفِ الرواة بالاثارة فيما يتعلق بدور الاحنف في مقتل الزبير بل انتقلوا الى تفاصيل «درامية» في طريقة مقتله. فكما ان تفاصيل روايات مقتل الخليفة عثمان تحدثت عن قراءته القرآن ساعة قتل وكيف «سال الدم على المصحف» وتوقفت قطرة الدم عند قوله تعالى «فسيكفيكهم الله»، فإن تفاصيل مقتل الزبير تحدثت عن مقتله وهو ساجدٌ أثناء أداء الصلاة!

يقول الدينوري في الاخبار الطوال *«وقام الزبير في الصلاة. فلما سجد حمل عليه عمرو (ابن جرموز) بالسيف فضربه حتى قتله»*

وكذلك لا بد من الحديث عن شجاعة الزبير . في رواية ابن سعد (قالوا) *«فلحق الزبيرَ ثلاثة رجال من بني تميم وهم: عمير بن جرموز وفضالة بن حابس و نفيع (أو نفيل) بن حابس .*

فوصله عمير بن جرموز أولا واشتبك معه فتغلب الزبير عليه فرجاه أن يعفو عنه ففعل.

ولكنه عاود الهجوم لما وصل رفيقاه فقتلوه»

وفي رواية لابن عبد البر في الاستيعاب يظهر الزبير شجاعاً غير هياب :

«...، ثم اتبعه (ابن جرموز) فلما لحق بالزبير، ورأى الزبيرُ أنه يريده أقبل عليه فقال له ابن جرموز: أذكرك الله! فكف عنه الزبير، حتى فعل ذلك مراراً فقال الزبير: قاتله الله ! يذكرنا الله وينساه.

ثم غافله ابن جرموز فقتله»

ولكن روايات الشجاعة هذه تقابلها غيرها تتحدث عن قبول الزبير إجارة رجلٍ من بني تميم لحمايته!

قال ابن سعد في الطبقات الكبرى في روايةٍ (قالوا) أن الزبير بعد القتال انطلق يريد الرجوع إلى المدينة (*فلقيه رجل من بني تميم يقال له: النعر بن زمام المجاشعي بسفوان فقال له: يا حواري رسول الله إليّ إليّ ! فأنت في ذمتي لا يصل إليك أحد من الناس فأقبل معه*)[1] .

وفي رواية أخرى للحسن: يعيب فيها على الزبير طلبَه الحماية من المجاشعي (*عجباً للزبير ! أخذ بحقوي أعرابي من بني مجاشع: أجرني أجرني حتى قتل*) .

وهذه الصورة للزبير تتناقض مع الرواية السابقة التي يظهر فيها شجاعا يتغلب على ابن جرموز ثم يكف عنه!

ولعل أفضل رواية تتعلق بمقتل الزبير هي ما أخرجه الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين مختصراً: فعن ابن شهاب «*ولى الزبير يوم الجمل منهزما، فأدركه ابن جرموز، رجل من بني تميم، فقتله*»

ردة فعل عليّ على مقتل الزبير[2]

تبالغ الروايات كثيراً في وصف مدى الألم والحسرة التي أظهرها عليّ بسبب مقتل الزبير بن العوام.

فبعضها تتحدث عن انخراطه -هو وآله وأصحابه- في بكاء شديد:

أتاه ابن جرموز برأس[3] الزبير وسيفه «*فأخذه علي وقال: سيفٌ والله*

---

(1) وهذه رواها ايضاً ابن عبد البر في الاستيعاب في حديث عمرو بن جاوان عن الاحنف بن قيس، وفيها ان الرجل الذي أجار الزبير اسمه «البكر »من بني مجاشع». وايضا رواها ابن عساكر في تاريخ دمشق بسنده عن عمرو بن جاوان. بل ان رواية البلاذري في انساب الاشراف تقول ان الزبير هو الذي طلب جوار النعر بن زمام فأجاره. وفي رواية أخرى لابن عساكر عن ابي القاسم السمرقندي ان الزبير هو الذي طلب الجوار.

(2) مصادر هذا البحث: كتاب الثقات لابن حبان (ج2 ص283)، الاستيعاب لابن عبد البر(ص 263)، الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين (ج3 ص367)، الطبقات الكبرى لابن سعد انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص51)، ابن حجر العسقلاني في فتح الباري (ج7 ص65)، الاخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري (ص148)، ابن عساكر في تاريخ دمشق (ج18 ص 422-423).

(3) تذكر عدة روايات ان ابن جرموز قطع رأس الزبير وأتى به علياً. ولكني استبعد ذلك

طال ما جلا به عن وجه رسول الله (ص) الكرب ولكن الحين ومصارع السوء.... وجلس علي يبكي عليه هو وأصحابه»[1]

وبعضها يقول ان علياً قد صبّ جام غضبه على قاتله فجفاه وبشره بنيران جهنم :

«ثم أتى (ابن جرموز) علياً فقال : قولوا لأمير المؤمنين قاتلُ الزبير بالباب. فقال: بشروا قاتل ابن صفية بالنار!

،،، ثم أقبل علي وولده يبكون، فقال ابن جرموز: ظننت أني قتلت له عدوا، ولم أظن اني قتلت له وليا حميما»[2]

بل ان ابن حبان في كتاب الثقات يقول ان صدمة ابن جرموز بردة فعل عليّ وكلامه علي كانت كبيرة الى حد انه أقدم على الانتحار ! *«فقال ابن جرموز: إن قاتلنا معكم فنحن في النار، وإن قاتلناكم فنحن في النار! ثم بعج بطنه بسيفه فقتل نفسه»*.

ووصل الامر ببعض الروايات أن جعلت البشرى بالنار لقاتل الزبير حديثاً ونبوءة لرسول الله (ص) وليس فقط من لدن علي!

«وقتل ابن جرموز الزبير ثم أتى عليا يخبره . فقال علي: سمعتُ رسول الله(ص) يقول: قاتل ابن صفية بالنار»[3]

لأنه حتى تلك المرحلة لم تكن ثقافة قطع الرؤوس قد انتشرت كثيرا بين المسلمين. بل ان ظاهرة حمل الرؤوس المقطوعة سوف تستفحل ايام يزيد بن معاوية بعد مذبحة كربلاء، ومن بعده ايام عبد الملك بن مروان والحجاج.

وروى ابن عبد البر في الاستيعاب ان ابن جرموز جاء حاملاً راس الزبير المقطوع الى علي فبشره بالنار مما جعله يقول شعراً عبر فيه عن استيائه من علي. وأخرج الحاكم النيسابوري في المستدرك ان القاتل جاء برأس الزبير الى علي.

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد.

(2) انساب الاشراف للبلاذري من طريق ابي مخنف.

واما الدينوري في الاخبار الطوال فذكر ان ابن جرموز رد على كلام علي *«قتل اعداءكم وتبشرونا بالنار»*

(3) رواية ابن حبان في كتاب الثقات. واما الحاكم النيسابوري في المستدرك فيجعل الحديث النبوي هكذا *«سمعت رسول الله(ص) يقول: لكل نبي حواري، وان حواري الزبير»*. وقال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري عن حديث البشرى بالنار *أخرجه أحمد والترمذي وغيرهما وصححه الحاكم من طرق بعضها مرفوع*

وابن عساكر أخرج في تاريخ دمشق عددا كبيراً من الروايات بها صيغ مختلفة لتبشير علي لقاتل الزبير بالنار وتحسّره على الزبير الذي «طالما جلا سيفه الكربَ عن وجه رسول الله». ومعظم هذه الروايات هي عن الزبير بن بكار (وهو حفيدٌ للزبير بن العوام).

وليس من المستبعد أن يكون عليٌ قد عبر عن حزنه وأسفه لهذه النهاية لابن عمته ورفيقه في صحبة رسول الله(ص) . بل ان ذلك مرجح وينسجم مع أخلاق علي وسيرته. ولكن الأرجح ان يكون ذلك الجزء الذي يتحدث عن بشارة عليّ لقاتل الزبير بالنار من اضافات الرواة الذين أرادوا أن يحافظوا على فكرة العشرة المبشرين بالجنة والذين من ضمنهم الزبير.

فعليّ كان يعرف ان هذه حرب كبيرة، وانه هو شخصياً بذل مجهودا هائلاً لاستقطاب اهل الكوفة ودفعهم الى القتال في صفوفه ضد خصومه. والحروب لها ضحاياها دائماً وليس من الانصاف ان يذهب رجل قاتل تحت راية علي الى جهنم لأنه أدى واجبه في حرب مفتوحة. كلامٌ كهذا من شأنه أن يزعزع ثقة اتباع علي بأنفسهم.

هل قتل مروانُ طلحة بن عبيد الله؟![1]

تقول الروايات أن مروان بن الحكم رمى طلحة بسهم أثناء المعركة فقتله! وأن ذلك كان ثأراً من مروان لدم عثمان الذي يحمّله لطلحة!

ويكاد يوجد اجماعٌ بين المؤرخين على ذلك الى درجة ان العلامة ابن عبد البر في الاستيعاب، وبعد أن ذكر عدة روايات عن قيس بن ابي حازم،

(1) مصادر هذا البحث: الاستيعاب لابن عبد البر(ص 360-361)، الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين (ج3 ص370)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج5 ص38 و ج3ص223)، انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص43)، كتاب الثقات لابن حبان(ج2 ص283)، ابن حجر العسقلاني في فتح الباري (ج7 ص66)، الاخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري (ص148)، ابن عساكر في تاريخ دمشق (ج57 ص259)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص182)، سير اعلام النبلاء للذهبي(ج1 ص36) وكتاب الفتوح لابن اعثم(ج2 ص478)، شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد (ج9 ص115)، تاريخ خليفة بن خياط (ص138-139).

والجارود، وابن سيرين وغيرهم كلها تفيد بأن مروان بن الحكم رمى طلحة بسهم فقتله، ثاراً لعثمان، قال «*ولا يختلف العلماء الثقات في أن مروان قتل طلحة يومئذ، وكان في حزبه*»

وتلخص رواية ابن عساكر في تاريخ دمشق حادثة مقتل طلحة . فيقول ان مروان بن الحكم «*لما رأى انكشافَ الناس نظر الى طلحة بن عبيد الله واقفاً فقال: والله ان دم عثمان إلاّ عند هذا . هو كان أشد الناس عليه وما أطلب أثراً بعد عين.*

ففوّق له بسهم فرماهُ به فقتله»[1]

وأكد ذلك المعنى ايضا ابن اعثم في كتاب الفتوح حيث ورد فيه ان مروان قال لغلامه «*والله اني لأعلم انه ما حرّض على قتل عثمان يوم الدار أحدٌ كتحريض طلحة، ولا قتله سواه!*» قبل أن يرميه بسهم مسموم.

بل ان البلاذري في انساب الاشراف يقول ان مروان بعد ان أصاب طلحة بسهمه التفت الى ابان بن عثمان بن عفان وقال له «*قد كفيتك احد قتلة أبيك*»!

والمصدر القديم، ابن سعد، استرسل في الحديث عن هذا الموضوع، وأخرج في طبقاته مجموعة روايات تفيد أن مروان قتل طلحة عن عدة اشخاص وطرق اسناد: عوف، ونافع، وابن سيرين، وشيخ من كلب، وقيس بن أبي حازم،،،، بعضها تقول ان السهم أصابه في(ساقه)، أو (ركبته) أو (فرجةٍ في درعه)، وأنه كان (واقفاً إلى جنب عائشة) أو (في الخيل) أو (لما جال الناس).

وقد وجدتُ رواية قتل مروان لطلحة هذه في المصادر التالية: تاريخ اليعقوبي[2]، والاخبار الطوال للدينوري[3]، وكتاب الثقات لابن حبان، وفتح

(1) وابن عساكر أخذ روايته عن ابن سعد والذي هو من المصادر القديمة.

(2) وفيه «*فقال طلحة لما سقط: تالله ما رأيتُ كاليوم قط شيخاً من قريش أضيع مني ! اني والله ما وقفتُ موقفاً قط إلاّ عرفتُ موضع قدمي فيه، إلاّ هذا الموقف*». وانا استبعد ان يكون طلحة قد وصف نفسه بالضياع هكذا، فهو قد وصل لهذا الوضع عن معرفةٍ وتدبير وليس عفو الخاطر.

(3) وسياق روايته يوحي ان مروان رمى طلحة بالسهم القاتل لما رآه يهمّ بالانسحاب من المعركة كما فعل الزبير.

الباري لابن حجر العسقلاني[1]، والمستدرك على الصحيحين للحاكم[2]، وشرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد[3] وتاريخ خليفة بن خياط[4] وسير اعلام النبلاء للذهبي، بالاضافة الى الذين ذكرناهم اعلاه.

ورغم وفرة هذه الروايات وتكرارها في العديد من المصادر إلاّ اني أشك في صحتها شكاً كبيراً، بل وأعتقد ببطلانها وبكونها ملفقة لأهداف ومآرب في نفوس رواتها.

وأرى ان هناك هدفين من ورائها: الأول هو تلطيخ سمعة مروان بن الحكم والاساءة له عن طريق إظهاره بمظهر القاتل الغادر. والثاني هو إبراز مسؤولية طلحة في التحريض على عثمان، وبالتالي إظهاره ككذابٍ ادّعى الطلب بدم عثمان وهو قاتله!

والقول ان طلحة مسؤول عن التحريض على عثمان والتشجيع على قتله غير صحيح، بل هو كذب وادعاء مصدره أناسٌ أرادوا تشويه موقف طلحة . وقد ناقشنا في الجزء الاول من هذه السلسلة (أخبار الفتنة الكبرى - عهد عثمان بن عفان) هذا الامر بالتفصيل وبينا ان أقصى ما صدر من طلحة تجاه عثمان لا يزيد عن عتبٍ ولوم، أو غضبٍ عابرٍ بسبب بعض سياسات الخليفة عثمان.

وأما سمعة مروان بن الحكم ومواقفه، فهي ليست بحاجة إلى المزيد من التلطيخ! فهي ملوثة بما فيه الكفاية. وإن في سيرته قبل حرب الجمل وبعدها من المثالب والعيوب، ما يُغني كارهيه عن الحاجة إلى تحميله مسؤولية قتل طلحة وإضافتها إلى سجلّه. إذ لا يمكن تصوّر أن مروان يقتل قائد الجموع المعادية لعليّ في المعركة.

---

(1) وفيه قال عن طلحة «رمي بسهم، جاء من طرق كثيرة ان مروان بن الحكم رماه»، وكان يومئذ أول قتيل»

(2) ذكر الحاكم عدة روايات حول مقتل طلحة، كلها تقول ان مروان بن الحكم هو الذي قتله. وبعض هذه الروايات هي عن أشخاص ذكروها بصيغة «شاهد العيان» مثل قيس بن ابي حازم وعكراش.

(3) وذكر روايات عن أبي مخنف، تنقل عن رجال سمعوا مروان يقول انه قتله، وأخرى تنقل عن عبد الملك بن مروان ان أباه أخبره انه هو الذي قتل طلحة

(4) وفيه يذكر ان مروان أقر أنه رمى طلحة بسهمٍ أصابه في نحره.

ألم يكن مروان يدرك أن قتل طلحة يمكن أن يؤدي إلى انهيار في جبهته، التي هو جزءٌ أساسيّ منها؟ أم هل إن مروان يريد النصرَ لعليّ؟ وإن كان حقاً أنّ مروان يعتبر طلحة قاتلاً لعثمان، فلماذا ينتظر إلى احتدام القتال ضدّ عليّ حتى يقتله؟ ولِمَ لم يقتله قبل ذلك، في مكة مثلاً؟

وبالاضافة الى هذا التحليل المنطقي فإن هناك من الروايات -وهي القلة- ما يدعم وجهة نظرنا بنفي مسؤولية مروان عن قتل طلحة.

ومنها رواية عن قتادة في الطبقات الكبرى لابن سعد تقول (*رمي طلحة فأعنق فرسه، فركض فمات في بني تميم. فقال بالله مصرع شيخ أضيع*). وبناء على هذه الرواية ليس هناك ما يمنع أن يكون طلحة قد سقط عن فرسه أثناء هزيمته من المعركة فمات.

وايضاً: روى ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة عن ابي مخنف:

«عن جندب بن عبد الله قال: مررتُ بطلحة وان معه عصابة يقاتل بهم، وقد فشت فيهم الجراح، وكثرهم الناس . فرأيته جريحا والسيف في يده، وأصحابه يتصدعون عنه رجلا فرجلا، واثنين فاثنين، وأنا أسمعه وهو يقول: عباد الله، الصبر الصبر، فإن بعد الصبر النصر والأجر.

فقلت له: النجاء النجاء، ثكلتك أمك! فوالله ما أجرت وما نصرت ولكنك وزرت وخسرت.

ثم صحت بأصحابه، فانذعروا عنه، ولو شئتُ أن أطعنه لطعنته. فقلت له: أما والله لو شئت لجدلتك في هذا الصعيد . فقال: والله لهلكت هلاك الدنيا والآخرة اذن!

فقلت له: والله لقد أمسيتَ وإن دمك لحلال، وإنك لمن النادمين.

فانصرف ومعه ثلاثة نفر. وما أدري كيف كان أمره، إلاّ أعلم أنه قد هلك»

وهذه الرواية يمكن قبولها . ففيها يظهر كيف دارت الدائرة على طلحة وهو في المعركة وكيف بدأ أصحابه يفرون عنه لما رأوا الهزيمة. والراوي هنا لم يشر الى مروان بن الحكم من قريب ولا بعيد واكتفى بالقول انه لا يعلم ما

جرى لطلحة بعد انصرافه وهو جريح . فربما يكون طلحة مات من أثر الجراح.

وفي رواية عن المدائني قال «لما أدبر طلحة وهو جريح يرتاد مكانا ينزله، جعل يقول لمن يمر به من أصحاب علي عليه السلام: أنا طلحة، من يجيرني؟ يكررها»

وهذه ايضا لا تشير لمروان.

كما ان هناك رواية لخليفة بن خياط في تاريخه تجعل السهم الذي أصاب طلحة مجهول المصدر «رُمي طلحة يوم الجمل بسهم في ركبته فكانوا اذا أمسكوها انتفخت واذا أرسلوها نبعت. فقال: دعوها فإنه سهمٌ أرسله الله»

فإذا لم يكن مروان هو من قتل طلحة، فكيف مات اذن ؟ والجواب: انها كانت حرباً كبيرة ومعركة طاحنة تتطاير فيها السهام والرماح ويتعارك الفرسان والراجلون ويختلط الحابل بالنابل. فلا عجب أن يكون طلحة قد خرّ صريعاً إثر طعنةٍ أو رمية قوسٍ، خاصة وأن جماعته قد هزموا شر هزيمة.

روايات ندم عائشة[1]

روى البلاذري في انساب الاشراف من طريق بكر بن الهيثم ان عائشة كانت تقول «ما انا وطلحة والزبير وبيعة من بويع وحرب من حورب. يا ليتني قررت في بيتي. ولكنها بلية جاءت بمقدار». وايضا روى من طريق هشام الكلبي انها قالت عن يوم الجمل «وددتُ اني متّ قبله بكذا وكذا عاماً». وروى ايضاً عن جميع بن عمير انها قالت بشأن خروجها «والله لوددت اني افتديت ذلك المسير بما عرض من شيء. ولكنه قدر». وايضا روى عن الدورقي «قالت عائشة: والله لأن أكون جلست عن مسيري أحب اليّ من ان يكون لي عشرة بنين من رسول الله(ص)». وروى عن الاعمش «حدثني من سمع عائشة تقرأ (وقرن في بيوتكن) فتبكي حتى تبلّ خمارها»

(1) مصادر هذا البحث: انساب الاشراف للبلاذري (ج3ص60 و ص46 و ص59)، مروج الذهب للمسعودي (ج2 ص289)، الكامل في التاريخ لابن الاثير (ص420)، كتاب الفتوح لابن اعثم (ج2 ص487).

وروى المسعودي في مروج الذهب ان عائشة لما وصلت المدينة قالت «*وددتُ اني لم أخرج وإن أصابتني كيت وكيت من أمور ذكرتها (شاقة). وانما قيل لي: تخرجين فتصلحين بين الناس، فكان ما كان*»

وروى ابن اعثم الكوفي «*فكانت عائشة اذا ذكرت يوم الجمل تبكي لذلك بكاء شديدا ثم تقول: يا ليتني لم اشهد ذلك المشهد! يا ليتني مت قبل هذا بعشرين سنة*»

وانا لا أستبعد أن تكون عائشة قد شعرت بالندم على النتيجة التي آلت اليها الأمور، وخاصة في أعقاب المعركة مباشرة ومقتل الزبير وطلحة والآلاف من المسلمين، وعبرت عن ذلك بقولها «وددت اني لم أخرج». ولكني أرجح ان هذا الشعور بالندم مرتبط بنتائج القتال وما جرى لأصحابها الذين قاتلوا معها أكثر من كونه ندماً على مبدأ خروجها على الامام علي ومعارضتها له. فهي قد عاشت طويلاً بعد حرب الجمل، أكثر من عشرين سنة، وكانت خلالها تعيش في حالة من الوفاق مع معاوية ونظام حكمه ولم يصدر عنها كلامٌ تعترف فيه بصحة وشرعية خلافة علي بن ابي طالب ولا بأنه كان على حق في مواقفه من اهل الجمل.[1]

خزعبلات سيف بن عمر: رواية المؤآمرة اليهودية[2]

من أهم روايات سيف بن عمر التي أوردها الطبري في تاريخه، هي تلك التي تتعلق بابن سبأ وتتحدث عن دوره المزعوم في تطورات معركة الجمل.

فقد ذكر سيف أنه أثناء المداولات التي سبقت المعركة سأل الأعور بن بنان المنقري علياً:

(1) وفي رواية لابن الاثير في الكامل ان علياً قال لها بعد انتهاء معركة الجمل «*كيف انت يا أمه؟ قالت بخير. قال: يغفر الله لك. قالت: ولك*». وان اجابتها هذه لا تدل على ندم بل تشير الى انها تعتبر الطرفين متساويين في المسؤولية، علما انها قالتها في ظروف صعبة كان من المتوقع معها ان تكون في ذروة الشعور بالندم.

(2) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج3 ص507 و ص518)

«فقال: أترى لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا من هذا الدم إن كانوا ارادوا الله عز وجل بذلك؟

قال: نعم ...»

وذكر أيضا أن علياً ألقى خطبة جاء فيها (عن مقتل عثمان):

«... ثم حدثَ هذا الحدث الذي جرّه على هذه الأمة أقوامٌ طلبوا هذه الدنيا. حَسَدوا من أفاءها الله عليه على الفضيلة. وأرادوا ردّ الأشياء على أدبارها...

ألا وإني راحلٌ غدا فارتحلوا. ألا ولا يرتحلن غداً أحدٌ أعانَ على عثمان رضي الله عنه بشيء من أمور الناس»

وقال سيف إن الفريقين المتحاربين اتفقا على الصلح فيما بينهما وتجنب القتال *«وأشرفَ القوم على الصلح، كره ذلك مَن كرهَهُ ورضيهُ مَن رضيه»*، وذلك بعد وساطة من القعقاع بن عمرو

«فباتوا على الصلح، وباتوا بليلة لم يبيتوا بمثلها للعافية من الذي أشرفوا عليه، والنزوع عما اشتهى الذين اشتهوا وركبوا ما ركبوا. وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشرّ ليلة قط. قد أشرفوا على الهلكة»

ثم بدأ سيفٌ يتحدث عن الأشرار المتآمرين الذين يتزعمهم عبد الله بن سبأ، وكيف عقدوا اجتماعاً تشاورياً ليحددوا خطواتهم المقبلة :

«فاجتمع نفرٌ منهم علباء بن الهيثم، وعدي بن حاتم، وسالم بن ثعلبة العبسي، وشريح بن أوفى بن ضبيعة، والأشتر، في عدةٍ ممن سارَ إلى عثمان، ورضي بسير مَن سار. وجاء معهم المصريون ابن السوداء وخالد بن ملجم.

وتشاوروا . فقالوا: ما الرأي؟ وهذا والله عليّ وهو أبصر الناس بكتاب الله ممن يطلب قتلة عثمان...

فقال الأشتر: أما طلحة والزبير فقد عرفنا أمرهما . وأما عليّ فلم نعرف أمره حتى كان اليوم. ورأيُ الناس فينا والله واحد. وإن يصطلحوا وعليّ فعلى دمائنا.

فهلمّوا فلنتواثب على عليّ فنلحقه بعثمان. فتعود فتنة يُرضى فيها منا بالسكون.

فقال عبد الله بن السوداء: بئسَ الرأي رأيتَ....

وقال علباء بن الهيثم: انصرفوا بنا عنهم ودعوهم....وارجعوا فتعلقوا ببلدٍ من البلدان ....

فقال ابن السوداء: بئسَ ما رأيتَ.....

فقال عدي بن حاتم: فإنّ لنا عتاداً من خيول وسلاحاً محمودا. فإن أقدمتم أقدمنا، وإن أمسكتم أحجمنا.

فقال ابن السوداء: أحسنتَ.

وقال سالم بن ثعلبة: .... والله لئن لقيتهم غداً لا أرجع إلى بيتي .... وأحلف بالله إنكم لتفرقون السيفَ فَرَقَ قوم لا تصير أمورهم إلاّ إلى السيف.

فقال ابن السوداء: قد قال قولاً.

وقال شريح بن أوفى: أبرموا أموركم قبل أن تخرجوا. ولا تؤخروا أمراً ينبغي لكم تعجيله، ولا تعجلوا امراً ينبغي لكم تأخيره. فإنا عند الناس بشرّ المنازل. فلا أدري ما الناس صانعون غدا إذا ما هم التقوا.

وتكلم ابن السوداء فقال: يا قوم إن عزّكم في خلطة الناس فصانعوهم. وإذا التقى الناس غداً فأنشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر. فإذا مَن أنتم معه لا يجد بداً من أن يمتنع. ويشغل الله علياً وطلحة والزبير ومَن رأى رأيهم عما تكرهون.

فأبصَروا الرأيَ وتفرقوا عليه والناس لا يشعرون»

ثم يقول سيف إن « المتآمرين » شرعوا في تنفيذ خطتهم

« ... اجتمعوا على إنشاب الحرب في السر. واستسرّوا بذلك خشية أن يفطن بما حاولوا من الشر.

فغدوا مع الغلس وما يشعر بهم جيرانهم. انسلّوا إلى ذلك الأمر انسلالاً وعليهم ظلمة.

فخرج مُضَريهم إلى مُضَريهم، وربيعهم إلى ربيعهم، ويمانيهم إلى يمانيهم، فوضعوا فيهم السلاح.

فثار أهل البصرة . وثار كل قوم في وجوه أصحابهم اللذين بهتوهم»

وهكذا إذن صوّر سيف بن عمر موضوع حرب الجمل. وهكذا أوردها الطبري دون أن يشير إلى التناقضات الهائلة فيها، والتي لا تخفى على مثله.

فلا يمكن أبداً تخيّل الأشتر وهو يقترح قتل علي بن أبي طالب.

وعلي بن أبي طالب لا يمكن ان يقرّ بشرعية الخارجين عليه ويعترف بشرعية طلبهم بدم عثمان. فهو لم يقر بذلك الحق حتى لمعاوية، ابن عم عثمان، فكيف يقر به لعائشة والزبير وطلحة؟

وليس هناك ذكرٌ لتفاصيل وشروط ذلك الصلح المزعوم. فعلى ماذا اتفق الطرفان؟ ليس هناك أي إشارة إلى قبول ام المؤمنين والصحابيّين بخلافة عليّ. وعليّ يستحيل أن يقبل بغير ذلك.

كيف يمكن أن يكون الثوار المصريون الذين شاركوا في قتل عثمان موجودين في البصرة؟ هم عادوا إلى مصر بعد الأحداث.

ليس صحيحاً على الإطلاق أن يكون تقييم عليّ لمن تمرّدوا على عثمان بأنهم قومٌ «طلبوا هذه الدنيا وحسدوا من أفاءها الله عليه».

فعلى العكس من ذلك، كان عليّ يعتبر عثماناً ورجاله من بني أمية هم الذين طلبوا هذه الدنيا واستأثروا على المسلمين.

ومتى كان عدي بن حاتم الطائي من المتهمين بقتل عثمان؟

ومما يلفت النظر برواية سيف هذه، تلك الأجواء التآمرية، التي تظهر عبد الله بن سبأ وهو يدير النقاش، ويستمع للآراء، ويقيّمها ويعلّق عليها، يرفض هذا الرأي ويصوّب غيره، إلى أن يصدر أمره الجازم بإنشاب القتال، فتقوم «قواته» بالتنفيذ على الفور.

وهدف سيف بن عمر، ومعه الإمام الطبري، من حبكاته هذه واضحٌ

وجليّ: تبرئة الصحابة، وبالتحديد الذين تمردوا على عليّ فأشعلوا حرب الجمل، من تهمة سفك دماء المسلمين والإفساد في الأرض وزرع الفتنة وشق صفوف الأمة.

وليس من سبيل لذلك سوى اللجوء لشخصية اليهودي الأسطوري الخبيث عبد الله بن سبأ (ابن السوداء).

ولا عجب أن تكون هذا الرواية الاسطورية المؤآمراتيّة هي المحبية والمفضلة لدى المذهب السني الرسمي بشأن موضوع الفتنة الكبرى ومعركة الجمل، حتى لو كانت ضعيفة ومهلهلة وانفرد بها راوٍ واحدٍ كذاب.

الفصل السابع :آثار حرب الجمل

أثر المعركة على أهل البصرة[1]

وقد تركت معركة الجمل آثاراً بعيدة المدى على المعسكر العراقي. لقد كانت مقتلة داخلية بين العراقيين من أبناء القبائل العربية في البصرة والكوفة. وعلى الرغم من أن علياً خرج منها منتصراً، إلاّ أنه كان انتصاراً مُرّا، مليئا بالدماء ويحمل بذور شقاق فظيعة. كان انتصارا لعليّ على جزء مهم من أنصاره وجنوده!

لقد عانت بعض قبائل البصرة خسائر فادحة في القتلى من أبنائها، مما ولّد بلا شك شعوراً بالحقد والمرارة تجاه كل ما جرى.

روى المسعودي في مروج الذهب « *وقيل لأبي لبيد الجهضمي من الأزد: أتحب عليا؟*

قال: وكيف أحب رجلاً قتل من قومي في بعض يوم الفين وخمسمائة، وقتل من الناس حتى لم يكن أحد يعزي أحداً، واشتغل اهل كل بيت بمن لهم؟ »

ولا عجب في قول ابي لبيد الجهضمي هذا. فقبيلته تكبدت خسائر مهولة يوم الجمل: يؤكد المؤرخون ان قبيلة الأزد -ذات الأصل اليماني- قتل من

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج3 ص542) و تاريخ خليفة بن خياط (ص139)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص 182)، التنبيه والإشراف للمسعودي (ص256) وايضا مروج الذهب للمسعودي (ج2 ص287 و ص289)، انساب الاشراف للبلاذري (ج3 ص58-59).

رجالها ما بين 2000 الى 2500[1]! وهذا رقم مرعب فعلًا

وكذلك بنو ضبة الذين يقول المؤرخون انهم خسروا ما بين 800 الى 1100 رجلاً[2]

وقيس خسرت 500 من رجالها[3]

وقبيلة تميم[4] 500

وبكر بن وائل ايضا خسرت 500 من رجالها[5]

وطبعاً لا يمكن الوثوق تماما بدقة هذه الارقام، ولكن من المؤكد أن هناك قبائل كاملة قد حلّت بها كوارث رهيبة. روى المسعودي في مروج الذهب ان نسوة أهل البصرة لما رأين علياً في أعقاب المعركة صِحْن في وجهه «*يا قاتل الأحبة*»!

أثر حرب الجمل على مستقبل الصراع

وبالرغم من شعور المرارة والنقمة الذي ملأ صدور الكثيرين من أهل العراق بسبب حجم الخسائر بينهم، إلاّ أنه كان لحرب الجمل نتيجة مباشرة: وهي إظهار مدى حزم عليّ فيما يتعلق بموضوع شرعيته، وإظهار عزمه الأكيد على السير في الطريق إلى النهاية من أجل تثبيت حكمه والقضاء على الخارجين عليه.

---

(1) تاريخ الطبري، وايضا تاريخ خليفة بن خياط .اما اليعقوبي فذكر في تاريخه ان قتلى الأزد كانوا 2700. بل ان المسعودي في التنبيه والإشراف يذكر 4000 قتيل من الأزد ! وكذلك فعل ابو مخنف في انساب الأشراف للبلاذري. ولكن هناك رواية اخرى لدى البلاذري عن محمد بن أبي يعقوب تنزل بعدد قتلى الأزد الى 1350 رجلاً.

(2) البلاذري في انساب الاشراف و تاريخ خليفة بن خياط، و تاريخ الطبري . وايضا المسعودي في التنبيه والإشراف . اما اليعقوبي في تاريخه فيجعل الرقم 2000 قتيلاً من بني ضبة!

(3) تاريخ الطبري .

(4) تاريخ الطبري . رغم ان القسم الأعظم من هذه القبيلة لم يشارك في الحرب بل اعتزل القتال مع زعيمه الأحنف بن قيس.

(5) تاريخ الطبري .

رأى أهل العراق أن الخليفة الجديد لم يتردد لحظة في مواجهة أم المؤمنين ومعها اثنين من الصحابة الكبار، وأن حرص الخليفة على حقن الدماء لم يمنعه من القتال في سبيل قضيته. وبعد حرب الجمل، حزم المترددون أمرهم[1]، وزال الشعور باللايقين الذي ميّز الأشهر التي سبقت المعركة. فها هو عليّ بينهم بنفسه ليقودهم، وبدا لكل العراقيين أن المستقبل مع عليّ، فانقادوا له وقرروا المضيّ معه وخلفه. وسوف يستمر هذا الإيمان الجماعي بحتمية انتصار عليّ والشرعية إلى أن يبدأ بالتهاوي في أعقاب معركة صفين.

وأرسلت حرب الجمل رسالة أخرى إلى كل أنصار النظام القديم في العراق، ممن كانوا مرتبطين بحكم عثمان وولاته وإدارته، بأنّ زمانهم قد مضى وأنّ لا مجال أمامهم سوى الخضوع لسلطان عليّ. لقد تحطمت الروح المعنوية لهؤلاء، وفقدوا ثقتهم بقدرتهم على تحدّي عليّ، إلى درجة دفعت أحد أركان حكم عثمان الرئيسيين، عبد الله بن عامر بن كريز، إلى فقدان الأمل في القدرة على حرب عليّ في المستقبل، وبالتالي قرر الهروب بجلده إلى الشام دون أن يأتي معاوية لينضم إلى صفوفه، خوفاً من يوم آخر كالجمل! روى صاحب الإمامة والسياسة أن

«عبد الله بن عامر لحق بالشام، ولم يأتِ معاوية، وخاف يوماً كيوم الجمل.

فبعث إليه معاوية أن يأتيه وألحّ عليه.

فكتب ابن عامر: أما بعد، فإني أخبرك أني أقحمتُ طلحة والزبير إلى البصرة، وأنا أقول: إذا رأى الناس أم المؤمنين مالوا إليها. وإن فرّ الناسُ لم يفرّ الزبير، وإن غدر الناس لم يغدر مروان. فغضبت عائشة ورجع الزبير وقتل مروان طلحة. وذهب مالي بما فيه، والناس أشباه واليوم كأمس. فإن أتبعتني هواي وإلاّ أرتحل عنك والسلام»[2].

(1) فمثلا: الأحنف بن قيس، زعيم تميم في البصرة، الذي كان اعتزل القتال يوم الجمل، شارك مع عليّ في صفين. ذكر ذلك ابن الأثير في أسد الغابة (ج1 ص55)
(2) الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص108)

وسوف يبذل معاوية جهداً في رفع معنويات ابن عامر واقناعه بالقدرة على مواصلة الصراع ضد عليّ حتى انضمّ إلى صفوفه. ولم يغِب عن ذهن معاوية تذكير ابن عامر أنه لن يرى يوماً هنيئا واحدا في ظل عليّ، الذي لا شك لن ينساه!

وقد كان معاوية وجماعته مدركين لحجم المصيبة التي حلّت بأهل العراق نتيجة حرب الجمل. فخطب عمرو بن العاص في أهل الشام، لما بلغهم مسير عليّ والعراقيين يريدون دخول الشام، لكي يهوّن عليهم الأمر ويرفع من معنوياتهم:

«إن صناديد الكوفة والبصرة قد تفانوا يوم الجمل، ولم يبقَ مع عليّ إلاّ شرذمة قليلة من الناس،،،،»[1]

وعلى الرغم من أن علياً نجح في تجاوز الشعور بالمرارة عند العراقيين عن طريق سياسته المتسامحة تجاه المهزومين وسرعة ضمهم إلى صفوف جيشه، إلاّ أن ذلك الشعور كان يطفو بين مناسبة وأخرى ويتمثل في نوع من التقاعس والتخاذل عن الاستجابة إلى مناشدات عليّ المتكررة للعراقيين، وبالذات في مرحلة ما بعد صفين. وقد روى الطبري أنه عندما سعى عليّ إلى معاودة الهجوم على أهل الشام في أعقاب معركة صفين ومؤتمر التحكيم، لم ينجح واليه على البصرة عبد الله بن عباس في حشد سوى 3200 مقاتل من أهل البصرة، في مقابل 65 ألفاً حشدهم علي من أهل الكوفة!

ووفرت نتائج حرب الجمل ذخيرة دعائية مهمة لمعاوية. ولم يتوانَ عن البدء بالمتاجرة بدماء الزبير وطلحة وإهانة أم المؤمنين على يد عليّ! جاء في إحدى رسائله لعليّ :

«... ثم ما كان منكَ بعدما كان، من قتلكَ شيخَيّ المسلمين أبي محمد طلحة وأبي عبد الله الزبير، وهما من الموعودين بالجنة، والمبشرُ قاتلُ أحدهما بالنار في الآخرة . هذا إلى تشريدكَ بأم المؤمنين عائشة وإحلالها

(1) البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص 282)

محل الهون، متبذلة بين أيدي العراب وفَسَقة أهل الكوفة. فمن بين مشهّرٍ لها، وبين شامتٍ بها، وبين ساخرٍ منها ...»[1]

المسؤولية التاريخية

ولا بد من التعرض للمسؤولية التاريخية عما جرى يوم الجمل. فلا يمكن تجاهل ما حصل لأن الخسائر كانت فادحة، وقد نتج عن تلك الحرب أعداد هائلة من الأيتام والأرامل والثكالى والمشرّدين والمحطّمين، ونتج عنها خراب ودمار في البلاد والعباد. وقد ولّدت تلك الحرب أحقاداً لا تندثر بين الناس. كانت معركة الجمل أول حربٍ أهلية في الإسلام، وفيها شَهَرَ العرب المسلمون سيوفهم على بعضهم البعض، بعد أن كانوا لا يشهرونها إلاّ على أعدائهم من الأعاجم من أبناء الأمم الأخرى.

ولأن الأشخاص المعنيين بهذه الفتنة لهمّ ثِقلٌ كبير في المعايير الإسلامية، فقد برز اتجاهٌ قوي، تولى الترويج له كثيرٌ من المنظّرين المتعاطفين مع الحكام والسلاطين على مرّ العصور، يميل إلى التهوين من شأن ما حصل، بل ويدعو إلى النهي عن «الخوض» في هذه المسائل! والسبب هو تلك الصورة التي روّجوا لها عن أبطال ذلك الصراع: «المبشّرين بالجنة»، الزّهاد في الدنيا، أصحاب الورع والعدول جميعاً. ولذلك كان صعباً على هؤلاء تفسير ما أحدثه أم المؤمنين عائشة والصحابيين الكبيرين طلحة والزبير من فعل يمكن وصفه بالإفساد في الأرض وزرع أسس الشقاق في أمة محمد(ص). ومثالٌ على ذلك الاتجاه ما قاله ابن العربي[2] عن عائشة وما فعلته يوم الجمل بأنها «*كانت مجتهدة، مصيبة، مثابة فيما تأولت، مأجورة فيما فعلت. إذ كل مجتهدٍ في الأحكام مصيب*». فكأن هذا الاتجاه يريد أن يقول أن كل ما جرى هو عبارة عن «خطأ فقهي»، لا أكثر ولا أقل!

فهل يمكن افتراض البراءة وحُسن النية في تصرّف عائشة والزبير وطلحة؟

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج17 ص252)
(2) ورد ذلك في تفسير القرطبي لسورة الأحزاب آية 33

لا يمكن اعتبار خروجهم على الإمام عليّ محاولة بريئة للإصلاح . بل كان له هدفٌ جوهري: القضاء على خلافة عليّ، من أجل الاستمرار في مسلسل تداول الخلافة بين بطون قبيلة قريش حسب نظام عمر بن الخطاب، مع استثناء الفرع الهاشمي منها - وبالتحديد عليّ - تماماً.

وهم كانوا يدركون أن هذا مشروعٌ عالٍ وهدف كبيرٌ جداً، وأنه لن يتمّ دون حربٍ وقتال، وكانوا مستعدّين للتضحية بكل شيء في سبيل ذلك الهدف الكبير. فهم حين قرروا الخروج كانوا ينوون شنّ الحرب وكانوا يتوقعون سقوط خسائر من طرفهم، كما في كل الحروب، ولكنهم رأوا ذلك ثمناً لا بد من دفعه في سبيل قضيتهم الكبيرة. فمثلاً روى الطبري أن عبد الله بن الزبير، أثناء الاستعدادات للمسير إلى البصرة، قد طلبَ من أخويه الشقيقين البقاء في مكة وعدم الخروج فقال «*يا عروة: أقِم! ويا منذر: أقِم*» . ولما سأله أبوه عن سبب طلبه ذاك أجابه «... *ولا تعرّض أسماءَ للثكلِ من بين نسائك*»[1]

من المؤكد أن عائشة والزبير وطلحة كانوا يمتلكون من الخبرة السياسية ما يكفي لكي يجعلهم مُدركين بأنهم بتمرّدهم ذاك يهددون مؤسسة الخلافة ذاتها. هم كانوا يعرفون ذلك ولكنهم رأوا أن استعادة مبدأ تداول الخلافة بين البطون القرشية بقيادة المهاجرين تستحق هذه التضحية والمغامرة. هم كانوا يرون أن علياً كان يقوم بإلغاء وسحق ذلك المبدأ، الناجح والصحيح بنظرهم، وأنه في طريقه أخيراً إلى تأسيس حكم هاشميّ يجمع بين مَجدَي النبوّة والخلافة، وسوف يُبعِد قريشاً ويهمّشها. وذلك بنظرهم مُضِرٌ ولا يجوز.

وربما كانت عائشة تشعر بنوعٍ من المسؤولية تجاه «أبنائها» وبأنّ عليها واجباً في رعايتهم وتوجيههم إلى ما تراه خيراً لدين محمد(ص) ودولته من بعده. وربما يكون هناك شعورٌ مشابهٌ لدى الزبير وطلحة، كونهما صحابيين كبيرين، تجاه عامة المسلمين في ضرورة التصدّي للإنحراف الخطير الذي يؤسس له عليّ.

(1) تاريخ الطبري (ج3 ص478)

ولكن إذا كان من الممكن أن يكون الثلاثة قد أقنعوا أنفسهم أنهم يقومون بما عليهم من واجبٍ ومسؤولية بحكم وضعهم في الإسلام، إلاّ أنه كان عليهم أن يدركوا أنهم كان يتم استغلالهم من قبل طبقة الطلقاء وأعضاء الجهاز الأموي الحاكم في جهدهم للحفاظ على مزاياهم ووضعهم في الدولة، عن طريق مواجهة الخليفة الجديد. كان الطلقاء والجهاز الأموي مستعدّين لخوض حرب وجودٍ لا هوادة فيها ضد عليّ، ولكنهم كانوا بحاجةٍ ماسّةٍ إلى واجهةٍ وغطاءٍ شرعيّ يستعملونه في تلك الحرب التي بدأوا يجهزون لها. ولذا التفّ هؤلاء حول عائشة والزبير وطلحة ووضعوهم في الصدارة ورفعوهم إلى الواجهة. لقد تولى هؤلاء التخطيط والتمويل والتنظيم لحركة الثلاثة، وكانوا عنصر تحفيزٍ شديدٍ لهم، لإعلان التمرّد.

وقد قبل الثلاثة عن طيب خاطر تلك «المساعدات» التطوّعية الكبيرة التي قدمها الطلقاء والجهاز الأموي. ويبدو أن عائشة والزبير وطلحة قدّروا أن بإمكانهم إبقاء صراعهم مع عليّ ضمن نطاق طبقة كبار الصحابة من ذوي الشرعية. وربما ظنوا أن هزيمة عليّ من شأنها أن تعيد الخلافة تلقائياً إلى طبقة كبار المهاجرين القرشيين. ولكن تقديرهم كان خاطئاً، وظنهم كان وهماً. فقد كان الطلقاء والجهاز الأموي بلغوا في عهد عثمان من القوة حداً يجعلهم قادرين على فرض برنامجهم وسياستهم سواء رضي كبار الصحابة وأم المؤمنين أم لم يرضوا. لقد وصف معاوية بن أبي سفيان، قبل سنةٍ من هذه الأحداث، كبار الصحابة بأنهم «*كالشامة السوداء في الثور الأبيض*» معبراً عن وضعهم بين عامة المسلمين. وكان دقيقاً في وصفه ذاك. كان على أم المؤمنين والزبير وطلحة أن يدركوا أن هزيمة عليّ لن تؤدّي إلاّ إلى صعود نجم الطلقاء والجهاز الأموي. وذلك تماماً ما حصل في نهاية المطاف.

عليٌّ والثائرون

وفي المقابل، تجب الإشارة إلى أن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب لم يبعد نفسه بما فيه الكفاية عن أوساط الثائرين القادمين من الأمصار والذين كان قاتلوا عثمان من بينهم. لقد بَدا عليٌّ قريباً جداً منهم، فلم يبعدهم عنه، وكانوا

من الدائرة المحيطة به، وهذا ما مكّنَ خصومه الكثر من القول إنه متورّطٌ بقتل عثمان عن طريق الإيعاز بذلك إلى أتباعه هؤلاء . وعلى أقل تقدير إنه زعيم القتلة والغوغاء.

وبالتدقيق في سيرة الإمام علي، يمكن التأكيد على أنه لم يصدر عنه، طوال فترة حكمه، ما يشير إلى أي جديةٍ في اتخاذ أي خطواتٍ عقابية تجاه مجمل الثائرين على عثمان. فلم يقم بأي إجراءات عملية لمحاسبتهم .

روى السيوطي[1] أنه بعد بيعته «*جاء علي الى امراة عثمان فقال لها: من قتل عثمان؟*

قالت: لا أدري! دخل رجلان لا أعرفهما، ومعهما محمد بن أبي بكر . وأخبرت علياً والناسَ بما صنع محمد .

فدعا عليٌ محمداً، فسأله عما ذكرت امرأة عثمان؟

فقال محمد: لم تكذب. قد والله دخلتُ عليه وأنا أريد قتله، فذكرني أبي، فقمتُ عنه وانا تائبٌ الى الله تعالى. والله ما قتلته ولا أمسكته.

فقالت امرأته: صدق! ولكنه أدخلهما»

فحسب هذه الرواية اكتفى عليٌ بجواب محمد، ولم يقم بسؤاله عن شركائه في الاقتحام، ولم يقم بأي بتحقيق جدي حول الأمر.

ويلاحظ أن علياً قام، عن علم وإرادة، بتعيين عدد من الأشخاص المتهمين بقتل عثمان في مناصب مهمة في حكومته، واعتمد عليهم في إدارته. وكان الثائرون يرون في سياسة الخليفة عليّ تلك إقراراً منه لهم على تصرفاتهم .

روى ابن أبي الحديد[2] عن المدائني أن عليا كتب لأهل مصر لما أرسل الأشتر عليهم والياً «*أما بعد.. فقد وجهتُ إليكم عبدا من عباد الله لا ينام في الخوف، ولا ينكل من الأعداء حذار الدوائر. أشدّ على الكافرين من حريق*

(1) تاريخ الخلفاء (ص191)
(2) شرح نهج البلاغة (ج6 ص78). وروى ابن ابي الحديد هذه الرواية أيضا عن الشعبي (ص75) وبألفاظ قريبة من هذه، بل وفيها إضافة «*وأبعد الناس من دنس أو عار*»

النار، وهو مالك بن الحارث الأشتر، أخو مذحج. فاسمعوا له وأطيعوا، فإنه سيف من سيوف الله، لا نابي الضريبة ولا كليل الحد. فإن أمركم أن تقيموا فأقيموا، وإن أمركم أن تنفروا فانفروا، وإن أمركم أن تحجموا فاحجموا، فإنه لا يقدم ولا يحجم إلاّ بأمري. وقد آثرتكم به على نفسي لنصيحته وشدة شكيمته على عدوه..»

وجديرة بالملاحظة تلك الأوصاف التي أطلقها علي على الأشتر والتي لا تصدر إلاّ عن رأي بالغ الإيجابية بحقه.

وهناك بعض الإشارات إلى أن علياً كانت لديه النية في إجراء نوع من المحاكمة للأشخاص الضالعين مباشرة بقتل عثمان، ولكن حسب الأصول الشرعية تماماً، وأولها أن يتقدم ذوو عثمان بطلبٍ له، بوصفه الخليفة المسؤول، بالقصاص من هؤلاء الذين قتلوا عثمان بدون قاضٍ ولا محكمة. وهذا ما لم يحصل. والمحكمة بنظر عليّ يجب أن تقوم على الأدلة والقرائن والشهود، وأن يتم تحديد كل متهم بذاته.

وظهر من عليّ ما يشير إلى تهوينه من موضوع قتل عثمان بجملته. فالأمر هامشيٌ بنظره وليس له الأولوية، ولا بأس بتأجيل النظر فيه إلى ما بعد أن تستتب أموره في الحكم.

ولا بد من الإشارة أيضاً إلى أنه كان هناك ارتباط عاطفيّ وثيقٌ لمجمل الثائرين على عثمان بشخص عليّ بن أبي طالب. فمثلاً روى نصر بن مزاحم[1] نصاً يعبّر فيه عمرو بن الحمق الخزاعي، وهو من المتهمين بقتل عثمان، عن أسباب ولائه لعليّ بأسلوب عاطفيّ أخّاذ. فقال له أثناء الاستعداد للسير إلى صفين: *«إني والله يا أمير المؤمنين ما أحبَبتكَ ولا بايعتكَ على قرابةٍ بيني وبينك، ولا إرادة مال تؤتينيه، ولا التماس سلطان يُرفع ذكري به. ولكن أحبَبتك لخصال خمس: أنك ابن عم رسول الله(ص) وأول مَن آمن به، وزوج سيدة نساء الأمة فاطمة بنت محمد(ص)، وأبو الذرية التي بقيت فينا من رسول الله(ص)، وأعظم رجل من المهاجرين سهماً في الجهاد. فلو أني كلفتُ نقلَ الجبال الرواسي، ونزحَ البحور الطوامي، حتى يأتي على يومي في أمرٍ أقوى به وليّكَ، وأوهن به عدوّك، ما رأيتُ أني قد أديتُ فيه كل الذي يحق عليّ من حقك»*

(1) وقعة صفين لنصر بن مزاحم (ص103).

مصادر الكتاب

* عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير، توفي 630 للهجرة:
* أسد الغابة في معرفة الصحابة، تصحيح مصطفى وهبي. المطبعة الوهبية 1280.
* الكامل في التاريخ
* اللباب في تهذيب الانساب، دار صادر، بيروت.
* أبو الحسن علي بن عيسى ابن أبي الفتح الاربلي، توفي 693 للهجرة، كشف الغمة في معرفة الأئمة، دار الاضواء، بيروت، الطبعة الثانية 1405هـ-1985م.
* أحمد ابن أعثم الكوفي، توفي 314 للهجرة، كتاب الفتوح، تحقيق: علي شيري،الطبعة الأولى، سنة 1411هـ-1991م، مطبعة دار الأضواء، الناشر: دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع
* محسن الأمين، أعيان الشيعة، حققه وأخرجه حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت.
* أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، توفي 256 للهجرة:
* الجامع الصحيح، طبعة دار الجيل، بيروت - لبنان
* التاريخ الصغير، تحقيق محمود ابراهيم زايد، الطبعة الأولى 1406، دار المعرفة - بيروت.
* محمد بن حبيب البغدادي، توفي 245 للهجرة، المنمق في أخبار قريش، صححه وعلق عليه خورشيد أحمد فاروق، 1964، مطبعة دائرة مجلس المعارف العثمانية -حيدر أباد- الهند

* أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، توفي 279 للهجرة:
* أنساب الأشراف، حققه وعلّق عليه محمد باقر المحمودي، منشورات مؤسسة الأعلمي - بيروت ط1، 1394 - 1974.
* أنساب الأشراف، تحقيق / سهيل زكار، ورياض زركلي. دار الفكر، 1417.
* فتوح البلدان، مطبعة لجنة البيان العربي - القاهرة.
* ابو عيسى الترمذي، توفي 279 للهجرة، سنن الترمذي (وهو الجامع الصحيح)، حققه وصححه عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية 1983.
* أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، توفي 255 للهجرة، البيان والتبيين، وضع حواشيه موفق شهاب الدين، الطبعة الأولى 1998، دار الكتب العلمية - بيروت.
* هشام جعيط، معاصر، الفتنة، دار الطليعة - بيروت، الطبعة الرابعة 2000
* أبو عبد الله محمد بن محمد الحاكم النيسابوري، توفي 405 للهجرة، المستدرك على الصحيحين، تحقيق د. يوسف المرعشلي، دار المعرفة - بيروت. 1406
* محمد بن حبان أبو حاتم البستي التميمي السجستاني، توفي سنة 354 للهجرة
* صحيح ابن حبان، تأليف الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، 1993
* كتاب الثقات، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية 1393 - حيدر أباد/ الهند. الناشر مؤسسة الكتب الثقافية
* أبو الفضل شهاب الدين ابن حجر العسقلاني الشافعي، توفي 852 للهجرة.
* الاصابة في تمييز الصحابه ،دراسة وتحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت / الطبعة الأولى 1995
* فتح الباري في شرح صحيح البخاري، الطبعة الثانية، دار المعرفة - بيروت.
* عز الدين أبو حامد بن هبة الله ابن أبي الحديد، توفي 656 للهجرة، شرح نهج

البلاغة، بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى1959

* محمد بن الحسن الحر العاملي، توفي 1104 للهجرة، وسائل الشيعة الى تحصيل مسائل الشريعة، تحقيق محمد رضا الجلالي، مؤسسة آل البيت لاحياء التراث بقم المشرفة، مطبعة مهر – قم، الطبعة الثانية 1414.

* أحمد بن محمد بن حنبل، توفي عام 241 للهجرة :

* كتاب العلل ومعرفة الرجال، تحقيق وتخريج د. وصي الله بن محمد عباس، المكتب الإسلامي – بيروت الطبعة الأولى. دار الخاني للنشر والتوزيع – الرياض.

* مسند أحمد، طبعة دار صادر– بيروت

* أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، توفي 463 للهجرة، تاريخ بغداد، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1 1417 – 1997.

* عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، توفي 808 للهجرة، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر المشهور ب تاريخ ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، ط4، 1971.

* خليفة بن خياط العصفري، توفي 240 للهجرة ، تاريخ خليفة، رواية بقي بن خالد، حققه وقدم له د. سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان 1993

* علي بن عمر الدارقطني، توفي 385 للهجرة، علل الدارقطني، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله السلفي، منشورات دار طيبة – الرياض، ط1 1405.

* عبد الله بن بهرام الدارمي ،توفي 255 للهجرة، سنن الدارمي، مطبعة الاعتدال – دمشق.

* سليمان بن الأشعث السجستاني المعروف بأبي داود، توفي 275 للهجرة، سنن أبي داود، تحقيق سعيد محمد اللحام، الطبعة الأولى 1990، دار الفكر – بيروت.

* أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري، توفي 282 للهجرة . الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، ط1 1960، دار إحياء الكتب العربية.
* أبو عبد الله شمس الدين الذهبي، توفي 748 للهجرة :
* تاريخ الاسلام، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الاولى 1407- 1987.
* سير أعلام النبلاء، أشرف على تحقيقه وخرّج أحاديثه شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، 1413 - 1993
* السيد سابق، فقه السنة، ط1 2003، مؤسسة الرسالة - بيروت.
* محمد بن سعد، توفي 230 للهجرة، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت
* كتاب سليم بن قيس الهلالي العامري الكوفي، توفي 76 للهجرة، بتحقيق الشيخ محمد باقر الانصاري (الناشر غير مذكور).
* جلال الدين السيوطي، توفي 911 للهجرة، تاريخ الخلفاء، تحقيق سعد كريم الفقي، الطبعة الأولى 2003. دار اليقين - مصر.
* الفضل بن شاذان الازدي النيسابوري، الايضاح، توفي 260 للهجرة، بتحقيق جلال الدين الحسيني الارموي (الناشر غير مذكور).
* أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري، توفي 262 للهجرة، تاريخ المدينة المنورة، حققه فهيم محمد شلتوت، الطبعة الثانية 1410 هـ مطبعة قدس - قم.
* سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني، توفي 360 للهجرة، المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مطبعة دار إحياء التراث العربي، ط2، الناشر: مكتبة ابن تيمي - القاهرة
* أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، توفي 310 للهجرة، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق نخبة من العلماء، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان.
* أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، توفي 460 للهجرة، رجال الطوسي، تحقيق جواد القيومي الاصفهاني، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، الطبعة الاولى، رمضان 1415.
* ابو عمر بن عبد البر القرطبي النمري، الاستيعاب في معرفة الاصحاب، صححه وخرّج أحاديثه عادل مرشد. دار الاعلام - الاردن. الطبعة الاولى 2002.

* احمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي، العقد الفريد، تحقيق محمد عبد القادر شاهين، المكتب الجامعي الحديث - الاسكندرية. الطبعة الاولى 1998.

* محمد عبده، شرح نهج البلاغة، اعتنى به وراجعه علي أحمد حمود، المكتبة العصرية - بيروت، 2002.

* أبو القاسم علي بن الحسين ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر، توفي 571 للهجرة، تاريخ مدينة دمشق، دراسة وتحقيق علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

* ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، توفي 276 للهجرة، الامامة والسياسة المعروف بتاريخ الخلفاء، تحقيق الاستاذ علي شيري. الناشر: انتشارات الشريف الرضي، الطبعة الأولى - ايران، 1413

* محمد يوسف الكاندهلوي، حياة الصحابة، دار المعرفة - بيروت.

* عماد الدين أبو الفداء اسماعيل ابن كثير، توفي 774 للهجرة:

* تفسير القرآن العظيم، تقديم الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت - لبنان 1992

* البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، الطبعة الولى 1408 للهجرة، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

* علي الكوراني العاملي، معاصر، جواهر التاريخ . الناشر: دار الهدى الطبعة الاولى 2004.

* محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجة، سنن ابن ماجة، حقق نصوصه وعلّق عليه محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر

* علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، توفي 975 للهجرة، كنز العمال، تحقيق بكري حياني وصفوة السقا، مؤسسة الرسالة - بيروت.

* أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، توفي 345، مروج الذهب ومعادن الجوهر، المكتبة العصرية - لبنان، 2007.

* أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، طبعة المكتبة العصرية - صيدا/ لبنان - 2003

* محمد بن محمد بن النعمان المعروف بالشيخ المفيد، كتاب الجمل، مكتبة الداوري، قم - ايران.

* تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، توفي 845 للهجرة، النزاع والتخاصم بين بني امية وبني هاشم، تحقيق السيد علي عاشور.
* د. عدنان محمد ملحم، معاصر، المؤرخون العرب والفتنة الكبرى، دار الطليعة - بيروت. الطبعة الاولى 1998.
* أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن العباس النجاشي الاسدي الكوفي، أسماء مصنفي الشيعة المشتهر برجال النجاشي، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، الطبعة الخامسة 1416.
* أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، توفي 303 للهجرة، سنن النسائي، بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي. طبعة 1348/ 1930، دار الفكر - بيروت.
* نصر بن مزاحم المنقري، المتوفي سنة 212 للهجرة، وقعة صفين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ط2، 1382، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع.
* أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري، السيرة النبوية، ضبط وتحقيق الشيخ محمد علي القطب والشيخ محمد الدالي بلطة. طبعة المكتبة العصرية. صيدا - لبنان، 2003
* أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، توفي 468 للهجرة، أسباب النزول، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة 1968. الناشر: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع - القاهرة.
* محمد بن عمر بن واقد، المعروف بالواقدي، توفي 207 للهجرة، كتاب المغازي، تحقيق د. مارسدن جونس. منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت. الطبعة الثالثة 1989
* أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح المعروف باليعقوبي، توفي 292 للهجرة، تاريخ اليعقوبي، دار صادر - بيروت.

نبذة عن المؤلف



ولد حسام عبدالكريم، واسمه الكامل حسام محمود حسن شحادة عبد الكريم، في مدينة إربد في الأردن عام 1968، لأسرة فلسطينية نازحة.

وفي عام 1986 حصل على شهادة الثانوية العامة من الزرقاء - الأردن، وكان من ضمن الطلاب العشرة المتفوقين على مستوى المملكة الأردنية الهاشمية.

وفي عام 1991 حصل على شهادة البكالوريوس في الهندسة الكيميائية، من الجامعة الأردنية - عمان. وكان صاحب الترتيب الأول.

وفي عام 1992 حصل على شهادة الماجستير في الهندسة الكيميائية المتقدمة، من جامعة لندن، بمرتبة الشرف ومنذ ذلك الوقت عمل كمهندس في القطاع الخاص في الأردن والسعودية والإمارات العربية المتحدة.

وقد صدر له من قبل:

«قريشٌ وعليّ» نشر عام 2006

«اخبار الفتنة الكبرى: عهد عثمان» نشر عام 2012



THE RISE OF MUAWIYAH

تاريخ



صعود معاوية

عليّ وعائشة ـ حرب الجمل

هذا الكتاب يختلف عن الأعمال الأخرى الّتي تناولت موضوع الفتنة الكبرى، يختلف عن كتابيْ **طه حسين**: (**عليّ وبنوه**) و(**الفتنة الكبرى/ عثمان**)؛ كما يختلف عن كتاب **هشام جعيط** (**الفتنة/ جدليّة الدين والسياسة في الإسلام المبكر**)، ويختلف عمّا كتبه **عبّاس محمود العقّاد** في سلسلة **عبقريّاته**، ويختلف عن كتابات **فلهاوزن** وغيره من المستشرقين، ويختلف طبعًا عن سرديّة الإسلام (**السنيّ**) التقليديّة لأحداث الفتنة الكبرى كما هي في كتابات **عليّ الصلابي** على سبيل المثال، وعن كتب المحاججة **الشيعيّة** وسرديّتها التقليديّة كما هي في كتابات **عليّ الكورانيّ** وأعماله مثلا.
إنّه كتاب فريد فيه إضافة نوعيّة لما سبقه من كتب في هذا الموضوع.

الناشر

سبق هذا الجزء جزءٌ أوّل يتناول خلفيات الفتنة الكبرى وعهد عثمان، ويليه جزء ثالث يتناول معركة صفين التي آلت إلى نهاية عهد عليّ.

حسام عبد الكريم ◆ صعود معاوية عليّ وعائشة ـ حرب الجمل

2





ISBN 978-6589-09-902-4



الأردنّ، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص. ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 ◆ منشورات 2019
الغلاف: 95297109 7 00962